دكتور
محمد سعد فشوان

حسن كامل الصيرفي
وتيارات التجديد في شعره

يصدر عن رابطة الأدب الحديث بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة
ميدان الأزهر

الإهـــداء

إلى الناقد الكبير الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ، الذى أوحى إلىّ بفكرة هذه الدراسة ، وشجعنى على المضىّ فيها ، فاخترمته المنية قبل أن يتحقق له هذا الأمل العزيز ، لعله يقر بها روحاً فى مثواه الأخـــير .

د . محمد سعد فشوان



الذكرى

ما عاش قلبى لحظة   فى مائجٍ من ضغنِ
ولا انطوى صدرى على   أثارةٍ من إحنِ
فإن مضيت فاذكروا   قلب النقىِّ المؤمنِ
الزنبقُ الطاهرُ يمـ   ضى ناصعاً لم يُشْنِ
عبيرُه على الدُّنى   وروحه فى القُنَنِ

من شعره فى ديوانه
« صلواتى أنا »

تصـــدير

حسن كامل الصيرفى

هذا الشاعر الأبولى الكبير ، الذى عاش فى رحاب الشعر أكثر من نصف قرن ، والذى أصدر فيها دواوين حافلة من مثل :

— الألحان الضائعة ·
— الشروق
— صدى ونور ودمــوع
— عــودة الوحى
— شهرزاد
— زاد المســافر
— النبــع
— صلواتى أنا
— نوافد الضياء

وغيرها •• يـُعد علامة فى طريق تطور الشــعر العربى المعاصر ، ويـُعـَد شعره تيارا جديدا فى شعرنا الحديث •

وقد تحدثت عنه فى كتابى « مذاهب الأدب » الذى صدر عام ١٩٥٣ ، وقلت عنه : إنه شــاعر رومانتيكى مجــدد يملك كل مواهب الشاعرية المبدعــة •

واليوم أتحدث عن الصيرفى صاحب الموسيقى الرائعة ، والأسلوب الجميل ، واللفظ المونق ، والصور الشعرية الخلابة ، والخيال الجامح السارب فى الكون ، وصاحب الابداع الشعرى الرفيع ، الذى يكاد ينفرد به من بين شعرائنا الكبار •

أتحدث عنه شاعرا مجددا بمناسبة صدور دواوينه : شهرزاد — زاد المســافر — النبع — عودة الوحى — صلواتى أنا — نوافذ الضياء ، فى طبعة أنيقة عن دار المعارف بالقاهرة •

ستة دواوين من الشعر تُعد من أرفــع الابداعات الشــعرية ، موسيقى — وصورا شعرية خلابة ، وخيالاً متوثبا ، ومضمونا إنسانيا عاليا ، فى صياغة عذبة رصينة ، فيها حلاوة الإيقاع ، وروعة الإلهام ، وجمال التناسب ، وحرارة العاطفة •

والصيرفى فى تعديده لمواقف التجربة فى قصيدته ، وفى تغييره للقافية عند كل موقف منها ، وفى قوة تأثيره فى قارئه وسامعه ، سيظل سباقا فى ميدان التجديد من غير ما وَناة أو ريب ••

فى ديوانه « عودة الوحى » من قصيدته « يا شاعر الحُلم الغافى » • يقــول :

يا شــاعرا الحُلمُ الغافى على مقلٍ
أجفانها أوهنتْها السُّهْدُ والحلمُ

يا شــاعرا زاده فى كل مرحلــة
الحسن والحرف والقرطاس والقلمُ

والحلم الغافى هو ما تعنى به الإلهام • والحسن هــو الجمــالُ ، والإلهام الذى يستمد رؤاه من الجمال والحب هــو الفكر الرومانسى الحالم ، الذى يملأ القصيدة بأنغام الأمل والألم •

وعندما يوقع الصيرفى نغمة الحالم فى قصيدته نراه يقولُ مثلمــا قال فى قصيدته من ديوانه « عودة الوحى » :

دنيانا ، دنيانا وَهْمْ
وخيالٌ طوّافٌ فى حُلمْ
مــا أخدعــه طيفُ النوْمْ

يخفى عنا ما لا ندرى
والشـــر عـــدو للخــير

ويقول من قصيدته « النبع » فى ديوانه « النبع » :

من فجَّر من قلب الصحراءْ
هـــذا النبع السحرىّ المـاءْ
شــفتان حديثهمــا أنـــداء
فى الكــون لهمسهما إصغاءْ
عينـــان بريقهمـــا إغـــراء
قـــد فجَّرتا فى ذات مســاء
هـــذا النبع السحرى المـاء

فنجد الصورة ، والخيال ، والموسيقى ، وتخير النغم ، تضفى على شعره كل الجمال .

وفى الديوان نفسه من قصيدته « من غير وداع » يقول :

ســـــفر كشـــعاع ماض لمَّـــــاعْ
من غـــير وداع صـــكّ الأسمـــاعْ
وكذلك نمضى فى الدنيـــا
رؤيـــا تعقبهـــا رؤيـــا

فتجد التركيز الجميل ، والإيقاع القوى ، يضيفان إلى الصـــورة حلاوة وجمالا لا حـــدّ لهما .

ولننظر إلى قصيدته « بعد فوات الأوان » من ديوانه « صلواتى أنا » يقول الشـــاعر :

لن يعـــود الزمـــان
يا حبيبـــى بنـــا
مثلمـــا قـــد كـــان

نجـن فـى دربنـا
بالمنـى سـائران

ومع حلاوة النغم ، نجد أننا أمام صورة جديدة من بحر قد يكون مجزوء بحر الخفيف ، وقد يكون بحرا جديدا مبتدعا .

وفى ديوانه « نوافذ الضياء » من قصيدته « وحى خيالى » يقول الشـاعر :

يا نبـع شعر جـديد
يعيـد سـحر قصيدى
جـودى بفيضـك جودى
علـى مغنّى الجمـال

ومن الحب تنبع ألحان الشاعر الرومانتيكى الحالم .

وتجىء الحرية ، الحرية التى غنّى لها الشـاعر فى قصيدته « حكمة عصفور » من ديوانه « النبع » ، مع الرمز الرائع الذى احتوت عليـه القصيدة ، من حب الوطن والحياة فيـه .. وكل ذلك إلهام الشـاعر الرومانسى المجدد المبدع .

ويستمد الصيرفى شعره من الكـون والحياة والطبيعة ، فى روح إنسانى رفيع .

ولقد بكيت وأنا أقرأ للصيرفى قصيدته الإنسانية الرفافة « صخرة » من ديوانه « النبع » ، التى يقول فيها :

مـا أقساهـا تلك الصخـرة
لـم نترقـرق منهـا عَـبْرة
مـوج البحـر علـى قدميهـا كم يتحطم
هـذا الثـائر ألقى الرايـة ثم استسلم

تلك الراية ، هذا الزبدُ ، الأمل المُعْدِمْ
مــا أقسـاهـا تـلك الصخـــرة
لــم تتصاعــد منهـا زفـــرة
ما أقساها ، لا ترحمــهُ ، لا تترحّمْ
مــا أقسـاهـا تـلك الصخـــرة
لــم تتنـــاثر منهـــا ذرة

وهكذا نجد التجديد فى شعر الصيرفى ينطلق من المقدرة العالية ، على أداء المضمون الإنسانى الرومانسى الرفيع ، فى أسلوب جميل ، رائع الايجاز ، والنغم ، روعة صوره وأخيلته وألفاظه •

إن قـــدرة الصيرفى على أداء المعنى الكبير فى أبسط عبارة وأجملها وأرقها ، لتعادل قدرته على امتلاك زمام الموسيقى الحلوة الجميلة الموحية ، وتعادل قدرته على تقطيع القصيدة ، وفق مواقف التجربة ، وهذا التقطيع يحمل الكثير من صــور الالتفات الذهنى الحار ، ومن تعديد القافية ، ليكون الروى دائما فى خدمة الموسيقى والصورة والأسلوب والمضمون •

والإلهام الرومانسى هو الذى يهب الشاعر دائما ملكة الإبداع الفنى فى كل صوره الرفافة الهامسة الحالمة ، وهذا الإلهام تجيش به تيارات عاصفة من الحب ، والجمال ، والطبيعة ، والألم •

والألم دائما هو النبع الثر ، الذى يغذّى تجــربة الشاعر بأحلى الأنغام ، وبأجمل صــور الإلهام •

ليس الصيرفى صورة مكرورة من شعر شاعر آخر ، إنه صـــورة مستقلة ، نابضة بالحياة ، موحية وملهمة ، صورة فى غاية الطرافة والغرابة والتفرد •• فصوَرُهُ وأخيلته ومضامينه وتجاربه ، كلها من نبع نفسه ووجدانه وذاته •

والصيرفى يقف دائما ، يتأمل الكون بعين محدّقة ، وخيال وثاب ، وفكر منطلق ، إنه يمل التقليد ويأبى الا أن يأتى دائما بجديد ، ومن ثم حمل شعره كل جمال الإبداع والخلق الفنى المتجدد .

وفى « شهرزاد » يصوغ الصيرفى من قصتها ملحمة شعرية ، تحمل طابع الشعر الإنسانى العالى :

ونحن نقرأ فيها للشاعر :

أنا أروى لك فى كل مساء
ما روى بعض الرواة القدماء
قصة ليس لها ظل انتهاء
سأداوى فيك جرح الكبرياء
سترى البسمة تعلو شفتيْكْ
وترى الرحمة تندى من يديك
وترى الأفواج إذ تسعى إليك
بدعاء لك منها ، لا عليك

إنها حقا « قصة ليس لها ظل انتهاء » .

ومن شهرزاد صاغ العقل الرومانتيكى أعذب أناشيده ، وأجمل وأحلى أنغامه ، التى هتف بها الناس ، وغنّاها المكدودون فى كل مكان .

وفى « الليلة الثانية بعد الألف » من « شهرزاد » يقول الشاعر على لسان « شهر زاد » :

رفرف الأمن على هذى المدينة
وسرت فى ليلها روح السكينة
لا انتقامٌ ، لا اغتصابٌ ، لا ضغينة
فرِحَتْ مثلى وقد كانت حزينة

وهذه هى رؤيا الشـــاعر الرومانسى الأبوللى ، حسن كامل الصيرفى ، الرؤيا التى لا يملك « شهريار » معها إلا أن يصيح :

أنتَ فى حُلُمٍ ، ولكنّى أنـا
لم تـذق عينـاى بعـدُ الوسنا
مـا الـذى فى ليلـة بدّلنـا
هـل أنا أنتِ ، وهـل أنتِ أنا ؟

إن هذه الحيرة ، وهذا الفكر الحالم المتألق ، هما سمة أصيلة فى فن الصيرفى ، ويا كم يأتينا الصيرفى فى شعره بالجديد ، كل الجديد .

لن نذكر لك تجارب الشاعر التى أوحت إليه بفنه ، والتى صاغ منها أحلى أناشيده .

ولن نذكر لك عاطفة الشاعر الحارة فى كل بيت من شعره ، هـذه العاطفة ، التى جعلته يتعجب لقسوة الصخرة ، والمـاء حولها ثائر ، والموج عليها متلاطم .

ولن نذكر لك تخير الشاعر لكل حرف ، وكل كلمة ، وكل صورة ، وكل بيت من شعره .

ولن نذكر لك كيف صاغ الصيرفى — من موسيقاه وتجربته معا — أجمل إلهاماته ، وأبدع إيحاءاته وإبداعاته .

إن الصيرفى فى دقة تركيزه ، فى قوة إمساكه بعصا التعبير القوى العميق ، فى شرود خياله ، فى حرارة عاطفته ، فى كل جانب من جوانب شاعريته المتألقة المضيئة ، ليحمل دائما لواء الأصالة والتجديد والإبداع .

والصيرفى قبل ذلك وبعد ذلك كله هو موضوع هذه الدراسة القيمة ، وذلك السفر الممتاز ، الذى ألفه الأستاذ الأديب الناقد الدكتور محمد سعد فشـوان ، وهو جدير بالتقدير والثناء .

وللدكتور فشوان كتاب صدر قبل حين عن دار المعارف بمصر عن « مدرســـة أبولو » ، وله كتب أخرى صدر بعضها ، وبعضها الآخر لايزال مخطوطا ، وتمتاز دراساته بالموسوعية والموضوعية معا ، وبروح الأديب وذوق الناقد جميعا •

وقد سجلت رسائل مختلفة فى جامعاتنا عن الشـــاعر حسن كامل الصيرفى وشعره •

ولا شك أن شاعراً كبيراً مثل حسن كامل الصيرفى الذى توفى الى رحمة الله تعالى فى العشرين من مايو عام ١٩٨٤ جدير بهذه العناية ، وبمثل تلك الدراسة •

والله ولى التوفيق ،

د •محمد عبد المنعم خفاجى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

فى بداية السبعينيات من هـذا القرن كنت أتوفر على دراســة القصيدة عند شعراء مدرســة أبولو ، وكانت همتى مصروفة فيها إلى دراســة النتاج الشعرى لهذه الطائفة من الشعراء الذين انضووا تحت لواء هــذه المدرسة ، وآمنوا برسالة الشعر السامية ، وما له من أهداف نبيلة فى الحياة ، ولم أكن مهتما بالترجمة لهؤلاء الشعراء الذين أخضعت نتاجهم للدراسة فى هذا البحث ، لأننى لم أكن فى ذلك الحين أهتم بالناحية التاريخية قدر اهتمامى بالنواحى الفنية والجمالية فى النص ، ولم أكن — لذلك — مشدودا إلى الترجمات الكثيرة التى طفحت بها المكتبة العربيــة الحديثة ، فقد كنت مشدودا — كما قلت — إلى الدراسة الفنية ، ولازلت أجــد فى نفسى ميلا خاصا إلى استخلاص السمات التى تفيد فى دراسة الظاهرة الأدبيــة ، أو تكشف عن شخصية الأديب وعصره ، وطريقته فى التعبير والأداء من خلال النصوص التى تدرس دراسة فنية فى المقــام الأول ، أما التعريف بالكاتب أو الشــاعر فيأتى تابعا — وعلى نحــو موجز — لهذه الدراســة .

كنت أراجع قوائم المكتبات ، وقوائم البحوث المسجلة فى قسمى (الماجستير) و (الدكتوراه) فى الكليات المختلفة فى المــدة التى اعتزمت فيها اختيار موضوع يصلح للتسجيل بقسم (الدكتوراه) فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ، وكان نظام الكلية لا يسمح بتسجيل الموضوعات التى سبق دراستها فى قسمى التخصص (الماجستير) والعالمية (الدكتوراه) ســواء فى هذه الكلية أو فيمــا يناظرها من الكليات الأخرى ، وفى معهد الدراسات العالية التابع لجامعة الدول العربيــة بالقاهرة فهالتنى كثرة البحوث الحديثة فى الترجمة ، وقد يدهش المرء حين يرى أن كثيراً من الباحثين راحــوا يصرفون جلّ اهتمامهم فى مثل تلك الدراسات إلى

عرض النواحى التاريخية والاجتماعية والسياسية ، والعقلية التى كانت تحيط بالشخصية المترجم لها ، وقد يمضى بعضهم فى عرض تلك النواحى بإسهاب فى الوقت الذى تكون فيه الرابطة بين ما يعرضه وبين الشخصية المدروسة ضعيفة أو واهية ، أما حظ الدراسة الفنية ، والوقفات الجمالية أو الفكرية إزاء نتاج الشخصية المترجم لها فشىء يسير إذا قيس بحظ الجوانب الأخرى التى لا تمس تلك النواحى من قريب أو من بعيد .

أضف إلى ذلك أننا حين نفترض — مثلاً — وجود عدد من البحوث التى تدخل فى باب الترجمة الغيرية تناول فيها أصحابها شعراء أو أدباء ربطت بينهم ظروف حيوية موحدة ، أو متقاربة تاريخيا ، أو اجتماعيا ، أو فكريا أو عقليا فإن تلك البحوث تصبح متشابهة أو متقاربة — غالبا — فى عرضها هذه الظروف التى أحاطت بالشخصية المترجم لها ، وتصبح الإضافة التى يمكن الإفادة منها ، والتى تعدّ جديدة فى بابها منحصرة فى دراسة الآثار الأدبية دراسة فنية أو جمالية للشخصية المحتفى بها فى البحث .

لهذا كان من رأيى أنه لا بد من صرف الهمة فى الدراسات الأدبية إلى النواحى الفنية والجمالية والفكرية لتكون جادة وواعية ، ولتكون إضافة جديدة يحتفى بها لما لها من مكانة ممتازة فى المكتبة العربية ، والابتعاد كذلك عن النمط التاريخى الذى قد يأتى مملا فى بعض الأحيان ، والاكتفاء منه بما يلقى الضوء على بعض الظواهر الهامة التى تفيد فى دراسة الناحية الفنية فقط ، وليس يعيب بعد ذلك أن نستخلص من بين تلك الدراسات الجادة والواعية ما يصلح أن يكون مادة للتاريخ ، حين نقصد إلى دراسة ظاهرة معينة من ظواهر الأدب ، أو عصر من عصوره ، أو قضية من قضاياه .

ولسنا نعنى هنا مطلقا التهوين من شأن التراجم الغيرية حين تكون مستقلة ببحث ، أو دراسة مفردة ككل ، فهناك من بين تلك الأعمال

ما يستحق النظر والتأميل ، ويعد مفخرة لصاحبه ، وخاصة حين تكون الدراسة جديدة فى بابها ، أو غير مسبوقة بما يناظرها ، أو كانت مخدومة فى مسألة الربط بين المناشط التاريخية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعقلية وبين نتاج الشـاعر أو الأديب نفسه ، أو كانت جادة فى النظر إلى هذا النتاج على نحـو فنى أو جمالى مما يتصل بدراسـة الأدب ونقـده فى الصميم •

لذلك حين استقر رأيى على أن يكون موضوع دراستى للعالميـة (الدكتوراه) : « القصيدة عند شعراء مدرسـة أبولو » كنت على بصيرة من أمرى منذ البداية ، وعلى يقين أيضا بأن دراسـة الشعراء الذين أخضعت نتاجهم للدراسـة ، ومن بينهم الشاعر حسن كامل الصيرفى دراسـة تاريخية أمر غير وارد أصلاً فى الحسبان ، فإذا ما اقتضت الدراسة شيئا من ذلك فلن يتى إلا موجزا ، وبالقدر الذى يخدم الجانب الفنى فحسب •

وحين فرغت من الدراسة ، وتمت إجازتها بعد مناقشتى فيها مناقشة علنية فى شعبان ١٣٩٧ هـ / أغسطس ١٩٧٧ م رأيت أن أهدى بعضا من نسخها لبعض شعراء أبولو الأحياء ، من مثل الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، والدكتور مختار الوكيل ، والأستاذ حسن كامل الصيرفى •

ولا أستطيع أن أصف سعادتى حين نشر الأستاذ السحرتى كلمة موجزة عن هذا البحث ، وقبل مناقشته بشهرين تقريبا ضمن مقاله الشهرى الذى كانت تنشره مجلة « الثقافة » تحت عنوان ثابت هـو « نظرات ونقدات فى الأدب والحياة » وكان ذلك فى عدد شهر يونية ١٩٧٧ م ، وحين أتبع هذه الكلمة بدراسة موجزة جاءت أرحب من سابقتها فى عدد شهر ديسمبر من نفس العام •

وأشهد أن الأستاذ السحرتى قد أعطانى فى دراستيه فوق ما أستحق

وفوق ما كنت أتوقعه من مثله ، فيعلم الله أنني كنت أخشى وأنا أقدم إليه نسخة من هذا البحث أن أكون قد عرضت لشيء فيه على نحــو موجز ، أو اكون قد تحيفت من قدر شاعر ممن عرضت لهم فى اثنائه ، أو اعطيت واحــداً فوق ما يستحق ، أو أهملت شيئاً كان فى مسيس الحاجة إلى التأصيل والرعاية ، وأنا الذى لم أدرك عصر ابولو الزاهر (١٩٣٢ — ١٩٤٦ م) ، ولم أعش تجربته فى الحياة مثلما عاشها هؤلاء ، وكما عاشها سواهم من شعرائها الراحلين ، وشعرائها الذين لازالوا على قيد الحياة ، ولكن حديث الأستاذ السحرتى جاء مشجعاً لى على كل حال ، وأكد فى نفسى الرغبة فى السير من جديد على هذا النسق المختار فيمــا أكتبه ، أو أقدمــه للقراء من بحوث ودراسات فى الأدب العربى ونقده •

وقد لفت الأستاذ السحرتى نظرى فى دراسته الثانية — وهذا شىء يشكر له ويثاب عليه — إلى ضرورة القيام بدراسة مفردة عن صديقه ، ورفيقه الأستاذ حسن كامل الصيرفى تنصفه وتوفيه حقه فى غير بخس أو نقصان •

ومنذ ذلك الحين وأنا أعــد وأستعد ، وأجتهد وأجدّ من أجل القيام بدراســه مفردة تنصف هــذا الشاعر الذى لا يزال قلمه يسخو بالقصائد حتى الآن ، خاصــة بعد أن تبين لى فيما بعد أن ما عرضته من نتاجه فى دراستى عن أبولو كان لا يمثل فى الحقيقة إلا جزءاً ضئيلاً من شعره ، حيث كان قد خيل إلىّ من قبل أن شعره محصور فى دواوينه التى كانت قد رأت النور ، وخرج بها مطبوعة على الناس ، وهى « الألحان الضائعة » و « الشروق » و « صــدى ونور ودموع » فإذا شعره يبلغ ستة عشر ديوانا أعرض لها بتوضيح فيما بعد •

وبدأت أتصل بالشاعر ، وتكررت زياراتى له بمنزله فى مصر الجديدة ، وأشهد الآن أننى كنت أشفق عليه فى كل زيارة من تلك الزيارات ، حيث كانت حالته المرضية — شفاه الله وعافاه — غير مشجعة لى على الاستمرار معه وقتا طويلا ، وكثيرا ما رأيته يتحامل على نفسه ، ويخفى آلام جسده

بابتسامة خفيفة كنت أقرأ فيها كل شىء ، وأرى من خلالها ما لم أكن قد رأيته ، أو عرفته من قبل ، حين كنت أكتب عما تسنى لى من شعره ممثلا فى دواوينه التى نوهت بها من قبل دون أن أراه ، أو ألتقى به ، وقد رأيت من خلال الأحاديث التى تجاذبت أطرافها معه أننى لم أكن قد وفيته حقه فى الدراسة التى ألمحت إليها من قبل ، وأن بعض الأمور التى بدت أو كانت تبدو محيرة لى فى شعره ، أو فيما تسنى لى منه فى الماضى القريب قد راحت تأخذ وضعها فى ذهنى من جديد على النحو الصحيح ، خاصة فيما يتصل من شعره بالرمز ، وأصبحت كلما زرته أكثر اقتناعا بما اقترحه علىّ الأستاذ السحرتى من قبل من ضرورة تقديم دراسة مفردة عنه تنصف شعره وشاعريته .

تكشفت لى فى حياة الأستاذ الصيرفى جوانب كثيرة كانت خافية علىّ من قبل ، وأنا على يقين بأن من كتبت عنهم فى دراستى للعالمية (الدكتوراه) لو هيىء لى الالتقاء بهم حال إعدادى لها مثلما التقيت بالصيرفى لكنت قد غيرت رأيى فى بعض ما قلته عنهم ، ولكننى غير نادم على ما فاتنى من مثل تلك اللقاءات ، لأنه لم يكن ليتسنى لى أن ألتقى بكل من تناولت أشعارهم فى تلك الدراسة من بين شعراء جمعية أبولو ، وكيف كانت السبيل إلى الالتقاء بمن مات منهم ؟ ! وكيف تكون السبيل إلى الالتقاء بمن كان منهم على قيد الحياة ، ومنهم من كان يعمل خارج الوطن ، ومنهم من كانت له مشاغله التى ربما كان من غير الممكن أن تسمح بتكرار اللقاء ، هذا فضلا عن كثرة الشخصيات الذين أخضعت شعرهم للدراسة ، ومنهم من كان شعره قد نيف على العشرين ديوانا مثل الدكتور أبى شادى .

قلت إننى اتصلت بالأستاذ الصيرفى ، وعرضت عليه فكرة الأستاذ السحرتى التى أشرت إليها من قبل ، وكان قد طالع اقتراحه فيما يبدو بمجلة « الثقافة » وأحسست منذ التقيت به لأول مرة بأن الفكرة قد راقته ، ذلك لأنه لم يضن علىّ بعد ذلك بشىء من الوقت والجهد ، بل راح

يبذل معى من جهده ووقته الشىء الكثير ، على الرغم من آلامه ومتاعبه ، وراح يمدنى بالمعلومات التى يمكن ان تعد من الوثائق الحية الناطقة ، والتى يمكن ان نفيد منها فى درس الادب العربى الحديث فى مصر فى الجيل الماضى ، جيل العقاد وشكرى والمازنى ، وابى شادى ، وناجى ، والسحرتى ، والصيرفى وسواهم ، والتى يمكن ان نفيد منها ايضا فى دراسة فنه الشعرى ، واشهد اننى استفدت كثيرا من حكاياته عن نفسه ، وتعد قصصه الواقعية التى حدثت له فى فصول حياته المختلفة من الوثائق الممتازة التى تفيد إفادة كبيرة أو هائلة فى دراسة شعره ، وتصوير شخصيته على نحو دقيق •

ومضت السنون بعد ذلك دون أن أنقطع عن زيارته ، ست سنوات أو تزيد لم أخط خطوة واحدة فيها إلى الأمام ، كانت مشاغل الحياة فيها تحول بينى وبين الكتابة عن شعره وفنه ، ولم تكن مشاغل الحياة وحدها مسؤوله عن تاخر إنجاز هذا العمل الذى اعتزمت القيام به منذ سنوات — كما سبق أن قلت — بل إننى كنت حريصا على أن يكون نتاج الشاعر كله بين يدى ، حتى أبدأ بداءة صحيحة ، وكانت بعض دواوينه قيد الطبع فى دار المعارف ، وبعضها كان لا يزال مخطوطا فى أضابير مكتبته العامرة •

أما ما سبق نشره « كالألحان » و « الشروق » و « صدى ونور ودموع » فقد جهدت فى البحث عنه ، وكنت قد اعتمدت على هذه الدواوين فى دراستى عن شعراء أبولو عن طريق الاستعارة الداخلية بدار الكتب المصرية بباب الخلق بالقاهرة قبل أن تنقل إلى مقرها الجديد ، ولكنى هذه المرة لا أستطيع الانقطاع لها مثلما انقطعت من قبل ، فكان لابد من اقتنائها لتكون تحت يدى باستمرار ، وقد وفقت بعد طول بحث إلى شراء نسخة جيدة الطباعة من ديوانه « صدى ونور ودموع » •

ثم راح الشاعر يهدى إلىّ دواوينه الواحد تلو الآخر بعد الفراغ من طباعتها بدار المعارف ، فأهدى إلى منها وفى أوقات متقاربة دواوينه : « عودة الوحى » و « زاد المسافر » و « النبع » و « صلواتى أنا »

و « نوافذ الضياء » و « شهرزاد » كما أعدّ لى نسخة من « الألحان » وأخرى مصورة من « الشروق » ونسخا مصورة من دواوينه المخطوطة : « همسة العطر للنسم » و « نغمات ونسمات » و « ورقات متفرقات » مما يصل إلى أن يكون ثروة أدبية وشعرية عزيزة المنال .

كمـا زودنى الشاعر ببعض الدراسات التى كتبت عنه وعن شعره من قبل ، من مثل دراسة الأستاذ إسماعيل مظهر رئيس تحرير مجلـة « المقتطف » فى العقد الخامس من هذا القرن عن ديوانه « الشروق » التى نشرت بالمقتطف فى يونية ١٩٤٧ م ، ودراسـة الأستاذ مصطفى السحرتى التى نشرت أيضا بـ « المقتطف » فى فبراير ١٩٤٩ م بعنوان : جولة فى « الألحـان » و « الشروق » للأستاذ حسن كامل الصيرفى ، ودراسة الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى المنشورة بالجزء الثانى من كتابه « دراسات فى الأدب العربى الحديث ومدارسه » .

وكانت لدى بعض الدراسات التى كتبت فى المـاضى عنه ، من مثل دراسة الدكتور أحمد زكى أبى شادى التى صدر بها ديوان « الألحان الضائعة » ودراسة الدكتور عبد العزيز عتيق التى ذيل بها هـذا الديوان وهى بعنوان « شاعرية الصيرفى فى الألحان الضائعة » إلى غير ذلك من الدراسـات .

كما رحت خلال هذه المـدة أدبج بعض المقالات التى تتصل به وبشعره ، وقد نشر من بينها دراسـة فى « الأديب » البيروتية بعنوان « صور رمزية فى شعر حسن كامل الصيرفى » (١) ومقال آخر بعنوان « الشاعر الصيرفى والناى والبنفسج » بمجلة الثقافة القاهرية (٢) ، وهناك مقال فى سبيله للنشر بعنوان : « شهرزاد تطل من جـديد خـلال شعر حسن كامل الصيرفى » وهو دراسـة نقدية عن شهرزاده هـو ،

---

(١) مجلة الاديب ، مارس وابريل ١٩٨٠ م
(٢) الثقافة ، يناير ١٩٨١ م ص ٨٦ — ٩١

التى قدمها منظومة شعراً من خلال رؤية جديدة تختلف عن الرؤى التى قدمت بها للقراء من قبل .

وكانت هذه الرؤية الشعرية قد نشرت بدار المعارف بمصر مشفوعة بدراسة صدرت بها للدكتور عبد الحميد يونس ، وأخرى ذيلت بها للدكتور حسين فوزى بعنوان : « تنويعات على لحن « شهريار » .

❋

أما عن منهجى فى هذه الدراسة ، وعما قلته أو سأقوله فيها فلن أسهب فى الحديث عنه فى هذه المقدمة السريعة ، ولكننى سأكون حريصا على أن أقدم الأستاذ الصيرفى للناس من خلال شعره ، لن أتحدث عن تاريخ حياته إلا بإيجاز ، وسأترك الحديث عن تاريخه على نحو مفصل كما هو الشأن فى موضوعات التراجم ، فأنا لا أملك فى هذه الدراسة إلا أن أفسح المجال لشعره أولا ، ليرسم القارىء فى ضوئه صورة مشرقة لهذا الشاعر ، وسأجعل ذلك مشفوعا ببعض ما كتب عنه من دراسات ، وما وجه إليه من نقدات ، وسيكون تدخلى فى هذه الدراسة محكوماً بالنظر الموضوعى ، ولن أسمح لنفسى أبدا بالانسياق وراء الضغوط التى ربما تفرضها علىّ الظروف والمواقف ، فأنا أريد لهذه الدراسة أن تكون موضوعية فى اتجاهها العام ، وأن تكون نزّاعة للصراحة والحق فى كل أرجائها ، ولا أحب أن يجرفنى فيها تيار الحب والإعزاز لهذا الرجل إلى شىء لا أود له أن يكون ، فإذا ظهر منى ميل إلى تقدير شخصه ، أو شعره ، أو فنه فى تلك الدراسة فسيكون هذا التقدير نابعاً من خلال نظر فنى ، أستهدى فيه بالنظرة الموضوعية فى المقام الأول ، وأحرص على رعاية الأسس الفنية السليمة المبعدة عن التحريف والزيف ، وعن الغرض والهوى أيضاً .

وأرجو ألا يظنن ظان بعد ذلك أن تعصبى فى هذه الدراسة سواء كان للشاعر أو عليه — إن كان — ناجم عن فكرات نظرية سبق أن كونتها

فى الذهن عنه ،أو عن انفعال فردى توجهنى فيه طبيعة الصلة التى ربطت بينى وبينه منذ سنوات ، ولكن مصـــدره إنمـــا يرجع إلى النظر الموضوعى العادل ، ثم إنه قد يرجع بعد ذلك إلى النظر الفردى ، أو الأحادى ، ولكن شرط ذلك عندى هـــو أن تستريح النفس إليه ، ويأنس له القلب ، وأن يكون مبرأ من العصبية والهوى ، اللذين هما من آفات النظر النزيه •

وعلى القارىء أن يطمئن إلى أن صراحة الحق أحب إلى نفسى من كل نفاق ، وأولى فى رأيى بالاتباع ، فالحق أحق أن يتّبع •

والله الموفق ، والهادى إلى ســـواء السبيل ،

د • محمد سعد قشران

الشـــاعر

رأينا كيف استقر بى الرأى على أن الترجمة للشاعر ، أو الأديب الذى ندرســه ينبغى ألا نطغى على التناول الجاد لآثاره وفنه ، أو بعبارة أخرى كيف يجب أن نوجــه النظر فى مثل هــذا اللون من الدراسات إلى الفن فى المقام الأول .

والذى أعتقده أيضا أن هــذا اللون ليس من الصواب فيه أن يأتى غفلاً من الإشارة إلى الشخصية التى نخضع فنها للدراســة . وبالقدر الذى يعطى تصــوراً سريعاً لها ، دون الدخــول فى متاهات التاريخ ، والسياســة والاجتماع ، وغير ذلك .

ومعنى هــذا أنه لا حاجة بنا فى الترجمة التى نعنيها إلى بيـــان منزلة الشــاعر أو الأديب الذى ندرســه فى محيطه الذى برّز فيــه على نحــو مفصل ، بل يكفى أن نشير فقط إلى طرف من تلك المنزلة ، تاركين لنتاجه الشعرى أو النثرى حريــة التعبير عن تلك المنزلة ، أو الإشــارة إليها على نحــو مقنع .

وفيما يتصل بالشاعر حسن كامل الصيرفى فنختار فى معرض التعريف به ما كتبه هــو عن نفســه ، وإن كان موجزاً ، فليست غايتى — كمــا قلت — أن أترجم له على نحــو موسع ، مع علمى بقلة البحوث التى تناولته ، وندرة الكتب التى ترجمت له ، ومع إدراكى أن شعره لم يدرس دراسة مستقلة شاملة من قبل ، ولا غرابة فى تلك ، فالشاعر — كما قال عنه صديقه الدكتور عبد الحميد يونس — « آثر .. أن يبتعد عن الأضواء ، وأن يعتصم دائمــاً بالوقوف بمعزل عن الشهرة » [1] ، ولذلك لم يلق من العناية به وبشعره ما هــو قمين به فى أدبنا العربى الحديث .

---

(١) شهرزاد ، ط دار المعارف ، ١٩٨٠ م ، ص ٩ ، وسأعرض لهذه السمة التى لازمته منذ بواكير شاعريته الأولى على نحو مفصل حين اتحدث عن شخصيته .

وقد عرف الشاعر بنفسه ، وذكر آثاره الشعرية ، وجهوده العلمية والأدبية بصفة عامة فى الرد على الرسالة التى وردت إليه ممهورة بتوقيع الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق ، الدكتور شكرى فيصل ، والتى جـاء فيها :

« السيد الأستاذ حسن كامل الصيرفى الموقر

القاهرة — مصر

تحية طيبة ، وبعد :

فيسرنى أن أكتب إليكم بأن مجمع اللغة العربية بدمشق قد قرر فى جلسة الخميس ، الثانى والعشرين من صفر سنة ١٣٩٢ هـ ، السادس من نيسان سنة ١٩٧٢ م انتخابكم عضوا مراسـلاً فى جمهورية مصر العربيـة •

وأنا إذ أقدم خالص التهنئة على هذه الثقة أريد أن يكون ذلك طريق تعاون وثيق بين العاملين على صيانة العربية ، وتراثها ومستقبلها •

وأتمنى أن تبعثوا إلى بنسختين من رسم حديث ، مع خلاصة عن ترجمـة حياتكم •

وتفضلوا بقبول تحيات الزملاء ، وتحيتى الشخصية » •

❋

وقد جاء رد الصيرفى على تلك الرسالة فى صفحتين منتسختين على الآلة الكاتبة أورد فيهما تعريفاً موجزاً بحياته وآثاره على النحو التالى :

حسن كامل الصيرفى

ولد بمدينة « دمياط » فى ٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٨ م ، تلقى دراسته الابتدائية والثانوية ، ثم حالت ظروف قاهرة دون إتمام مراحل التعليم ، فالتحق بوظيفة بوزارة الزراعة ، ثم انتقل إلى مجلس النواب (مجلس الأمة فيما بعد) (٢) بسكرتارية رئاسته ، وشغل بعد ذلك فيه إدارة الصحافة حتى أحيل على التقاعد فى ١٩٦٨ م .

عاون فى تحرير مجلة « العصور » التى أنشأها الأستاذ إسماعيل مظهر سنة ١٩٢٧ م ، ونشر فيها بواكير شعره ، ثم بدأ ينشر فى مجلة « المقتطف » فى أوائل الثلاثينيات شعره ، وتولى فى هذه المجلة باب الكتب ناقدا ، ومعرفا ، وشارك فى عام ١٩٣١ م فى تحرير الصفحات الأدبية فى جريدتى « الجهاد » و « الضياء » اللتين أصدرهما الأستاذ محمد توفيق دياب ، وصحيفة « الوادى » التى أصدرها الأستاذان : عباس حافظ ، وأحمد خيرى سعيد .

وفى سنة ١٩٣٢ م اشترك مع الدكتور أحمد زكى أبى شادى فى تأسيس جمعية أبولو الشعرية ، وانتخب عضوا فى مجلس إدارتها برئاسة المرحوم أحمد شوقى ، (واختير عضوا فى مجلس الإدارة) (٣) ، وقام بنصيب كبير فى تحرير مجلة أبولو .

واشترك فى سنة ١٩٣٥ م مع الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس فى إصدار مجلة « الراوى الجديدة » التى عبرت عن ثورة الشباب عام ١٩٣٥ م ، ويقول الدكتور عبد الحميد يونس : إنه كان أبرز المسهمين معى

---

(٢) ومجلس الشعب الآن .

(٣) هكذا فى الأصل الذى سلمنيه الشاعر نفسه ، والذى اراه ان هذه الجملة زائدة ، حيث جاء فى الجملة السابقة عليها انه انتخب عضوا فى مجلس ادارتها .

فى إصدارها ، ولا أستطيع أن أنسى أنه هـو الذى وضع وقتذاك (نشيد الثورة) الذى نشر فيها .

فى سنة ١٩٥٦ م انتدبته وزارة الإرشاد القومى (وزارة الثقافة فيما بعد) لإخراج مجلة « المجلة » ، وتولى مع الأستاذ الدكتور محمـد عوض محمد [٤] تحرير هذه المجلة ، ثم مع الأستاذ الدكتور حسين فوزى ، فالدكتور على الراعى ، فالأستاذ يحيى حقى ، حتى ترك هذه المجلة ليدير تحرير مجلة « الكتاب العربى » التى أصدرتها مؤسسة الثقافة بوزارة الثقافة ، ثم تركها ليتفرغ لخدمـة التراث العربى فى مشروع عهد به إليه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربيـة ، كل ذلك خلال عملـه بمجلس الأمـة .

اختير عضـوا بلجنة الشعر فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ثم لجنة الدراسات الأدبية فى هذا المجلس أيضا ، كما اختير عضوا فى لجنة التفرغ بالهيئة العامـة للفنون بوزارة الثقافة ، وانتخبه مجمع اللغة العربيـة بدمشق عضـواً ممثلاً لجمهورية مصر العربيـة عام ١٩٧٢ م ، واختير أيضـا عضواً بلجنة الأدب بالمجلس القومى .

آثاره الشعرية :

١ — قطرات الندى .
٢ — الألحان الضائعة .
٣ — الشروق .
٤ — صدى ونور ودموع .
٥ — نوافذ الضياء .
٦ — النبـع .
٧ — صلواتى أنا .
٨ — ورقات متفرقات .
٩ — زاد المسـافر .
١٠ — زهرات لا تذبل .
١١ — شهرزاد .
١٢ — عـودة الوحى .
١٣ — نغمات ونسمات .
١٤ — همسـة العطر للنسم .

---

(٤) الدكتور محمد عوض محمد كان مديراً لجامعة الاسكندرية ، ثم وزيرا للمعارف بعد ذلك .

آثاره النقدية :

١ — حقق ديوان البحترى تحقيقا علميا بمنهج خاص التزمه (٥) ، وقد نشرته دار المعارف ، فأصدرت منه خمسة مجلدات ، وأعيد طبعه فى هـذه الدار ثلاث مرات .

٢ — لطائف المعارف ، للثعالبى ، نشرته دار إحياء الكتب العربية .

٣ — طيف الخيال ، للشريف المرتضى ، نشرته وزارة الثقافـة ، بالاشتراك مع دار إحياء الكتب العربيـة .

٤ — ديوان عمر بن قميئة .

٥ — دايوان المتلمس .

٦ — ديوان المثقب العبدى ، وقد نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية هذه الدواوين الثلاثة ، بين المشروع الذى ارتبط معه على نشره متضمنا طائفة من دواوين الشعراء الجاهليين المقلين ، وقد نهج فى تحقيق هذه الدواوين المنهج الذى اختطه لنفسـه ، وأعد للنشر فى هذا المشروع :

١— ديوان عمرو بن كلثوم .
٢ — ديوان الحارث بن حلزة .
٣ — ديوان المرقّشَيْن .
٤ — ديوان لقيط بن يعمر الإيادى .

وحقق كذلك وأعد للنشر :

١ — حماسـة البحترى .
٢ — عبث الوليد ، للمعرى .
٣ — كتاب الاختبارين للأخفش .

❋

(٥) يراجع فى ذلك مقدمة التحقيق بالمجلد الأول من الديوان المحقق .

وقد أرفق الشاعر مع هذه الخلاصة التى كتبها عن حياته رسالة جاء فيها :

« السيد الأستاذ الجليل الدكتور شكرى فيصل
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق

الموقر

تحية طيبة

« وبعد »

فقد تلقيت كتابكم الكريم رقم ٣٩٩ / ص ، المؤرخ فى ١٩٧٢/٥/٢٣م الذى تفضلتم فأعلنتم إلىّ فيه تشريف المجمع الموقر لشخصى الضعيف بانتخابى عضوا مراسلا له فى جمهورية مصر العربية ، وهو فضل غمرنى به السادة العلماء الأجلاء ، أعضاء هذا المجمع الذين يكنّ لهم كل عربى لمس جهودهم الكبيرة ، وعرف فضل أياديهم الكريمة على لغتنا الخالدة ، وتراثها الثمين كل إجلال وتقدير •

إن هذا الفضل ليزيد فى جلاله صدور قراره من مجمع شرف به هذا القرن ، وسعد عقده الثانى بولادته ، ثم سلك فى عِقده الثمين على مر السنين حبات من الأسماء الكريمة لأعلام ما كنت أطمح أن يتشرف اسمى بالالحاق بأسمائهم ، أو أطمح فى أن يكرم رسمى بالإضافة إلى سجل يضم رسومهم ، ولكن فضلكم الكريم قد شاء لى هذا الشرف ، وهذا التكريم ، فاعذروا قلمى إذا عجز عن التعبير عن شكرى الخالص ، متمنيا أن أكون عند حسن ظنكم بى ، وأن أكون فى أداء ما أوجب علىّ هذا الفضل من حقوق أهلا لثقتكم الغالية التى ظفرت بها •

وإنى إذ أطوى رسالتى على نسختين من رسمى ، وخلاصة عن

حياتى لأرجـو أن تتفضلوا ، ويتفضل السـادة الأجلاء أعلام المجمع الموقر بقبول صادق تحياتى .

القاهرة فى ١٩٧٢/٦/٣ م

٨ شارع الشيخ محمود أبو العيون — مصر الجديدة

حسن كامل الصيرفى »

❋

وهذه الرسالة تؤكد إيثار الشاعر الابتعاد عن الأضواء ، والاعتصام دائمـا بالوقوف بمعزل عن الشهرة ، كما ذكر صديقه الدكتور عبد الحميد يونس ، فهو لم يشأ أن يستقبل نبأ اختياره عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربيـة بدمشق بجمهورية مصر العربية بالرنين ، أو بالسير فى المواكب ، أو بالتعالى على الغير ، ولكنه استقبل هذا النبأ فى صمت ، وآثر التوارى عن الناس ، وقنع بالخلوة مع النفس ، والإخلاد إلى تحقيق التراث ، وكتابة الشعر ، وأبرز تواضعه الذى هو تواضع العلماء ، مع جدارته بالفضل ، وأحقيته لهذا التكريم حين ذكر أن اختيار المجمع لشخصـه « الضعيف » — على حـد تعبيره — تشريف له ، وأنه لم يكن يطمح أن أن يتشرف اسمه باللحاق بأسماء أعضاء هـذا المجمع الكريم ، ولم يغنم الدنيا ويتعدها كما قد يفعل الغير ، ممن هم أقل منه علمـا وفضلا ، ولو شـاء ذيوع صيته لكان ، ونتاجه — بحمـد الله — يؤهله أن يتوحد مكانة عالية فى محيط الأدب فى عصرنا الحديث .

ومن المؤسف أننا لا ننتبه إلى القمم الشـوامخ إلا بعـد فوات الأوان ، ولولا أثارة من وعى لانطمرت قمم كثيرة كانت باذخة الذرى تحت خرائب الزمن .

لذا لم أحس بشىء من الدهشـة حين قرأت كلمة الأستاذ إبراهيم الوردانى بجريدة « الجمهورية » فى باب « صواريخ » (٦) التى ذكر فيها

(٦) الجمهورية ، ١٩٨٠/٨/١١ م ، الصفحة السادسة ، العمود الأول .

أن الأغلبية من القراء لا يعرفون شيئا عن هذا الشاعر الرائد ، وأنهم لم يسمعوا باسمه من قبل — هكذا قال — وأنهم لا يعرفون على وجه القطع متى ظهر ؟ وكيف ظهر ؟ وكم عمره ؟ وأين دواوينه ؟

وقد قال هذا الكاتب بعد أن ذكر ما ذكر : « أقول وأنا منكس الرأس خجلا وحيرة ، حسن كامل الصيرفى موجود جدا ، فله من العمر الآن أكثر من سبعين سنة ، وقل ولا تتردد ، فهو أعظم شعراء مصر فى هذا القرن ، أما أين هو ، وأين دواوينه ؟ فاسألوا الرادمون الغلاظ على مواهب مصر ، وشوامخ مصر ، فى كل ما يكتبون أو يدرسون أو يؤرخون » •

وأنا لن أناقش الأستاذ الوردانى فيما ذهب إليه من أن حسن كامل الصيرفى أعظم شعراء مصر فى هذا القرن ، وإن كنت أشكر له حماسته الشديدة فى الكتابة عنه ، غير أن مثل هذا التعميم فى الحكم ، حين نقول عن زيد من الناس إنه أشعر شاعر ، أو أعظم كاتب شىء لا يثبت — على سبيل القطع لا الظن — أمام النظر الموضوعى ، فأن يكون الأستاذ الصيرفى شاعراً بل وشاعرا كبيرا من شعراء مصر فى هذا القرن فشىء لا نملك نحن ، ولا يملك غيرنا إلا التسليم به ، وأما أن يكون أشعر شعراء مصر فى هذا القرن فشىء قد لا يسلم به الكثيرون ، بل ربما لا يسلم به الشاعر نفسه ، لأن تواضعه الجم يأبى عليه ذلك ، وإلا فأين شوقى ؟ وأين حافظ ؟ وأين البارودى من قبلهما ؟ وأين وأين ، ممن لا تخفى منزلتهم على مثله ؟ !

إننى لا أميل مطلقا إلى مثل تلك التعميمات التى نطلقها على الشعراء والأدباء فى أى عصر من عصور الأدب ، ذلك لأننا كثيرا ما نجد سهام التجريح والطعن تنال من شاعر جهير بين شعراء العربية فى بعض قصائده حال حياته ، وبعد مماته ، كالمتنبى مثلاً ، وقد نجد الناس مجمعين على جودة قصيدة أو أكثر لشاعر أخمله الزمن ، ونسيه التاريخ ، ونماذج ذلك أكثر من أن يحصرها عدّ ، أو ينالها حصر •

ثم إن الحكم على الشعراء والأدباء لن يكون فى نهاية المطاف إلا حكما نسبيا ، يُهتم فيه بالكل دون الجزء ، أو بمعنى أن المفاضلـــة بين الشعراء تكون غالبا من الأمـــور الغائمـــة التى لا يمكن القطع فيها برأى ، فما يكون جيدا مستساغا من الشعر بالنسبة إلى بعض الناظرين فيه يكون رديئا مسترذلا بالنسبة إلى آخرين ، ومن أجل ذلك قلما نجـــد الناس مجمعين على رأى فى شاعر أى شاعر ، أو فى أديب أى أديب ، وذلك أمر لا نحتاج فى إثباته إلى دليل ، أو مزيد تفصيل .

ولست أشكك بهذا مطلقا فى شاعرية الصيرفى ، ولا أحط من قدره ، ولا أتحيف من براعته فى صنع القصيد ، ولكننى أريد أن أؤجل الحـــكم عليه الآن ، حتى نعرض لشعره ، ونبرز تجديده فيه ، وأصالته فى التعبير ، وقدرته على الأداء ، وغير ذلك ، ليكون حكمنا مشفوعاً بالدليل ، ومرتبطا بالنظر الموضوعى ، الذى يعنى بالنص عناية تحكمها الأصول والقواعـــد التى ارتضاها النقاد ، وتحاكم إليها الناس كلما عز الوصول إلى الصواب .

❋

شخصيته

قدم لى الشاعر ذات يوم قصيدته « أنا والناى والبنفسج » مشفوعة بابتسامة هادئة ، وقورة ، صادقة ، تفصح عن طبعه السمح ، وحسه النبيل ، وقال وهو يقدمها لى : إنها مفتاح شخصيتى ، وأشار إلى أنه إنسان يكره الدعاية والشهرة ، ويؤثر الهدوء والعزلة •

والقصيدة لا تزال مخطوطة بديوانه « همسة العطر للنسم » [1] الذى أهدى إلىّ نسخة مصورة منه •

وقال فى تقديم تلك القصيدة : « إلى أخوىّ العزيزين اللذين أحببتهما منذ طفولتى ، وفى صباى وشبابى ، وسيظل حبى لهما حتى آخر العمر :

أولهما : أستاذى « الناى » الذى تركت موسيقاه الحنون أثرها فى شعرى ، حين كنت أستمع إليه يتغنى به هواته على ضفاف النيل فى موطنى « دمياط » •

وثانيهما : « البنفسج » هذه الزهرة الصغيرة التى يفوح عطرها قويا ، وهى ضعيفة متوارية فى تواضع بين الورود المتباهية بألوانها المختلفة الزاهية » •

ولا شك أن هذه القصيدة تعدّ مدخلاً صحيحاً للتعرف على بعض من ملامحه الشخصية ، فقد عشق العطر والنغم منذ أن تفتحت أكمام شاعريته بالشعر ، وطبع شعره بطابع ذلك العشق الذى لا يكاد يخطئه من لمس فيه هذه الخاصة من كثب •

لقد رأى « الناى » صنواً لروحه ، بل وأستاذه الذى جاء شعره

---

(١) همسة العطر للنسم ، الديوان المخطوط ص ٧٨ — ٨٥ •

هو ترجيعاً لصداه الذى أحبه ، حين كان يتردد فى أوقات الأصيل والسحر على ضفتى النيل فى موطنه « دمياط » ، ولقد استمر حبه له زمناً ، أحبه بعد أن أحس فيه برقة مفرطة فى النغم ، وبحنان شجى داعب أوتار قلبه ، ففاضت نفسه بأعذب الأهازيج ، وأطيب الألحان .

وكذلك رأى زهرة البنفسج بعضاً من نفســه ، أو قل : إنه رأى فيها نفسه ، حين تعبق الأجواء بشــذى عرفها المستطاب ، فى الوقت الــذى تأبى فيه إلا التوارى خلف الأوراق ، بل وخلف الورود المتباهية بألوانها المختلفة الزاهية — كما قال — فى خجل واستحياء .

استمع إليه يقول فى تلك القصيدة :

أنــا والنــاى والبنفسج أنــ	داد تشــابهوا فى الصفاتِ !
هــدأة الليل حاننا . والندامى	راقصات الكواكب الســاهراتِ
شــــعراء ثلاثــة جمعتهــم	ألفــة فى نواعم الأمســياتِ
نتناجى فى معبد الحسن ومَسْــ	ـرى الأنغــام والنفحــــاتِ

❋

لقد حول الليل بخياله الخصب ، فصيره فى هدأته « حانة » ترقص فيها النجوم الزاهرات الساهرات ، أما (الندامى) فالناى ، والبنفسج ، وهذه النجوم . إنهم ثلاثة من الشعراء ، جمعتهم فى الليالى النواعم ألفة قوية ، يتناجون فى معبد الحسن ومسرى النفحات والأنغام .

وقد بين بعد هذه المقدمة كيف داوى بشعره كل جرح فى كل قلب ، فى الوقت الذى يعجز فيه عن شفاء روحه ، وتضميد جراحه الداميات .

وكان قد كفن بالصمت بعض أسرار حياته ، فإذا الأشعار تبعث هذه الأسرار ، وتبث فيها الحياة ، لتحيا غضة ، ناضرة ، قوية من جــديد ، وفى هــذا يقول :

أنا بالحرف أرسـم ماجـا شٌ بصدرى من صادق الخطرات
وأعـير الألفاظ أجنحـة الطيْـ رِ فتعلـو خفاقـة الرفرفات
همسـات الوحى المجنح تنسا بُ بسمعى فى أعـذب الأغنيات
كل جـرح فى كل قلب أداويـ ـهِ بشـعرى المرقرق الكلمات
حين لا أستطيع يومـا شـفاء لجراحى العميقـة الداميـات
وأدارى آلامهـا عن رفـاقى بالطـلاء الرقيق من بسمات
غير ما يكشف اليراع من السـرِّ اختلاسـا من مثل هـذه الصفحات
بعض ما كان من حياتى دفينـا بعثته الأشعار غض الحيـاةِ
غاب عنهـا بعض التفاصيل لكن لم تغب عن خواطرى الحافظاتِ

❋

وأما « الناى » فأخ شاعر ، حزين ، مضنى ، رقيق الألحان ، عذب النبرات ، وهو الحنون الذى يمثل — عنده — ألم الأم فى أساها ، وإنه ليجاريه بشعره ، أو بنغماته المهدهدة منذ عهد الشباب ، ولازال مشدوداً إليـه فى شيخوخته وهرمه ، فأثره فيه باق مخلد على الدهر .

وقد انعقدت آصرة الحب بين الشاعر و « الناى » حين كان يجلس إلى النهر المقدس ، يناجى طيوره الحوّم ، ويرنو ببصره إلى النخيل الباسقات فى جلال ومهابة ، ترفع الأذان لخالق الكائنات ، وعلى البعد ينبعث صوت « الناى » ، يغنى الضفتين به هـواة" يحدون الزوارق السابحات فى النهر .

وهذه الصور المتتابعة تشير إلى التواصل المحبوب بين الشـاعر والطبيعة ، بل بينه وأبهى ما فى الطبيعة من ملامح الحسن ومرائى الجمال :

وأخى الشـاعر الحزين المعنّى الرقيق الألحـان والنبـراتِ
الحنون الـذى يمثل عندى ألـم الأم فى الأسى والشـكاةِ
وهو « الناى » عشت بعد أجاريـ ـه بشـعرى المهدهـد النغمات

كنت فى مطلع الصبابـــة أحكيــ ـــه (٢) ومازلت دائم الصبوات
حينمـــا كنت أستريح إلى النيـــ ـــل أناجى طيـــوره الحائمـــات
والنخيل الـــذى يكبِّر فى الجـــو أذانـــاً لخـــالق الكائنـــات !
وصدى الناى مذ وعيت الأنغـــا مَ غريراً (٣) فى أبعـــد الذكريات
لتغنى به الضفافَ هـــواة هم حداة الزوارق السابحات
واصطفاق المجداف فى صفحة الـ ـــماء يناغى أمواجه الراقصات

❋

أما الأبيات الأخـــيرة من القصيدة فيرسم فيها صـــورة واضحـــة للبنفسج ، تلك الزهرة الصغيرة التى يفوح عطرها قويا ، وهى ضعيفة متوارية فى تواضع بين الزهور المتباهية بألوانها الزاهية ، ولا شـــك أن هـــذه الزهرة الأثيرة لدى الشـــاعر ، والتى منحها الكثير من حبه لم تكن لتحظى منه بتلك المنزلة لو لم يكن قد رأى فيها نفســـه على كل حال :

وأخى الآخر : « البنفسج» سهرا ن بأجفان حييـــة حالمـــات
ذائع العطر وهـــو زهـــر صغير حـــين يزهـــو الكبير بالزخرفات
الرفيق ، الخجـــول ، لا يتباهى بالتزاويق ،والحلىّ، والشيات (٤)
والدقيق الذى تفتش عنـــه الـــ ـــعينُ جهداً ، كمختفى المـــاسات
قانت فى وداعـــة وســـكون كتقى فى روعـــة الصـــلوات
شاعر ، ساحر الشذى ، عبقرىّ يتجلـّـــى كأجمـــل الأمنيـــات
سبحـــات مـــن عطره تتوالى كلمـــا مرَّ خاطرُ النسمات
هادىء فى احتضانه الروض يرنو لحبيبـــه مـــن رعايا النبـــات
نظـــرات كأنها حـــلم العـــذ راء يغزو حياءهـــا فى السبات

❋

---

(٢) أحكيه : أشبهه .
(٣) الغرير : الشاب لا تجربة له .
(٤) الشيات : العلامات ، واحدتها : شية ، وهى اختلاف فى لون الشىء عن اصله ، من الفعل : وشى ، والحلى : جمع الحلية وهى الزينة .

شــعراء ثلاثـــة بعثتهـم   لفنون ثلاثـــة خالـــدات :
ربةُ الشعر ، والغناء ، وربُّ الـ   ـعطرِ للدنى (٥) المؤمناتِ
حلموا بالسلام يحتضن الناس ،   فتخلــو النفوس من نزواتِ
وتمنــوا للكون أمناً وهامــوا   بجنــان على الثرى ناعمــاتِ

وقد خبر فيه الدكتور أحمد زكى أبو شادى (— ١٩٥٥ م) تلك الروح المتسامية المحبوبة ، فكتب دراسة عنه صدّر بها ديوان « الألحان الضائعة » ، ومما قاله فيها :

« ... وإن الإعزاز الذى نوجهه إلى شعره نستمده .. مــن شخصيته الشاعرة المتسامية المحبوبة ، تلك الشخصية الحساسة الناضجة التى تأسرنا بتعاليها فى صمتها البليغ ، حينما تدوى الدنيا حولنا بسفاسف الأمــور ...

كما أن احتفاظه بشخصيته علامة أخرى من علاماتها القوية ، وحسبك أن تفترض حرماننا نماذج هــذا الشعر الحديث فتشعر بالفراغ الذى تشغله شخصية الصيرفى الشــاعر ، وإن أبى عليها إلا التواضع أو التوارى ، كأنما ذلك من أصول فنه العريق ... » .

وقد عرض أبو شادى لنفسية الصيرفى فى شىء من التحليل حين قال بعد ذلك : « وفى « الصــورة السريعة » التى يعرضها الصيرفى فى ترجمة له (٦) ، نلمح الروح الثائرة فى صميمها ، الوديعة فى مظهرها ، وقد أبت إلا أن تكون سيدة نفسها ، ومبعث فنها ، لا مَرائِىَ لغيرهــا ، فكل ناقد يحترم مداركه لا يسعه إلا احترام هــذه الشخصية الفنيــة العزيزة » (٧) .

---

(٥) الدنى : جمع الدنيا ، راجع الدراسة التى كتبتها عن هذه القصيدة بـ « الثقافة » يناير ١٩٨١ م ص ٨٦ — ٩١ .

(٦) انظر : الألحان الضائعة ص ٩ — ١١ .

(٧) الألحان الضائعة ص ٥ ، وشــعراء العرب المعاصرون وقــد كتب أبو شادى ذلك ولمــا يكن شاعرنا قد أكمل العقد الثالث من عمره .

وكان الصيرفى قد تحدث عن نفسه فى « إلمـامة » أو « صـورة سريعة » فى مقدمة « الألحان .... » ، قال فيها حاكياً عن مكونات نفسه الشـاعرة :

« .. آمال وآلام هما العنصران اللذان كونا نفسى . طلعت على الحياة باسما طروباً ، وعرفتها يقظة فجر فى شروق ، وكانت فى نفسى أحلام طفل يرنو بعينى شاب ، .. وبين دراستى وأنا يافع أبت الحياة إلا أن تطلعنى منها على النواحى التى لم تستطع باصرتا الطفل الوصول إليها ، فعرفت من ألوانها وظلالها . وحقائقها وأوهامها ، وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، ونظرت إلى الحياة وأنا شاب نظرة شيخ مجرب ، فإذا كفة الألم ترجح ، وكفة الأمل تشيل » .

ترى هل يكون مبعث هـذا الألم الذى أحسه وهو فى مقتبل الشباب أنه لم يكمل حياته المدرسية ؟ هـذا أمر وارد ، نبه إليه الشاعر نفسه ، ولكن الشىء المؤكد أن وراء توقفه عن إتمام الدراسـة سبب قاهر ، لم أشأ أن أستوضحه منه ، واكتفيت بمـا قاله فى تلك الصـورة السريعة ، حين قال : « فى سنة ١٩٢٥ م عرفت نواحى من الحياة بشعة بعـد أن كنت لا أعرف إلا الجميل منها ، وكانت لناحية منها أكبر تأثير فى نفسى ، صدمت بالمـادة تصرف الناس — وإن سمت مراكزهم — عن الإنسانية ، وأوقفتنى الصدمة عن إتمـام حياتى المدرسية ، وخرجت ساخطاً على الناس ، ساخطاً على الحياة ، ولكنه سخط يؤدى إلى الرغبـة فى السمو عن الحياة والناس ، ويوحى بازدرائهما ، فكانت الثورة ، وكان من أول ما تناولته ثورتى شعرى فمزقته ، وصممت على أن أكون جديداً ، وليد نفسى وابتكارها ، لا وليد تقليد ومحاكاة ، وكانت القيثارة قـد بدأت أوتارها تحرك من جديد على حياة جديدة بروح وفكر جديدين » (٨) .

وإذا كان سخطه على الحياة والأحياء الذى أدى به إلى الرغبـة

---

(٨) الألحان الضائعة ص ١٠

فى السمو عنهما ، وأوحى إليه بازدرائهما — كما قال هو نفسه — كان سمة من سمات مرحلة الشباب التى اجتازها من قبل ، فالذى أعتقده أن رغبته فى العزلة ، واحتجابه عن أضـــواء الشهرة ، لا يجوز أن نرجع شيئا منهما فى مرحلته المتأخرة إلى شيء من السخط ، أو إلى شيء من الازدراء ، إنمـــا مرجع ذلك كله إلى تساميه عن سفاسف الأمـــور ، وتعاليه عن خداع الأضواء ، وارتفاعه فوق رنين الشهرة ، وليس ببعيد أن تكون الآمال والآلام ، وهما العنصران اللذان سيطرا على حياته — كما قال — لا تزال آثارهما ممتدة وباقية فى نفسه حتى الآن .

*

وفى يونية ١٩٤٨ م كتب الأستاذ إسماعيل مظهر فى مجلة « المقتطف » وكان رئيس تحريرهـــا آنذاك — دراســـة حـــول ديوان الصـــيرفى « الشروق » ، قال فيها :

« عرفت الصيرفى شاعراً منذ أكثر من عشرين سنة ، وعرفته شاعراً هادىء الطبع ، نير الديباجة ، سهل الأسلوب بيّن المعنى ، جيد المبنى ، قوى الروح فى هدوء ، ثائر الأحاسيس فى صمت بالغ ، فلا ينم عن قوة روحه ، وثورة أحاسيسه إلا المعنى المخبوء من وراء الألفاظ المنظومة ، ذلك النظم المنساب انسياب المـــاء فى الغدران الهادئة ، يتســـلل بين ما يعترضه من عوائق تسللا لا تحســـه ، ولكنه بالغ غرضـــه الأخير ، حيث تنفسح أمامه الرحاب القصية عند مصبه ، فإذا بالغدير الهادىء يتحول فى النهاية بحراً عظيم الاتســـاع ، يفيض بالمعانى الأخـــاذة ، والإيحاءات التى تهز النفس من أعماقها هزا ، وتنطبع آثارها فى النفس انطباعا قلما يزول » (٩) .

*

(٩) مجلة « المقتطف » . يونية ١٩٤٨ م . م ١١٣ ، ص ٨٢ .

وقال عنه صديقه مصطفى عبد اللطيف السحرتى (— ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) — رحمه الله — فى دراسة له بعنوان : « جولة فى (الألحان) و (الشروق) للأستاذ حسن كامل الصيرفى » :

« حسن كامل الصيرفى شاعر .. جمعت شخصيته بين كنزين : طبيعة صافية ، ونفس طيبة ، نلمح مظاهرها فى لمحات وجهه المعروق الحساس ، وعينيه اللامعتين الداكنتين ، ولقد هيأت له طبيعة بلده « دمياط » إلهامات منوعة انسابت إليه من البحر الجياش ، والنهر الهادىء المقدس ، حيث يلتقيان هناك قريبا من بلده ، وفجر الألم فى نفسه ينابيع الشاعرية ، ونقلتها أعصابه المتجاوبة المرهفة ، فأثمرت شعراً جديداً ، فاتن النغم ، لا عهد للبيئة الأدبية المصرية به » (١) .

❋

إن هذه النفس الآلمة التى قنعت بالعزلة على حداثة عهدها بالحياة بعد أن فجعتها صروف الدهر بالآلام لم تبخل على الحياة والناس بشىء من فنها الدافق بالعطاء ، فهى ليست عزلة سلبية قاتلة فيما أرى ، ولكنها عزلة خيرة معطاءة ، وما أشبه الصيرفى — وكما قال الدكتور عبد العزيز عتيق ، أحد شعراء مدرسة أبولو وناقديها المبرّزين — « بموسيقىّ اصطحب قيثارته ، وجلس فى ظل شجرة غيدانة ، على شاطىء جدول متدفق ، ينشد الوحدة والتأمل ، والناس من حوله يضجون ويصخبون ، وكلما اشتد ضجيجهم أمسك بقيثارته ، وراح يرسلها أنغاماً قدسية ، تلين من قساوة القلوب القاسية ، وتمحو بسحرها ما ران على النفوس ، كما تبعث فيها روح السلام ، وتشع عليها نور الابتسام ، ولقد تراه فى بعض الأحايين — رغم هدوئه وانزوائه — ساخطاً برماً ، ولقد يبلغ به اليأس مبلغه فيروح يجأر بالشكوى ، ويصرخ بالألم ، وما لنفسه يفعل ذلك ، ولكنه يفعله من أجل الناس ، ومن أجل ألحانه التى تلاشت بينهم

---

(١) مجلة المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ م . م ١١٤ . ص ١٠٧ .

كما يتلاشى النسيم العطرى فى مهب الرياح ، فهو إذا سخط أو تبرم فلمـا أصاب الناس من البلادة والجمود ، وهـو إذا شكى أو تألم فلمـا يشيع فيهم من الفساد والكنود ، ومن العزوف عما (يبنيه) لهم من الجنان والفراديس ، وليتهم وقفوا عند هذا الحـد ، فلا يهزءون بهاتيك الجنان أو يميلون على أسوارها هادمين مقوضين .. » !

وقال الدكتور عبد العزيز عتيق أيضا بعد أن عرض فكرة قصيدة « الشاعر » للصيرفى (١١) : « ... تلك هى فكرة « الشاعر » أو قصة « الشاعر » من مبدئه إلى منتهاه ، وهى قصة تمثل لنا نفس الشـاعر وآماله ورسالته ، ثم قلقه وحيرته ، فهو لا يطيق الوحدة حتى ولو كانت فى فراديس الجنان ، فإذا ما أفلت منها إلى الآفاق الجديدة المجهولة تلك التى يخيل إليه أن السعادة كل السعادة فيها ، فسرعان ما تعاوده حيرته وقلقه ، حيث يصطدم بدنيا الحقائق ، وسرعان ما يهم بأن يودعها ، ولكن إلى أين ؟ » (١٢) .

استمع إليه يقول فى مقطع من هذه القصيدة « الرمزية » بعنوان « الشـاعر فى الأرض » :

عجبت لسكان هـذا الوجـو ... د ضحايا ، ولكنهم يعبثون
تبددهم سـخريات الحيـا ... ة ، وتجمعهم سخريات المنون
تصـوفهم من جمـاد الصخو ... ر ، وشهوتهم من ضرام الجنون
بنيت لهم من جنان الخيـا ... ل فراديس ترقص فيها الفنون
فراحـوا بجنتهـم يهـزءو ... ن ، ومالوا على سورها يهدمون !
وأنشـدتهم من أغانى السـما ... ء أناشيد تعزف للخـالدين
فضـاع الصـدى فى فضاء الحيا ... ة ، وذاب النشيد وهم يصخبون

---

(١١) راجع : « شاعرية الصيرفى فى الألحان الضائعة » بقلم الدكتور عبد العزيز عتيق بديوان : الألحان الضائعة ص ٩١ — ١٠٤ .
(١٢) راجع مقالى : صور رمزية فى شعر حسن كامل الصيرفى بمجلة « الأديب » عدد مارس وابريل ١٩٨٠ م ص ٢ — ٤ .

وحـــدثتهم عن جنان الخلـــو   دِ ، فكانوا بقصتها ساخرين
وقـــد عفت من أجلهم جنتى   وضحيت مــن أجلهم بالثمين
أعيـــش أشاطرهم بؤســـــهم   وأملأ كأسى عصير الشجون (١٣)

❋

وهذا العزوف الذى بات يتجدد فى نفس الصيرفى فى مراحل حياته المختلفة — هــذا العزوف عن دنيا الناس جعله شاعراً متجدد الصلة بالطبيعة مشدوداً أبداً إلى الظلال والنور ، والأنغام والأصداء ، وقصيدته « أنا والناى والبنفسج » التى عرضناها عليك من قبل تحمل تلك الروح الظامئة إلى مشاهد الطبيعة الجميلة ، ومرائيها العذاب ، ولم يكن هذا الإحســـاس الصـــادق مقصوراً على مطالع شبابه وبواكير شاعريتـــه فحسب ، ولكنه سيطر عليه ، ووجهه فى الكثير من شعره فيما بعد .

يقول الدكتور عبد العزيز عتيق فى دراسته عن « الألحان » إن الصيرفى « يتنقل بك فى دنياه الخاصـــة ، فإذا بك ترى دنيا جديدة لها خواصها ومميزاتها : فأنت تتسمع (إلى) هتفات الأطيار فى الأصائل والأسحار ، وأنت ترى الجداول والأنهار تتدفق فى دعة واطمئنان ، وأنت ترى الصخور المنعطفات على الشواطىء ، وأنت تبصر الحدائق والرياض ، والصحارى والقفار ، والجبال والتلال ، ولكنها لا تلتقى مع مثيلاتها فى دنيا الناس إلا فى الاسم فقط ، ثم تنفرد هى عنده بعد ذلك بالحياة والنبض ، والروعة والسحر ، والجمال والجلال » (١٤) .

وأنا لا أتحدث — بطبيعة الحال هنا — عن صلة الشاعر بالطبيعة بالتفصيل ، فلذلك موضعه من الدراسة ، ولكننى أردت فقط أن أشير إلى أن العزلة التى فرضها على نفســـه جعلته موصول العلاقة بالطبيعة ،

---

(١٣) الألحان ص ٤١ .
(١٤) الألحان الضائعة ص ٩٢ .

دائم التبتل فى محاريبها الشامخات ، على عــادة « الرومانتيكيين » المذهبيين فى الغرب •

ولا شك أن الإنسان حين تصفو نفســه من أكدار الحياة ، وأوزار العيش ، وحين تنعتق روحــه عن هــذا العالم المــادى المحسوس ، كى تحلق فى سماوات من النقاء والطهر ، فإن أثر حياته تلك ، التى ربمــا يكون قد حددها لنفسه عن اقتناع — يمتد إلى سلوكه وتصرفه •

وفيما يتصل بالصيرفى فإن شــعره يترجم عن إحساســه الكبير بالغربة •

وقد جــاء هذا الإحساس نتيجة نزوع روحه الظامئة إلى المجهول والمطلق فى العالم الجديد الذى أراده بعيدا عن دنيا الناس ، ولقــد استحال هذا الإحساس إلى روافد فى نفســه الشاعرة ، تغذى روحــه « المتصوفة » ، كمــا تغذى شعوره ووجــدانه ، وخياله وصوره الشعرية جميعا •

ولست أعنى بالغربة — هنا — الابتعاد عن الوطن ، فالشــاعر لم ينفصل عن وطنه ، ولم يخرج منه إلا ليعود إليه ، بعد إقامــة قصيرة فى البلاد التى زارها ، تلبية لنداء الأدب والعلم ، ولكنى أعنى بالغربة ذلك الإحساس الذى يدفع المرء إلى الانطواء والعزلة ، والعيش بمنأى عن الناس ، ولا شك أن الإحساس بالغربة أصل كبير من أصول الفن •

❋

ولذا لم يكن غريبا أن رأينا هــدوء الصيرفى المشــوب بالتأمل ، وثورته الداخلية المغلفة بالصمت قد امتد أثرهما إلى أشياء كثيرة فى حياته فهو — على سبيل المثال — يحب البحر ويقبل عليه حين يكــون هادئا ، وقوراً ، سمحاً ، معطاء ، فإذا اضطربت موجاته ، وأظلمت جوانبه ، وعلا هديره ، واستقبلت صخــور الشاطىء المستكينة ثورته المدمدمة فى

صمت حزين يائس كرهه وخافه ، ونأى عنه ، وقد لازمــه ذلك الشعور منذ حياته الأدبيــة الباكرة ، ولا زال يلازمه حتى الآن .

ففى ديوانه « قطرات الندى » (١٥) قصيدة بعنوان : « الأمــواج والشاطىء » يقترب فيها من البحر ، ويغور فى أعماقه بنظرات متأملة واعية ، ويروح يفلسف فى صــورة حوارية شيقة علاقة الشاطىء بالبحر ، وعلاقته بهما أيضاً ، فيقول :

قالت الأمواج للشاطىء : ماذا تبتغى
من سؤالك ؟
قال : إنى أبتغى ما غاب عنى
من مــدارك .
فانثنت عنه بجزر ساخره .

❋

ثم عــادت باندفــاع نحــوه
فى اصطخــابٍ مثــلِ رعــدِ
عاليــاتٍ ، هابطاتٍ ترتمــى
فــوق صخــرٍ منــه صــلدِ
وعلى الشــاطىءِ جــاءت ثائره .

❋

قال : إنى رابضٌ منذ وجدتِ
ووجــدتُ
جاهلاً سركِ ، إنى لستُ أدرى
مــا احتويتِ
فانثنت عنه بجزر ساخره .

❋

---

(١٥) من العجيب ان هذا الديوان لم ير النور حتى الآن ، ولم يخرج على الناس مطبوعا مع أنه من أول الدواوين التى كتبها .

ثم عادت ثانياً وهى تقول° :

أنت سرى ، أنت سرى سوف يحويك ضميرى
لا تسلنى : أنت سرى ولأسرارى إنى مضمره°

*

واستمر البحرُ يمتد امتداداً واستمر الموج يشتد اشتداداً
ثم ردَّ الأفقُ عينى حاسره° (١٦) .

وقد حدثنى الشاعر ذات يوم عن صلته بالبحر ، وبين لى أنها صلة قديمة ، ترجع إلى عهده الأول به منذ أن كان يعيش فى موطنه « دمياط » وحين كان يقضى الصيف بالإسكندرية ، وقد تبين لى فيما بعد أنه لا يزال مشدوداً إلى ذكرياته مع البحر ، وأنه لا يجد شفاء لروحه الظامئة إلى أيامه معه ، وما فيها من ذكريات حلوة إلا بالسفر إلى الإسكندرية ، وقد حدثنى أيضا أنه معتاد على النزول فى أحد فنادقها القريبة من الشاطىء ، وأن المسئولين عن الخدمة فى هذا الفندق يحجزون له دائماً غرفة تطل على البحر ، وأنه قد ألف — من أجل ذلك ، مسامرة البحر كل هاتيك السنين ، وقد تمخض عن تلك الألفة المحبوبة قصيدة أخرى أكثر دلالة على علاقته الموصولة به ، فى إقباله عليه وإدباره عنه ، فى تآلفه معه وخصامه له ، وهى تفصح عن نفس الروح التى سيطرت على روحه وقلبه ، وأحاسيسه ومشاعره ، ووجهت سلوكه فى الحياة ، ويعود تاريخ هذه القصيدة إلى السادس عشر من شهر يولية عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف ، يقول فيها :

أنا والبحر شاعران° بالأناشيد عامران°
غير أنى نظمتها من سلام ومن حنان°
وهو يلقى نشيدهُ فى ضجيجٍ ، وفى اضطغان°
أنا أكسو عرائسى بالجديدات من معان°

---

(١٦) نشرت هذه القصيدة بمجلة « العصور » ، مايو ١٩٢٥ م ، م ٢ ، ص ٩٢٥ .

وهـو يزهـو بعريهـا ... فى ابتذالٍ وفى امتهانْ
أنا أختـار مـن بـرا ... حسنَها اللهُ فى افتتانْ
وهـو فى اللهـو جـا ... معُ القبيحاتِ بالحسانْ
أنـا والبحـر شـاعرانْ ... فى الدياجـيرِ سـاهرانْ
بالأناشـيدِ عـازفانْ ... بالأسـاطيرِ زاخـرانْ
نحن فى الضـوءِ عابثانْ ... نحن فى الفجرِ كاهنانْ
نحن إلفـانِ صاحبـانْ ... نحن ضـدانِ حائرانْ
أنـا للأفـقِ حـاضنٌ ... وهـو للشط فى احتضـانْ
ليس لى من شـواطىءٍ ... ثم للبحر شاطئانْ (١٧)

*

قلت منذ قليل عن الصيرفى : إنه لا يحب البحر حين تضطرب موجاته ، وتظلم جوانبه ، ويعلو هديره ، وإنه ليعرض عنه حين تستقبل صخـور الشاطىء المستكينة ثورته المدمدمة فى صمت حزين يائس •

هكذا كانت نظرتى لتلك الصخور الشاطئية حين تصفعها أمـواج البحر فى ثورة مدمدمة عاتية •

ولكن انظر إلى الصيرفى وقد نظر إلى الصخرة القابعة بالقرب من شاطىء « اسبورتنج » بالإسكندرية ، كم كانت نظرته مخالفة لنظرتى ، وكم كان فى نظرته من آيات الشاعرية المبدعة المحلقة ، التى تأبى القرار على الأرض ، وتود لو واصلت تحليقها أبدا ، لقد نظر الصيرفى إلى هذه الصخرة فرآها هازئة ساخرة من المـوج الذى يتحطم عليها كل لحظة ، فيقـول :

مـا أقسـاها تـلكَ الصخـرهْ
لم تترقـرق منهـا عبـرهْ
موج البحر على قدميها كم يتحطمْ !

---

(١٧) ديوان : النبع ص ٥٦ ، ٥٧ ، ومجلة الثقافة ، فبراير ١٩٧٧ م ص ١٣ •

هذا الثائر ألقى الراية ثم استسلمْ
تلك الرايةُ ، هذا الزبدُ ، الأمل المعدمْ
مـا أقسـاها تـلك الصخـره
لـم تتصاعـد منهـا زفـره
ما أقساها ! .. لا ترحمه ، لا تترحمْ !

❋

موج البحر دعاه الشوقُ لها فتقدمْ
فيه الأمل الباسم ، فيه هواه المضرمْ
بلغ الغاية ، ثم تهاوى ، ثم تحطمْ
مـا أقسـاها تـلك الصخـره
لـم تتفجـر منهـا حسـره
ما أعجبها ! لا تُنهضـه ، لا تتألمْ

❋

ما أعجبه هذا الموج ! أما يتعلمْ ؟
كم من عات حنّ إليها ، ثم تهـدمْ !
ثم تناثر زبدا أبيض ، ظلا يوهمْ !
وهـى تـراه بأقسـى نظـره
لـم تتحـرك فيهـا شـعره
ما أعجبها ! لم تتألم ، لم تتندمْ !

❋

مـا أقسـاها تـلك الصخـره
لـم تتنـاثر منهـا ذره (١٨)

❋

(١٨) ديوان : النبع ص ٥٨ — ٦٠ .

وهكذا كان الصيرفى فى نظرته إلى البحر وأمواجه ، وإلى الشاطىء وصخوره ، وهى نظرة محكومة بما ركب فى طبعه من هدوء يشوبه التأمل ، ومن ثورة يغلفها الصمت ، ومن إخلاد إلى الراحة بين أحضان الطبيعة الأم .

ولن يكون البحر آخر مظاهر الطبيعة التى وقف إزاءها شاعرنا الصيرفى ، وعالجها فى بعض أشعاره من خلال نظرته النافذة للحياة والأحياء ، تلك النظرة التى تشى بما لشخصيته المتسامية المحبوبة من ملامح ، لا يمكن أن يخطئها الناظر فى شعره ، إذا ما طالع هذا الشعر بعقل واع ، وفكر مستنير .

ولن يكون ما أشرت إليه — هنا — فيما يتصل بعلاقة الصيرفى بالبحر آخر العهد بالحديث عن البحر فى تلك الدراسة ، ولكننى ربما اضطررت إلى الحديث عنه مرة أخرى فيما يستقبل من الصفحات .

❋

الإحساس بالتواضع أو التوارى إذن ، والإحساس بالألم ، وكذلك الهدوء المشوب بالصمت ، والسخط على الحياة والناس ، الذى أدى به إلى الرغبة فى السمو عنهما ، وأوحى إليه بازدرائهما فى مرحلة شبابه ، كل تلك السمات إنما هى مداخل متعددة للتعرف على تلك الشخصية ، ولكأنى بالشاعر قد أراد أن يكشف لنا فى شعره عن إحساسه بالألم ، وعما كان لهذا الإحساس من أثر فى هذا الشعر ، حين كتب هذه الأبيات التى افتتح بها ديوانه « صلواتى أنا » التى يقول فيها :

كل ما تسمعونْ من أغانى السلامْ
كهديلِ الحمامْ
يا رفاقى هُنَا :
صلواتى أَنَا

صغتها في سكونْ
من فؤادٍ حنونْ نالَ منه الألمْ
طهرته العيونْ بدموعِ الندمْ
صلواتي أَنَا
صغتها مؤمِنَا
بمعاني السلامْ
بالرضا والوئامْ (١٩)

❋

وحين كتب قصيدته « الزنبق » التي أنشأها وهو على فراش المرض ، وفيها يقول :

أنا هنا مع الأسى مع الضنى والوهنِ
بين صباح مؤذنٍ وآخرٍ لم يؤذنِ
أعدّ أيامي على صعيد هذا الزمنِ
وأستعيد ما مضى من مفرحٍ ومحزنِ
تمر بي رواية مليئة بالمحنِ
تخللتها بسماتٌ كطيوف الوسنِ
فأمسح الآلام عن قلبي ، وأنسى شجنى
وأغفر الذنب لمن أساء أو جرحني
ما عاش قلبي لحظةً في مائج من ضغنِ
ولا انطوى صدري على أثارةٍ من إحنِ
فإن مضيتُ فاذكروا قلبَ النقي المؤمنِ
الزنبق الطاهر يمضي ناصعاً لم يشنِ
عبيره على الدنى وروحه في القُننِ (٢٠)

❋

(١٩) صلواتي أنا ص ٥ ، ٦ .
(٢٠) صلواتي أنا ص ١٣ ، ١٤ .

وهكذا يتأكد لنا أن عزلـــة الصيرفى لم تكن عزلة سلبية حاقدة . وإنما كانت عزلة خيرة معطاءة ، لقد مسح الآلام عن قلبه ، ونسى أشجانه ، وغفر الذنب لمن جرحـــه ، أو أساء إليه ، وعاش يحمل بين جنبيه قلبـــا نقيا طاهرا ، كيف لا ؟ وهو الذى لم ينطو صدره يوماً « على أثارة من إحن » ، ولأنه كان يؤمن أن الشاعر الحق لا يكون إلا كما وصف :

الشاعر الحق ساقٍ ظامىءٌ وفمٌ	إن يطلعِ الكون جـَهماً فهو متبسمُ
يعيش فى غمرة الدنيـــا بهيكلـــه	وروحه تتسامى نحوها القممُ (٢١)

هذه هى شخصية الصيرفى المتسامية المحبوبة ، رسمتها بلا مبالغة ، أو تهويل ، وبلا تزييف أو تحريف ، وهى صورة صادقة ، لم يمازجها شىء من الخيال ، ولم يخالطها شىء يجافى الواقع الذى عاشـــه هـــذا الرائد الكبير •

وهو حين تحدث عن نفسه بالكلمة المنظومة ، وغير المنظومة لم يزد عما قاله رفاقه ، وأصدقاؤه فيه ، وقد حرصت على تقديم رسم واضح لشخصيته من خلال شعره ، ومن خلال ما كتبه هو عن نفســـه ، أو حدثنى به مشافهة من قبل، ثم من خلال ما كتبه الآخرون عنه •

وأشهد أن علاقتى به ، على حداثتها — قد أكدت فى نفسى إحساساً صادقا ، وشعورا أكيداً بأن ما كتبه عنه رفاقه ، وأصدقاؤه ، لو قـــدر لى أن أكتب عنه بعد أن خبرته دون الاطلاع على ما سطرته يراعاتهم فيه لتقاربت رؤانا جميعا ، وذلك يؤكد مقدار التواصل الذى كان بين الشـــاعر وهؤلاء الكاتبين الذين أخلصوا للكلمة ، وجعلوا إخلاصهم هذا لوجـــه الحق ، والتاريخ ، والأدب •

*

---

(٢١) دموع وأزهار ص ٢٩٦ ، من قصيدة طيف السلام .

ومن خلال تلك الصورة السريعة التى رسمتها للشاعر نستطيع أن نتبين المدخل الصحيح لفهم شعره ، وتذوقه ، ونقده ، وهـذا بلا شـك عامل هام من عوامل إنجاح تلك الدراسـة ، التى أرجـو لها أن تظفر باهتمام ورعاية المشتغلين بالأدب فى عالمنـا العربى الكبير .

لقد وضعت أمامى نتـاج الصيرفى الشعرى ، ممثلا فى دواوينه المختلفة ، ورحت أتصفحه ، فأحسست بتلك الملامح التى حدثتك عنهـا من قبل تسـود على نحو طاغ فى الكثير من القصـائد والمقطّعات التى اشتملت عليها تلك الدواوين .

ولن أتحدث فيما يلى من الصفحات عن نتاجـه الذى تتجلى فيه شخصيته من الناحيتين : الحيوية والفنية ممثلا فى دواوينه المختلفة ولكنى رأيت أن أختار أولها صـدورا ، وهـو ديوان « الألحـان الضائعة » (١٩٣٤ م) لنتبين فيه تلك الملامح ، وليكون مثالاً يحتذى عند النظر فى باقى الدواوين التى أشرت إلى عناوينها من قبل ، ويقينى أن القارىء الذواقة لن يخطئه شعر الصيرفى من بعد ، حتى لو جاء هذا الشعر غفلاً من النسبة إليه ، فالأسلوب هو الرجل ، كما قيل .

أقول هذا بعد أن وقر فى نفسى احتفاظ الصيرفى بملامحه الشخصية فى كل ما له من نتاج ، يتفق فى ذلك شعره الذى أنشأه فى بواكير شاعريته الأولى ، وشعره الذى أنشأه فى مراحل حياته المختلفة من بعد .

❋

افتتح الشاعر « ألحانه » بمقطوعة عنوانها « الضحية » قال فيها :

عصرت روحى خمرا للورى وهوى ... وما تذوقت منها بعض ما شربوا

ضاعت أمانىّ فى الدنيا ، وأى منى ... تعيش فيها ، وتحيا وهى تلتهبُ ؟!

أنشـدت كل أناشيدى فما بقيت ... ألحانها ، وتولى موتَها الصخبُ

فمرحبـــا بشقائى فى محبتهم ومرحبـــا بعذاب جره الأدب
وليغفر اللـــه للدنيا إساءتها وفى سبيل الورى روحى وما أهب[٢٢]

فشخصية الصيرفى واضحة فى تلك الأبيات ، فهو لا يخفى فيها تشاؤمه وبرمه بالحياة والناس ، كيف لا ؟ ! وقد أماتوا بصخبهم ألحانه ، فما بقى منها إلا الشقاء : ولكنه شقاء يحببه إلى نفسه الآلمـــة أن الأدب قد جره عليه ، فإذا كان هناك بعد ذلك من ذنب أو إساءة فليغتفر هـــذا الذنب ، ولتنس تلك الإساءة ، ولتكن روحه فى سبيل الورى أبداً ، وليكن فى سبيلهم أيضا كل مايهبهم من عطاء .

❋

وقد أكد هذا المعنى الذى أراده ، وحدثنا عنه فى تلك الأبيـــات فى قصيدة أخرى بعنوان « الواحة المنسية » قال فيها :

فى ذمـــة الفن ألحان تضيع وفى
أصـــدائها قطع من قلب فنـــــان

تجرع الألـــم الدامـــى فحولـــــه
إلى ترانيـــم عشـــاق وألحـــــان

يُسقى العذاب ، ويسقى الناس أكؤسهم
صفواً من النور فى ظلماء أشجان

مدامع الأنجم الحـــيرى تشاركـــه
تسلسل الدمع فى أجفان حيران

وظلمـــة الليـــل تستوحى كآبتـــه
همس السكون بإفصاح وتبيـــان

ومطلع الفجر يستوحى ابتســـامته
نور الملائك فى إشراق إنســـان

(٢٢) الألحان الضائعة ص ١٥ .

أنّاته من طعان الـدهر صـادرة
وجرحه من شظايا العالم الجانى

تضمـد الجرح كفاه ، ويستره
بواضـح من ثنايا الثغر فتـان

فيـه معانى ابتسام ، وهى سخرية
بعـالم دائـر فى كف شـيطان

. . . .
. . . .

فى ذمـة الفن ما رددته أمـدا
فضـاع لحنى سدى فى جو نكران

طغى عليه ضجيج القوم فانطمست
أصـداؤه ، وفؤادى طى ألحانى (٢٣)

« ومن كانت هذه نفسيته فلن تضيع ألحانه بلغت ما بلغت بيئته من العزوف والجحود ، وشقيت ما شقيت نفسه من هواها وهمومها »(٢٤) .

الحق أن الصيرفى كان يؤمل فى المزيد من عناية الناس بشعره ، ولكن أضـواء الشهرة راحت تغمر الكثيرين من أنداده ، بل وتغمر من هم دونه شعرا وشاعرية ، فسمع الناس بهم ، واهتموا بأشعارهم ، أما هـو فقد بقى فى موضعه ، بعيدا عن الأضواء ، قانعا بالعيش فى عالمه ، هـذا الذى حدده فى ضوء إحسـاس واضح بالتسامى عن سفاسف الأمـور ، وبالتعالى عن ضجيج الشهرة ورنين الدعاية ، ولكنه ربمـا أحس بأن المجتمع قد ظلمه أو غبنه ، حين أدرك أخيراً أن شعره لم ينل

---

(٢٣) الألحان الضائعة ص ١٥ ، ١٦ .
(٢٤) احمد زكى أبو شادى فى تصدير « الألحان .. » ص ٤ .

حظا كبيراً من البحث والدرس ، وحين رأى أن الأضواء لم تسلط عليه ، سـواء عن قصد أو غير قصـد ، وله العذر فى هـذا الإحساس ، صحيح أنه آثر العزلة أو التوارى ، وصحيح أنه عاش يكره الدعاية ، والشهرة ، ولكنه — على الرغم من ذلك — إنسان يرضيه حديث الناس عنه بمـا ينصف شعره وشاعريته ، ويسره تسلط الأضـواء على كل ماله مـن نتاج ، طالمـا كان أدبه ، وفنه ، وعلمـه أهلا للتكريم والرعاية وجديرا بالثناء والفضل ، أما أن يهمله القوم ، وأما أن يوجهوا رعايتهم ، ويصرفوا عنايتهم إلى من هم دونه فى الشعر والشاعرية فذلك ما يحز فى نفسـه على كل حال •

ألم أقل لك من قبل : إن كثيرا من القمم الشوامخ لا يتنبه الناس إليها إلا بعـد فوات الأوان ، وأنه لولا أثارة من وعى لانطمرت هاتيك القمم التى كانت باذخة تحت خرائب الزمن ؟ !

وأقول عن ثقة بعد أن خبرت الصيرفى ، وقرأت شعره فى صـبر وأناة ، وعرفت — إلى حـد كبير — جملته وتفاريقه ، وبعد أن بصرت بدروبه ومسالكه أقول : إن هـذا الشاعر الرائد لا يمكن أن ينسـاه الناس ، أو يتنكروا له ، بل إنهم — على الأرجح — لا يملكـون ذلك ولا يستطيعونه ، وكيف يتم لهم ذلك وشعره ملء السمع ، والبصر ، والفؤاد ، والعقل ، والروح جميعا ؟ وحتى فى البيئة الأدبية الحديثـة فى المـدة الأخيرة ، تلك البيئة التى راح يمرح فيها نفر غير قليل مـن الشباب ، ممن بهرتهم الأضـواء ، وخدعتهم الشهرة ، وضللهم سراب الرنين عن التجويد فى الفن الشعرى ، والأدهى من هـذا أنهم ظنوا أن صولجان الشعر قد صـار فى حوزتهم ، بعد أن كان فى الجيل المـاضى جيل شوقى وحافظ وأضرابهما غاية لا تدرك ، ومطمحاً لا يرام ، ومـن أجل هذا الظن الذى ملأ أقطار نفوسهم راحوا يتنكرون للقمم الشوامخ من شيوخ الشعراء الذين لا زالت أنفاسهم تعطر الأنسام فى كل مكان ، وذلك من أجل أن يظهروا هم ، ومن أجل أن يكونوا وحدهم فى الميدان •

ومن المؤسف حقا أن يكون هؤلاء الشباب قد تعجلوا الظهور ، وبهرتهم الأضواء فراحوا يلهثون وراء الشهرة ، فى عالم يتقن فن الشهرة والدعاية ، دون أن يستوثقوا من مقدرتهم فى صنع القصيد ، ودون أن يتأكدوا من سيطرتهم على شوارد الألفاظ والأساليب ، ونوادّ القوافى والأوزان •

إن التاريخ وحده قادر على أن يقول كلمته فى الصيرفى وأضرابه من شيوخ الشعراء ، ممن لم ينالوا من الدعاية والشهرة حظا يتكافأ ومالهم من عطاء ، وهو قادر أيضا على أن يقول كلمته فى شعراء الشباب ، من أولئك الذين تعجلوا الظهور ، واستماتوا فى سبيل فرض حضورهم الشعرى على الناس فى هذا العصر ، حتى لو كان ذلك على حساب الطبقة الممتازة من الشعراء الكّبار •

وليهدأ الصيرفى نفسا ، وليهدأ كذلك شيوخ الشعراء ، وليثق هؤلاء جميعا أن المعدن الحر لا ينال من نفاسته طمره فى التراب ، وليدرك شاعرنا الصيرفى أن أهازيجه ، وأشعاره ، و « ألحانه » لا يمكن أن تضيع •

❋

ونستأنف رحلتنا فى ديوان « الألحان ••• » لنقف على بعض قصائده التى تشير إلى تلك الملامح المميزة لشخصية الصيرفى ، فوق ما أشرت إليه من قصائد استطعنا أن نتبين من خلالها بعضا من تلك الملامح •

ومن تلك القصائد التى ينبغى أن تقرأ بعناية فى هذا الصدد قصيدته : « حياتى » التى يقول فيها :

إذا الفجر حرر منى الجفـو ... نَ ، وأيقظ فىّ القوى الخائره
وهب نسيم الصباح العليـ ... ـلِ يوزع أنفاسه العاطره
ورنت على راقصات الغصو ... نِ سواجع كالأنفس الشاعره

ولاح على قسمات الوجـــو د تبسُّمُ جناته الزاهــرهْ
صحــوت أناجى خيالا جميـــلاً وفى ناظرى رؤى ساحرهْ
أحــاول أن أستميل الوجـــو دَ إلىّ ، وآمل أن آسرهْ
فآخــذ قيثارتى فى هـــدو ءٍ أوقع ألحــانى العــابرهْ
فتخرج لى من كهــوف الحيا ةِ نفوس ، كآلامها كاشرهْ
تســلّق آكامهــا فى مـــلا لٍ ، وتهبط قيعانهــا الغــائرهْ
وترنو إلى صفحات الســما ءِ رنوّ الأسير رأى آسرهْ
يغول الشــواح ووحش الطوى بقايا هياكلهـــا الضــــامرهْ
تزعــزعُ إيمانهـــا بالحيــــا ةِ خــوالج فى ذاتها كافرهْ
فتمضى إلى وجهة لا تحـــد (م) وتجـــذبها فــكرة ماكــــرهْ
وكم قادها فى شعاب الضـــلا لِ سراب" يغــرر بالبــاصرهْ !
تئن أنين المريض الضعيـــــف ، وتصرخ كالجنـــة الثائرهْ
فيمضى الصدى فى الفضاء الجحو دِ ، ويخفت فى أذنه الواقرهْ
فألقى بقيثارتى فى صمـــو تٍ أمام خواطرى الساخرهْ
وأمشى مع الهائمين الحيـــا رى إلى عالم لا نرى آخره (٢٥)

*

ومن تلك القصائد التى تتجلى فيها أيضـــا تلك الملامح : « أغانى الربيع » ، و « الحى الدفين » ، و « اللحن الضائع » ، و « القلب المحطم » ، و « الشكوى الصامتة » ، و « جرح الألم » ، و « الصدى الخافت » (٢٦) ، ولن أكون مبعدا عن الصواب حين أقول : إن عناوين تلك القصائد تحمل فى ذاتها الكثير من تلك الملامح التى عرضت لها من قبل .

---

(٢٥) الالحان ص ١٦ ، ١٧ ، راجع بقية القصيدة بصفحة ١٧ ايضا .
(٢٦) راجعها بالألحان من ص ١٨ — ٢٤ .

يقول فى « اللحن الضائع » :

يا أغانى الربيع ما أنا إلا مقطع مـن قصيدة ضاع لحنـه
لم تلد لى الأيام من يتولى بعث لحنى ، وكيف ينزل شانه

إن مثل هذا الشعر يؤكد أن سيرة حياة أى شاعر هى شعره ، وما خلا ذلك مجرد هوامش ، فالشاعر لا يكون شاعرا ما لم يره القـارىء بأجمعه ، بكل أحاسيسه ، وكل أفكاره ، وكل أعماله ، كأنما يضعه القارىء فوق راحـة يده (٣٧) •

ومن رأى الدكتور شوقى ضيف أننا حين نتحدث عن « حياة شاعر » فإننا لا نعنى تصـوير نفسه ، وقدرته الذهنية ، ومشـاعره وأفكاره فحسب ، وإنمـا نحاول أن نرسم شخصية الشـاعر الأدبية بآرائهـا وأفكارها هى ، بحيث نجتهد فى نقل المحيط الذى نمت فيه ، والتربة التى مهدت لهذا النمـو ، حتىتصبح الصورة لصاحبها معبرة عنه (٣٨) •

❋

إن الإنسان الذى يكره الدعاية والشهرة ، ويؤثر الانزواء والعزلة لا شك أنه يكره النفاق ، ويمقت الرياء ، ولقد يقف الرياء والنفاق دون إحقاق حق ، أو إبطال باطل ، ولقد يقفان أيضـا دون تحقيق صـورة مثالية للنقد الأدبى ، ولهذا كان الصيرفى يمقت هـذا اللون من السلوك ، الذى يحكم كثيرا من تصرفات المجتمع ، وبخاصـة فى هـذا العصر ، استمع إليه يقول فى قصيدته « القلب المحطم » :

يا أغانى الربيع إن جـاء شاكٍ من رياء الـورى هنـا يتظلمْ
هل يلقىّ عزاءه ، ويُسـلى أم تزيد الآلام فيـه وتعظمْ ؟

---

(٣٧) انظر : الرؤيا الابداعية فى شعر الهمشرى ، للدكتور عبد العزيز شرف ص ١٤ سلسلة : اقرأ .

(٣٨) فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف ص ٦٨ ، ط دار المعارف .

ما أظن الحـــزين يطربه الشـــدْ وْ ونار الأحزان فيـــه تضرمْ
جاءك اليوم هاتف الأمس يشكو نفســـا حائرا ، وقلبـــا محطمْ
صامتا — كالدموع — أصدق تعبيـــراً ومغزى منـــه إذا ما تكلمْ
يا أغانى الربيع جاءك يطـــوى صحف الأمس هاهنا ، ويســـلمْ
هاك قيثارة الحيـــاة عليهـــا أثر الدمـــع ، والأسى ، والتألمْ
جنة الأمس من رباه تلاشت وتراءت عن جانبيـــه جهنمْ
حطمته المنى ، وهل عاش قلب فى طلاب المنى يهيم منعمْ ؟
عاد يُلقى هنا هواه ، ويفنى فى أســـاه بقلبـــه المتحطمْ
فإذا حـــط جسمـــه فتردى فادفنيـــه فى حبـــه المتهـــدمْ
واندبيـــه فطالمـــا قـــد تغنى بجمال الربيع ، ياكم ترنمْ (٢٩)

❋

ولك أن تقرأ قصيدته « الشكوى الصامتة » التى تحدث فيها عن نفســـه ، وبيـّن أنه :

كلما أطرب الأنـــام استعادو هُ مرارا ما فات من لوعتيه
ولكن هل رثى الناس لـــه ، وهل شاركوه لوعته أو أساه :
وهل الناس يدركون مليـــا أن قلبا يذوب بين يديه ؟ !
إن تجف الدمـــوع فى أعين النـــاس ، فهيهات أن تجف لديه (٣٠)؟!

ليتهم يرثون له ، وليتهم يشاركونه لوعته وأساه !!

وقد أكد الصيرفى فى قصيدته « جراح الألم » أن الآلام قد هذبته وأن جراحها — كذلك — أخلـــد فى النفس وأبقى من ذريات الصفاء ، استمع إليه يقول مفلسفاً الألم فى بعض أبياتها :

ما أظن الإناء يعـــذب إن مرّ بغـــير الإفراغ والإمـــلاءِ

---

(٢٩) الألحان ص ٢١
(٣٠) الألحان ص ٢٢ .

وكذلك النفوس يقهرها الشيبُ لتحظى بساعــة مــن عزاءِ
إن جرح الآلام أخلد فى النفس وأبقى من ذكريات الصفاءِ [٣١]

ويعود الشاعر فيؤكد أن الأخلد من ذلك والأبقى أن يحــول المرء مسمعيه نحــو قلبه ، ففيه أصــداء الروح ، وجمال الحياة ، استمع إليه يقول فى قصيدته الموسومة بــ « الصدى الخافت » :

يا أغانى الربيــع حــولت سمعى	نحو قلبى ، ولوعتى ، وجروحى
قد سئمت الألحان [٣٢] ينشدها النا	سُ بجهلٍ مضاعف مفضــوح
وتطلبت من فؤادى شـــعراً	غير شـــعر الورى بعيد الطموح
لا أبالــى أكان يسمعنى النو	مُ [٣٣] ، أم كنت منشدا فى صروح [٣٤]

وهذه الروح التى سيطرت عليه ، ووجهت تفكيره فى هذه الأبيــات هى نفسها التى سيطرت عليه وهو يقدم ألحانه للناس ، فقد جــاء فى « إهــداء الديوان » قوله :

« إلى الحائرين فى نشدان الطمأنينة ، إلى التائهين بأخيلتهم وأمانيهم فى وادى الحياة العميق ، إلى المعلقين أبصارهم بين عالمى النور والظلمة ، إلى العازفين ألحانهم بين الصخور الصماء ، والضائعة أصواتهم فى صخب الأمواج أقدم ألحانى الضائعة » •

وقد جاءت هذه الأبيات نفسها ترجمة لمــا سبق أن حدثنا عنه فى « الالمــامة » أو « الصورة السريعة » التى سبقت شعره فى هذا الديوان ، حيث قال : « كما أن لهذه الثورة يدا فى التجاريب النظمية التى حاولتها •••

---

(٣١) الألحان ص ٢٣ .
(٣٢) فى الأصل : الأهازيج ، ولكنى وجدت الشـــاعر صوبها بقلمه ، واستبدلها بالألحان .
(٣٣) فى الأصل ايضا : الناس ، ولكن الشاعر صوبها بقلمه واستبدلها بالنوام .
(٣٤) الألحـــان ص ٢٤ .

وإن كان ذلك يحرك سخط الكثيرين على ، إذ لا أبالى بمرارة ذلك السخط ، ما دامت نفسى فى كثير من الأحايين لا ترضى عما أعمله ، وكفى بالشاعر أن يكون على نفسه رقيبا » (٣٥) .

وإذا كان قد لجأ إلى الطبيعة ، وألقى بنفسه بين أحضانها بعد أن قلاه الناس وجفوه ، فإن الطبيعة أيضا قد قلته وجفته وهذا أمر عجيب .

لقد أحس بأنه قد فصل عنها ، وانفرد ، وقد استحال هذا الإحساس فى نفسه إلى لون غائم من الحزن ، ففقد بذلك الحنان — كما قال — بين الطبيعة والزمان .

يالله ! وهلا أحست الطبيعة بما كان يحس به هذا الشاعر ؟ وهلا أست له مثلما أسى لها ؟ أم أنها عافت مصاحبته وأنكرته ؟ :

فهل الطبيعة لا تحس بما نحس ومثلما نأسى لها
أم أنها عافت مصاحبة الأناسى فى الحياة ؟ وما لها

قد أنكرتنى بعد ما
تركتنى (٣٦) أرتشف اللمى

تركتنى أرتشف اللمى حتى سكرت من الرضاب
هل كان ذاك حقيقة أم كان أخيلة السراب

فأنا الحزين من البداءة للأزل
حتى الطبيعة ينطوى فيها الأمل

وإذا كان هذا هو شأن الطبيعة معه ، وهى الأم التى اصطفاها لنفسه بعد أن عزفت نفسه عن الناس ، وألقى بنفسه بين أحضانها فلتتملك

---

(٣٥) الألحان ص ١٠ ، ١١ .

(٣٦) تركتنى (بدون الياء) موافقة للوزن العروضى ، مخالفة لقواعد النحو ، وبالياء على العكس من ذلك ، ففيها خطأ نحوى أو عروضى فى كلتا الحالتين .

الكآبة من قلبه ما شاء لها أن تتملك ، طالما أن الطبيعة لم تشفق به ، ولم تحن عليه ، ولم ترحم أساه :

فتملكى ما شئت أيتها الكآبة من فـؤادى
مادام حتى الأم تمعن فى التجـافى ، والبعاد

فالطفل قـد فقـد الحنـان
بين الطبيعـة والزمـان [٣٧]

وهى نظرة « رومانسية » خالصة ، فالرومانسيون المذهبيون ينظرون إلى الطبيعة نظرة ملؤهـا الاحترام والحب ، والتقـدير والعطف فهى ملاذهم الذى يأوون إليه حين يشتد بهم هجير الحياة ، وهى الأم التى يشعرون بالطمأنينـة بين أحضانها ، وينظر الرومانسيون عمـوما إلى الشاعر على أنه طفل يهذبه الألم ، ومن رأيهم — كذلك — أنه لا شىء يسمو بالنفس قدر ما يسمو الألم ، وربما أشرت إلى تلك الأبيات بتفصيل أدق حين أتحدث عن النزعة الرومانسية فى شعر الصيرفى ، فيما يستقبل من صفحات تلك الدراسـة .

❋

ومن قصائد هـذا الديوان التى تحمل ملامح الشخصية المتميزة ، كما تحـدثت عنها من قبل ، وكمـا يمكن إدراكها فى الشاعر نفسه : « دعينى » [٣٨] ، و « اللغز » [٣٩] ، و « التائه » [٤٠] ، و «الشاعر»[٤١]، و « البسمات الساخرة » [٤٢] ، و « انفردت » [٤٣] ، و « كآبتى » [٤٤]، و « الشجرة العارية » [٤٥] وسواها .

---

(٣٧) الألحـان ص ٢٥ — ٢٧
(٣٨) الألحـان ص ٢٨ .
(٣٩) الألحـان ص ٣٠ .
(٤٠) الألحـان ص ٣٢ .
(٤١) الألحـان ص ٣٣ — ٤٢
(٤٢) الألحـان ص ٤٤ .
(٤٣) الألحـان ص ٥١ .
(٤٤) الألحـان ص ٥٢ .
(٤٥) الألحـان ص ٥٣ .

ولربما عاودت الشاعر الأمانى ، حتى إذا داعبه شعاع الأمل أخذ يطمئن نفسه ، ويهدىء روعه ، نرى ذلك فى مثل قصيدته « استرح يا قلب » التى يقول فيها :

استرح يا قلب واهدأ ربما عادت الأيام تستوحى الضمير
فنراها بعد غدر قد صفت مثلما يصفو مع الليل الغدير
ونراها فى ابتسام بعد ما عبست حتى تراءت كالقبور
ونراها تدفع اليأس إلى حفرة ليس له منها نشور
ونراها ، ونراها .. ليت ما نتمنى تنجلى عنه الستور

فاسترح يا قلب واهدأ ربما
أوت الآن لنا هذى السما

❋

وهذه الدعوة التى وجهها إلى قلبه ليستريح مما يعانى منه ترتبط — فى رأيى — بمعتقده الدينى ، الذى هو شديد الصلة به ، والذى يجعله واثقا أبدا بأن ما قدر للإنسان أزلا لابد آتيه ، وأن المرء لا يملك إزاء خفايا الغيب ، وتصاريف القدر إلا الإذعان وإلا التسليم ، استمع إليه يقول فى نفس القصيدة :

لم يزل سر حياتى كامنا فى خفايا الغيب حتى يعلما
والذى قدره الله لنا مستكنا بين أطباق السما

فاسترح يا قلب واهدأ ربما
أوت الآن لنا هذى السما (٤٦)

---

(٤٦) الألحان ص ٤٩ ، وأوت ، معناه : رقت وأشفقت .

كما أن الخير لا يعرف إلا إذا عرف ضده وهو الشر ، فالحياة ليست خيرا مستديما ، وليست شرا مقيما ، ولكنها مزيج من الخـير والشر ، وبقاؤها مستمد من الصراع الأبدى بينهما على كل حال :

أترى يصلح مـن عالمنـا أن يبيد الشر منـه ، أم يضر ؟
لا أرى إلا بقاء الشر كى يعرف العالم ما يعنى بـ «خير»[٤٧]

(٤٧) الألحان ص ٧٢ .

دواوينه ومحاولاته الشعرية الأولى

كتب الأستاذ الصيرفى فى الإلمـامة أو الصورة السريعة التى قدم بها « الألحان الضائعة » المطبوع فى عام ١٩٣٤ م يقول :

« فى الفترة من ٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ م — يوم خروجى إلى الحياة — إلى عام ١٩٢٢ م كانت تختلج فى صـدرى أوتار قيثارة خفية تلهـو بها نسمات عذبة رقيقة فى غير ما غاية فتخرج من الأوتار أنغاما محدودة سرعان ما تتلاشى فى الأفق الذى وسع آلاف الأنغام المحدودة وغـير المحـدودة .

كنت أترنم بكلمات أحاول أن أربطها فى أسماط موسيقية ، وإن كانت لا ترتبط معانيها ، ولا أفهم غاية منها ولها ، ومن هذا العبث كانت المحاولات الأولى فى كتابة الشعر ، فإذا كانت سنة ، ١٩٢٣ م ، وكانت النسمات العازفة قد تمكنت من أوتار القيثارة فحركتها فى نظام ، وإلى غاية انبعثت أنغام ألفت منها ديوانا كبيرا » (١) .

وبهذا يكون الشاعر قد بدأ محاولاته الأولى فى كتابة الشعر فى سن مبكرة جـدا ، إذ كان فى الرابعة عشرة من عمره ، ومن كانت هذه سنه لا ننتظر منه شعراً حقيقيا فى الغالب ، وإنمـا هى محاولات ، أو خطوات أولى فى طريق الفن ، يحاول المرء أن يصل من خلالها إلى اكتمال النضج ، وتمام الشاعرية .

وقد حدثنا الشاعر عن تلك المحاولات أو الخطوات الأولى من خلال رؤية واقعية صادقة حين قال « كنت أترنم بكلمات أحاول أن أربطها فى أسماط موسيقية ، وإن كانت لا ترتبط معانيها ، ولا أفهم غاية منها ولها » .

---

(١) الألحـــان الضائعة ص ٩ .

وقد تجاوز هذا « العبث » — كما سماه من قبل — خلال مدة قصيرة بعد أن تمكنت النسمات العازفة من أوتار قيثارته الشعرية فحركتها فى نظام ، وألف من ذلك « ديوانا كبيراً » — كما قال .

ويأتى عام خمسة وعشرين وتسعمائة وألف ، ويتعرض الشاعر لهزة نفسية عنيفة ، تصرفه عن حياته المدرسية ، ويخرج ساخطاً على الحياة والناس ، ويفضى به سخطه إلى الرغبة فى السمو عنهما ، ويوحى بازدرائهما وهنا كانت ثورته ، وكان أول ما تناولته تلك الثورة شـــعره ، فمزقته وصمم على أن يكون جديداً وليد نفسه وابتكارها ، لا وليد تقليد ومحاكاة وهنـــا تحركت القيثارة — من جـــديد على حياة جـــديدة بروح وفكر جديدين (٢) .

❋

وفى عام ١٩٢٧ م بدأ ينشر أشعاره فى مجلة « العصور » ، وكان أول ما نشره مقطوعتين ، الأولى عنوانها « مدى الجهل » والثانيـــة : « نور التجديد » ، وقد ضمهما وغيرهما أول دواوينه الشعرية : « قطرات النـــدى » .

ثم والى النشر ، وقويت عزيمته ، وزادت همته — كما قال — لمـــا وجـــد أشعاره تتناقلها مجلات مختلفة فى ربوع الشـــام ، والعراق ، والأمريكتين ، ولمـــا يكن قد تجـــاوز التاسعة عشرة من عمره بعد .

ويحدثنا الصيرفى عن ثورته التى لم تهدأ نحو شعره ، وكيف أصبح ما كان يكتبه بالأمس لا يروق معظمه ذوقه الفنى ، فيقول :

« على أن ثورتى لم تهدأ ، ولن تهدأ نحـــو شعرى ، فإن ما كتبته

(٢) انظر : الألحـــان ص ١٠ .

بالأمس أصبح معظمه لا يروق ذوقى الفنى ، وما أكتبه اليوم سيصبح فى الغد أمام ذوقى فى حاجة إلى التبديل والتغيير » (٣) .

وفى عام ١٩٣٤ م صدر أول دواوينه المطبوعة وهو ديوان « الألحان الضائعة » ، ومن بعده « الشروق » فى عام ١٩٤٨ م ، ثم « صدى ونور ودموع فىعام ١٩٦٠ م ، وهكـذا توالت دواوينـه ، ولكن على أوقات متباعدة نسبياً .

*

وقد كنت أظن أن ديوانه « الألحان » يشتمل على أشعاره منذ أن كان يشدو بالشعر لأول مرة ، أو ما بقى له من أشعار لم تصل إليها ثورته التى حدثنا عنها ، أو قيلت بعد تلك الثورة حتى عام ١٩٣٤ م ، وهـو العام الذى شهد « الألحان الضائعة » أول ديوان يخرج مطبوعاً عـلى الناس ، ولكن الشـاعر أبى إلا أن يزودنى بقائمـة دواوينه الشعرية مرتبة حسب تاريخ ظهورها إلى النور مطبوعة ، وغير مطبوعة .

وأشهد أننى وجدت منه حرصاً أكيداً على وضع هذه الدواوين مرتبة وفق تاريخ تأليفها ، ابتداء بسنة ١٩٢٧ م وانتهاء بعام ١٩٨١ م ، ولا شك أن حرصـه هـذا إنما كان ينبع من إدراك حقيقى لطبيعة هذا الترتيب الذى أراده ، لأنه يكشف عن التدرج والنمو نحو النضج الشعرى ، والاستواء الفنى ، وهما من الأمور الهامة التى حرص الشاعر عليها فى سبيل الوصول بشعره إلى مرتبة الفن الصحيح ، وإلا فإن فى الفضاء البعيد — كما قال « لمتسعاً لألحان ، وأصداء ، وأنفاس ، وأرواح هـو مستقرها ، وهـو المصب الأخير » (٤) .

وقد كان الشاعر حريصاً على أن يعرض شعره على من يثق بذوقه

---

(٣) نفس المصدر ص ١٠ أيضا .
(٤) الألحـان ص ١١ .

من أصدقائه المقربين ، حتى يستوثق من شاعريته فيما يعرضه عليهم من أشعار ، وليدرك أنه وصل إلى غايته من الفن ، أو صادف منه المحز ، فهو شاعر يعنى بتجويد شعره ، ويحرص على تنقيته دائماً من شوائب السرعة ، أو الارتجال ، استمع إليه يقول : « ولقد يحدث أن أنظم قصيدة أطلع عليها صديقاً ، ثم أعـود بعد حين فأمحوها من الوجـود ، أو أغير قافيتها ، أو أبدل نظامها ، بالرغم من إعجاب الصديق ، ولو كنت أثق بذوقه » (٥) •

ولقد أكد الشاعر حرصـه على ترتيب دواوينه حسب تاريخ تأليفها حين أرسل إلى رسالة أثناء إقامتى بالملكة العربية السعودية مؤرخـة فى الرابع عشر من أبريل عام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف يقول فيها :

« وبعد •• فلعلك عاتب علىّ أشد عتاب ، ولك حق ، فالعتاب دليل ساطع على قيمـة المحبة والإعزاز ، وأرجـو ألا تكـون ساخطاً ، وإن كنت أوقن أن قلبك الكبير المخلص الوفى لا يعرف السخط ، فقد تأخرت فى الرد على رسالتك الكريمـة التى بعثت بها إلى من مقرك الجـديد فى السعودية ، ولو علمت السبب لعذرتنى كل العذر ، وتمنيت لى — وأنت فى هذه الأراضى المقدسـة — بالدعـاء الخالص إلى الله أن يتم على الشفاء ••• لقد كان لرسالتك الرقيقة أثر كبير فى نفسيتى الجريحـة ، واهتمامك بى الخالص لوجه الله والأدب أشكرك عليه كل الشكر من أعماق قلبى ، داعياً إلى الله أن يبارك لى فيك ، وألا يحرمنى من هذه الرعاية الصادقة ، وأن يمـد فى عمرك لأراك ، ولأسعد بما تنويه من دراسة عنى ، ولا يسعنى إلا أن أشكرك شكر العاجز عما قدمت لى ، وما تقدمه من دراسات مبتكرة •• ولقد كنت أطالع من جديد فى كتابك (فى النص الأدبى

---

(٥) الألحـان ص ١٠ •

الحديث) (٦) فوجدت بعض ملاحظات أحببت أن أذكرها لك حتى تكون أمامك عند الشروع فى الدراسة التى تعتزمها بمشيئة الله :

فى ص ١٣٤ عند ذكرك دواوينى وترتيبها سقط اسم ديوان : « ورقات متفرقات » ، وديوان « زهرات لا تذبل » ثم « زاد المسافر » ، وهى تالية لديوان « النبع » فى التأليف ، ثم يرجى أن تذكر الدواوين الثلاثة التى تضمها مجموعة « صدى ونور ودموع » المطبوع سنة ١٩٦٠م، وهى « رجع الصدى » و « حول النور » ثم « دموع وأزهار » •

ولذلك حملت إليه فى أول لقاء تم بيننا فى الصيف التالى رغبتى الأكيدة فى إعداد ثبت بهذه الدواوين مرتبة حسب تاريخ تأليفها ، ومضى عام ، حيث عدت إلى السعودية من جديد مع بداية العام الدراسى الجديد ، ثم التقيت به فى صيف عام ثلاث وثمانين وتسعمائة وألف ، فى ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك ، وكان قد أعد لى ما طلبته إليه من قبل ، حيث سلمنى صفحة منتسخة على الآلة الكاتبة مثبت بها أسماء دواوينه مرتبة حسب تاريخ تأليفها ، بصرف النظر عما طبع منها وما لم يطبع ، وذلك نزولا على رغبتى السابقة •

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الدواوين قد ذكرت مرتبة حسب تاريخ تأليفها ، أو نشر قصائدها فى المجلات ، وهى على النحو التالى :

١ — قطرات الندى : ويضم شعره من تاريخ نشره ، بعد تأليف أوائله بسنة ١٩٢٧ إلى ١٩٣٢ ، ولازال هـذا الديوان قيد الطبع بدار المعارف حال إعداد هذه الدراسة ، وعليه أمر الطبع ، ولم ينشر قبل هذا التاريخ (١٩٨٣ م) •

---

(٦) كنت قد كتبت فى هذا الكتاب دراسة عن قصيدته : « أنا والناى والبنفسج » ، وذكرت فى أثنائها دواوينه الشعرية مرتبة حسب ظهورها كما سمعتها منه ، ويبدو أن بعضها سقط سهوا فى أثنـاء طبع الكتاب دون أن أتنبه إليـه .

٢ — الألحان الضائعة : ويشترك مع الأول ، ويضم بعضاً مما كتبه في سـنوات ١٩٣١ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ م ، الطبعة لأولى : مطبعة التعاون بالقاهرة ١٩٣٤ م ، والطبعة الثانية بدار المعارف (لمـا تظهر بعد) .

٣ — الشروق (١٩٣٣ — ١٩٣٦ م) ، الطبعة الأولى : دار المعارف ١٩٤٨ م ، والطبعة الثانية : دار المعارف أيضا (لمـا يظهر بعد) .

٤ — رجع الصدى : ويشمل ما كتبه في ١٩٣٦ — ١٩٥٤ م .

٥ — حول النور : ويشمل ما كتبه في ١٩٤٦ — ١٩٥٨ م .

٦ — دموع وأزهار : ويشمل ما كتبه في ١٩٤٦ — ١٩٥٥ م .

*

وقد صدرت مجموعته الشعرية التي ضمت هذه الدواوين الثلاثة الأخيرة ، تحت عنوان : (صدى ، ونور ، ودمـوع) : الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠ م : الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الثانية : دار المعارف (لمـا يصدر بعد) .

٧ — صلواتي أنا : ويضم شعره من ١٩٦٣ — ١٩٦٧م ، وقـد صدر مطبوعاً عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٢ م .

٨ — شهرزاد : وكتبت عام ١٩٦٧ م ، وصدرت عن دار المعـارف عـام ١٩٨٠ م .

٩ — نوافذ الضياء : ويضم شعره من يناير ١٩٦٨ إلى مايو ١٩٦٨ م وصدرت عن دار المعارف عام ١٩٨٢ م .

١٠ — النبع : ويشمل ما كتبه في يونية ١٩٦٨ إلى ١١ أغسطس ١٩٦٨م وصدرت عن دار المعارف عام ١٩٨٢ م .

١١ — ورقات متفرقات : ويضم شعره من ٥ أغسطس ١٩٦٨ إلى ٢٠ يولية ١٩٦٩ م ، وهو قيد الطبع بدار المعارف ، أما نسخته المخطوطة

بقلم الشاعر نفسه فهى مما تحت يدى الآن من مصادر خطية للشاعر .

١٢ — زاد المسافر : ويضم شعره من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٥ م ، وقد صدر عن دار المعارف عام ١٩٨٠ م .

١٣ — زهرات لا تذبل : ويشمل شعره الذى كتبه فى مستهل عام ١٩٧١ إلى أكتوبر ١٩٧٣ م ، وهو قيد الطبع بدار المعارف ، ولم ينشر قبل هـذا التاريخ (١٩٨٣ م) .

١٤ — نغمات ونسمات : ويضم شعره من عام ١٩٧٤ إلى نوفمبر ١٩٧٥ م ونسخته المخطوطة بقلم الشاعر فى مكتبتى ، وتحت يدى الآن .

١٥ — عودة الوحى : ويضم شعره من ١١ مارس ١٩٧٧ م إلى ٢٥ يناير ١٩٧٩ م ، وصدر عن دار المعارف بمصر عام ١٩٨٠ م .

١٦ — همسة العطر للنسم : ويضم شعره من مارس ١٩٧٩ إلى اكتوبر ١٩٨١ م ، ونسخته الخطية تحت يدى الآن أيضـا ، ولم يظهر مطبوعاً على الناس من قبل .

❋

ومما هـو جدير بالملاحظـة أن دار المعارف بمصر قد أخذت على عاتقها طبع دواوين الشاعر كلها ، ما طبع منها قبل الآن ، وما لم يطبع ، وذلك باستثناء ديوانه الأخير (همسة العطر للنسم) الذى قال عنه فى رسالة كان قد بعث بها إلى فى مقر عملى بالسعودية ، مؤرخة فى الثانى عشر من فبراير سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وألف : « .. أما ديوان « همسة العطر للنسم » فلم أكن قد تعاقدت عليه ، حيث كان كالهلال لم يكتمل وقت أن تعاقدت مع (دار المعارف) ، ولست أدرى هل سيقدر له الظهور ، أم سيطوى مع انطواء العمر .. ! » .

❋

قلت من قبل : إننى بدأت الاتصال بالشاعر فى أعقاب مناقشتى فى

رسالتى للعالمية (الدكتوراه) ، وكان ذلك فى عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف ، ومضت ست سنوات دون أن أخط فى هذه الدراسة حرفاً ، لأننى كنت حريصاً على أن يكون نتاج الشاعر أجمعه تحت يدى ، ولكننى قلت فى نفسى أخيراً ، لابأس ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، وقد أصبح هذا النتاج تحت يدى بعون الله ما عدا ديوانه « قطرات الندى » ، ولقد عجبت — والله — أن يتأخر هذا الديوان عن الصدور حتى الآن رغم أنه أول دواوينه تأليفاً ، وكذا ديوانه « زهرات لا تذبل » وهو مثل سابقه ، لازال قيد الطبع بدار المعارف ، كما سبق أن ذكرت .

*

وسبيلى الآن أن أعرض محتويات دواوينه السابقة عرضا سريعاً ، أكتفى فيه بذكر عناوين قصائد كل ديوان ، ليكون القارىء على بصيرة من الأمر منذ البداءة بنتاج الشاعر إجمالا ، أما الدراسة الموضوعية المتأنية لهذا النتاج الثر فتأتى تالية هذا العرض السريع بمشيئة الله .

الألحان الضائعة :

صدر هذا الديوان — كما قلت من قبل — فى عام أربعة وثلاثين وتسعمائة وألف ، عن مطبعة التعاون بالقاهرة ، وقد أهداه :

« إلى الحائرين فى نشدان الطمأنينة .. إلى التائهين بأخيلتهم وأمانيهم فى وادى الحياة العميق .. إلى المعلقين أبصارهم بين عالمى النور والظلمة .. إلى العازفين ألحانهم بين الصخور الصماء ، والضائعة أصواتهم فى صخب الأمواج .. » (٧) .

وكتب التصدير الدكتور أحمد زكى أبو شادى (٨) ، كما كتب الشاعر

(٧) الألحان ص ٣ .
(٨) نفس الديوان ص ٤ — ٨ .

نفسه إلمامة ، أو صورة سريعة بين يدى شعره فى هذا الديوان [٩] ، وفى الصفحات الأخيرة منه دراسة قيمة كتبها الدكتور عبد العزيز عتيق ، أحد شعراء وناقدى مدرسة أبولو الشعرية ، بعنوان : « شاعرية الصيرفى فى الألحان الضائعة » [١٠] .

وسأبدأ أولا بعرض قصائد الديوان [١١] ثم أتبعه بعرض المقطعات [١٢] فالرباعيات [١٣] ، وكذلك أصنع فى عرض سائر الدواوين .

فقصائده هى : « الواحة المنسية » ، « حياتى » ، « أغانى الربيع » ، « الحب الدفين » ، « اللحن الضائع » ، « القلب المحطم » ، « الشكوى الصامتة » ، « جرح الألم » ، « الصدى الخافت » ، « جفاء الطبيعة » ، « دعينى » ، « الحيارى » ، « اللغز » ، « الشاعر » ، « السحابة المفترة » ، « البسمات الساخرة » ، « موت عزرائيل » ، « ظمآن » ، « استرح يا قلب » ، « انفردت » ، « كآبتى » ، « فى الخريف — الشجرة العارية » ، « عقب السيجارة » ، « حياة الفنان » ، « تحت ضوء القمر » ، « هدأت ليلى هدأت » ، « وحى الشعر » ، « وحى المصباح » ، « البانسيه . زهرة الذكرى » ، « الخير والشر » ، « موت البلبل » ، « دموعى » ، « المنديل » ، « يا ذابل الزهر » ، « الربيع الباهت » ، « ربيع كالخريف » ، « الرغبات المقيدة » ، « الشاعر والزمان » .

---

(٩) نفس الديوان ص ٩ — ١١ .

(١٠) نفس الديوان ص ٩١ — ١٠٤ .

(١١) أعنى بالقصيدة ما بلغ عدد أبياتها سبعة أبيات فصاعدا (وهذا ما جرى عليه كثير من النقاد القدماء) .

(١٢) المقطعة : ما كانت دون السبعة أبيات عدا .

(١٣) الرباعية : بيتان تشترك الشطرتان الأولى والثالثة منهما فى قافية ، والثانية والرابعة فى قافية أخرى (هكذا) :

(١)	(٢)
(. . . . . . . ح	. . . . ق)
(٣)	(٤)
(. . . . . . . ح	. . . . ق)

وأما المقطعات فى هذا الديوان فهى : « الضحيـــة » ، « التائه » ، « أيهما أصلح » ، « الخيال » •

أما الرباعيات فتشغل الصفحات الأخيرة منه : (من ص ٨٣ — ٨٨) وهى : « الشاطئان » ، « الحياة » ، « الحب والنفوس » ، « الرغائب » ، « الحب الشـــامل » ، « الروح والجســـد » ، « وحـــدتى » ، « هيكل الحب » ، « التضحية » •

❋

الشروق :

وقد صدر هـــذا الديوان فى طبعته الأولى عن دار المعارف بمصر عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، أى بعد صدور « الألحـــان •• » بأربعة عشر عاماً ، وجعل إهداءه إلى زوجته ، وفاء لها ، وكفاء ما أوحت إليـــه من شعر •

وقصائد هـــذا الديوان هى : « خلود الشعر » ، « القلب الهائم » ، « النور الجديد » ، « ســـقوط الطيار — مهداة إلى أرواح الشدهاء من نســـور الجو المصرى » ، « النظرة الأولى » ، « إلى المعبد » ، « الحرمان »، « ساعة اللقاء » ، « خمرة الفن » ، « الرحيل » ، « يا جنة الحب » ، « بين اللهب » ، « القبلة » ، « الرضى » ، « عيناك » ، « شفتاك » ، « اجعلينى حلمـــا » ، « زفاف الحزن » ، « الأفق » ، « كوكب الطهر » ، « تنهداتى » ، « القائد المدحـــور » ، « ثورة الجـــدول » ، « المعنى المبهم » ، « الســـاحرة » ، « وحـــدة العمر » ، « أنا » ، « يا قلب » ، « رسالة شـــوقى » فى رثاء أمير الشعراء ، « الشـــاعر والسحاب » ، « الصباح الجـــديد » ، « نشيد الثورة » ، « الشاعر الشهيد » •

وأما مقطعاته الشعرية فهى : « الفتنة » ، « رسالة الأزهـــار » ، « الحـــيرة » •

ورباعيتان : الأولى بعنوان : « الخالدان » والثانية « موت فنان ».
ويقع الديوان فى اثنتين وتسعين صفحة ، غير صفحة الفهرس .

صـــدى ، ونور ، ودمـــوع :

وهى مجموعة شعرية تضم دواوينه : « رجع الصـــدى » ، « حول النور » ، « ودمـــوع وأزهار » ،وقد صـــدرت هذه المجموعة فى طبعتها الأولى عام ستين وتسعمائة وألف ، أى بعد صـــدور ديوانه الســـابق (الشروق) باثنى عشر عاماً .

وقد أهـدى ديوانه الأول فى هذه المجموعة : (رجع الصـدى) : « إلى النفوس الشـــاعرة التى لقيت (ألحانه) فى أعماقها رجع صداها » .

وقصائد هذا الديوان هى : « رجع الصدى » ، « سحر صـــوت » ، « وداع الحمراء » ، « الاسكندرية » ، « إلى وكرك يا قلبى » ، « الحلم الحـــالم » ، « زهرة » ، « دمعة الحسناء » ، « رقدة الشـــاعر » ، « عبادة الأصنام » ، « الجندى المجهول » ، « قلبى » ، « الفجـــر » ، « البلبل » ، « الفكر الهامـــد » ، « كانت لنا أيام » ، « مـــوجتان » ، « لاعبة الورق » ، « ساقان » ، « الموجة الراقصـــة » ، « إسراء » ، « ميلاد أمـــة » ، « ضرغام » ، « فتنة » ، « حطام » ، « ترنيمـــة الســـلام » .

وبه مقطّعة شعرية واحدة بعنوان « رسالة » .

ويقع هذا الديوان فى ست صفحات ومئة صفحة (١٧ — ١٢٣) .

❋

أما ديوانه الثانى : « حـــول النور » فقد أهـــداه « إلى النور الذى تحترق حوله الفراشات » ، ويقع فى مئة صفحة : (١٢٩ — ٢٢٩) .

وقصائده هى : « عندما تحترق الفراشــة » ، « أتمنى » ،« كعبة الحسن » ، « تفاؤل » ، « بوحى أو لا تبوحى » ، « ردى خيالك » ، « فى طريقك » ، « غــيرة » ، « يحيى » ، « شـــعار » ، « الهاربة » ، « الفتنة النائمــة » ، « مثال وتمثال » ، « شرود » ، « الشاعر المرسل » ، « وفـــاء » ، « الجبابرة » ، « موكب البعث » ، « شريعــة الغاب » ، « وحــدة » ، « الضحكة النشـــوى » .

وهذا الديوان يخلو تماماً من المقطعات ، والرباعيات .

❋

ويقع ديوانه الثالث فى هــذه المجموعة وهو « دموع وأزهار » فى خمس وسبعين صفحة (٢٣٧ — ٣١٢) ، وقد قال فى إهدائه :

« على الأرواح الطاهرة التى عبرت عالمنـــا المـــادى أذرف هــذه الدموع ، وعلى قبورها اللائذة بالسكون الشامل أضع هذه الأزهار ، مبقيا لها فى نفسى مالا يجف مع الزمن ، ولا يذبل مع الأيام : ذكرى ، ووفاء لهذه الذكرى » .

وهذه هى قصائد الديوان : « غروب شمس » ، « الضاحك الباكى » ، « رقــدة الملاح » ، « الظل المنحسر » ، « نهاية كفاح » ، « زهرة الخير » ، « شعلة المجــد » ، « طيف السلام » ، « الشعاع الغارب » ، « الشاعر الثائر » ، وكلها من شـــعر الرثاء ، والـــديوان يخلو — أيضــاً — من المقطعات والرباعيات .

❋

صلواتى أنـــا :

وقد صدر هذا الديوان عن دار المعارف فى طبعته الأولى عام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف فى ثمانى عشرة ومئة صفحة ، قال فى إهدائه :

« إلى السلام الذى ينشده العالم ، لأنه من أسماء الخالق ، أقدم هذه الترنيمات صلوات شاعر .. » .

وقصائده هى : « صلواتى أنا » ، « بعد فوات الأوان » ، « صدى الغيب » ، « الزنبق » ، « صحراء » ، « صراع » ، « أهداب » ، « رأس البر » ، « مسرح الذكر » ، « دمياط » ، « صوت الحق » ، « غزة » ، « أبى » ، « عروس السماء » ، « ذكرى تعود مع الربيع » ، « فلفلة » ، « آه من هذا التراب » ، « لغة الضاد » ، « الشاعر الأبى » ، « رسالة إلى جونسون » ، « الحق المقدس » .

*

شهرزاد :

وهى رؤية جديدة لهذه الشخصية الأسطورية الشهيرة ، صاغها الشاعر فى ست رباعيات ومئة رباعية شعرية موزعة بين العناوين التالية : « وكان مساء » ، « وكان صباح » ، « مع الحياة » ، « الليلة الثانية بعد الألف » . وتقع فى خمس وتسعين صفحة ، تشتمل على مقدمة بقلم صديقه الدكتور عبد الحميد يونس ، وقبلها رسالة موجزة إلى الشاعر من الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد ذيلت بدراسة قيمة كتبها الدكتور حسين فوزى ، كانت قد نشرت بجريدة الأهرام فى الخامس والعشرين من أبريل سنة تسع وستين وتسعمائة وألف ، بعنوان « تنويعات على لحن شهريار » .

*

نوافذ الضياء :

ويقع فى خمس وتسعين صفحة ، وصدر عن دار المعارف عام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف — كما سبق أن أشرت — وجعل إهداءه :

« إلى الضوء الذى فتح (له) نوافذه على عالم شاعرى جديد » .

أما قصائد هـذا الديوان فهى : « الشـاعر » ، « زهرة التيوليب » ، « نوافذ الضياء » ، « سـلاسل النضار » ، « لو تعرف المرآة ! » ، « قيثارة الشعر » ، « الضـوء والفراشـة » ، « عتاب » ، « عيناها » ، « ابتهالة » ، « الكأس » ، « نافذة الحسـناء » ، « خطوط الكف » ، « الظمـأ » ، « ثوبها والربيـع » ، « بحيرتا الفـيروز » ، « النظارة السـوداء » ، « الجمال الحزين » ، « وحى خيالى » ، « لولا أحرفى » ، « سفراء النغم » ، « الضحكة الخاطفة » •

ومقطّعة واحدة بعنوان : « لو كنت مثّالاً ! » •

❋

النبـع :

ويقع هذا الديوان فى ثمان وثمانين صفحة ، وصدر عن دار المعارف فى نفس العام الذى صـدر فيه ديوانه السابق « نوافذ الضياء » ، وقـد كتب فى إهدائه يقول : « إلى التى فتحت لى « نوافذ الضياء » (١٤) على نبع جديد من الشعر » •

وقصائد هـذا الديوان هى : « النبع » ، « قلبُها » ، « حكمـة عصفور » ، « أنا من غناك » ، « من غير وداع » ، « البحث » ، « ديوانى ضَيْف » ، « حـيرة » ، « المعنى الشـارد » ، « الحنان » ، « حـلم اليقظة » ، « أنا والبحر » ، « صخرة » ، « املأ يا ساقى ! » ، « أنت كلهن » ، « ذهبُ الشَّعر وفيروز الحـدق » ، « ابتسامة » ، « يا باعث السحر » ، « أيامنا قليلة » ، « ليلاتنا جميلة » ، « النسمة المضطربة » •

❋

---

(١٤) استوحى الشاعر قصيدته التى تحمل هذا العنوان من الجورب الشبكى •

ورقات متفرقات :

وهذا الديوان لا يزال مخطوطا بقلم الشاعر نفسه ، ويقع فى ثنتين وتسعين صفحة ، قال فى إهدائه :

« إلى الحسن الذى يجمع بين قلبى وخفقاته ، وقلمى ولمساته أهدى هذه الورقات المتفرقات باقة تضم أجمل الزهرات » .

وقصـــائد هــذا الديوان هى : « المجدليـّات » ، « الأنانيـّة » ، « عصفورتان » ، « مصباح » ، « سنمضى » ، « التيــار العــابث » ، « الطائر » ، « كلمة » ، « لعلـّه » ، « عاشق الجمال » ، « أنا بأحبائى غنىّ » رد على قصيدة عامر بحيرى « السجين العبقرى » التى بعث بها إلى الشاعر إثر خروجه من أسر الوظيفة ، « يا مسكرى » ، « تاريخ لقاء » ، « ذهب الليل » ، « القدس » ، « أوهام » ، « نحن الفراشات » ، « غصن الســلام » ، « نفضْت يدى » ، « الإنسان على القمر » .

❋

زاد المســافر :

ويقع هــذا الديوان فى تسع وسبعين صفحة ، وصــدر عن دار المعارف فى عام ثمانين وتسعمائة وألف ، وقد قال فى إهدائه :

« إلى الذين سبقونى فى هذه الرحلة ، وإلى الذين سيلحقون بنــا أقدم هــذا الزاد من قلبى وروحى » .

وقصائد هذا الديوان هى : « مسافر بلا حقائب » ، « ذكرى » ، « القياس » ، « حب الحياة » ، « قصائدى الأخيرة » ، « زاد المسافر » ، « أخــوة كالصلاة » ، « أخ كالأذان » ، « محنة العالِم » ، « خليفة حافظ » ، « شــاعر الرثاء » ، « عاشق التراث » .

❋

نغمات ونسمات :

وهذا الديوان لايزال مخطوطا بقلم الشاعر نفسه ، ويقع فى ثلاث وثمانين صفحة ، قال فى إهــدائه :

« أبعث بهذه النغمات ، وهذه النسمات إلى كل من استعذب منها نغمة ... واستطيب منها نسمة » .

أما قصائد الديوان فهى : « نغمات ونسمات » ، « يا وحى شعرى .. أين أنت ؟ » ، « شاعر القيروان » ، « عيون القيروان » ، « عينان من تونس » ، « القصة الخافقة » ، « على قبر أبى القاسم الشــابى » ، « مامات من عاش فكرة » ، « بحترى المغرب » ، « مرسلة الشعر » ، « إسراء شــاعر » ، « دعــاء » ، « شــاعر الرقــة » ، « قلمى » ، « دمشــق » .

*

عــودة الوحى :

وقد صدر هذا الديوان عام ثمانين وتسعمائة وألف عن دار المعارف فى طبعته الأولى ، فى ست صفحات ومئة صفحة ، وقد أهداه إلى جيهان الســادات التى تفضلت فمنحت دواوين (شعره) نسمــة أمل فى أن ترى النور .

وقصائد الديوان هى : « عــودة الوحى » ، « ولقد وعــدت » ، « يا شــاعر الحلم الغافى » ، « هــذا الوفاء حياتى » رد على قصيدة الأمير صقر بن سلطان القاسمى التى بعث بها إلى الشــاعر بعنوان : « يا صيرفى الوفاء المحض » ، « فقيد الأدب والتاريخ » ، « شــهيد الســلام » ، « ذكريات هوى ماض » ، « لقاء على الرمل » ، « الملك الحارس » ، « أحــلام حطام » ، « قيثارة الإحساس » ، « دنيا » ،

« عــودة المــاضى » ، « يا صورة من مصر صادقــة » ، « يا ساهراً وعيون الناس نائمــة » •

ومقطوعة بعنوان : « دعاء من القلب » •

❋

همسة العطر للنسم :

وهو آخر دواوين الشاعر المخطوطة ، وقد قال فى إهدائه : « إلى المشــاعر النبيلة التى تعيش من أصالتها فى أرفع القمم ، والتى يأسرها أصدق الكلم . ويسحرها أعذب النغم •• أتقدم بهــذه النفحات التى تنبعث وكأنها « همســة العطر للنسم » ، وتبلغ عــدد صفحاته ثمانياً وعشرين صفحة ، مصــدرة بقصيدة « همسة العطر للنسم » التى حمل اسمها هــذا الديوان تليها قصــائده : « ضيف الســلام » ، « بطل السلام » ، « عــودى إلى الأم يا سيناء » ، « الرسائل المنقطعة » ، « إلى مَلك نبيل » ، « يا صيف ولى الموسم » ، « عدت والعيد مقبل » ، « كان لنا ما كان » ، « أنا والناى والبنفسج » ، « الوعود المذلّلة » ، « شفاء الوحى » ، « هامة مصر المرفوعة » ، « إليك أعود يا رمل » ، « ماذا جرى يا صيف ؟ » ، « الانتظار » ، « ذات الوشاح الأحمر » ، « حادث » ، « البطل الشهيد » •

❋

ذاك هــو الرصيد الشعرى للأستاذ حسن كامل الصيرفى باستثناء ديوانيه : « قطرات الندى » و « زهرات لا تذبل » اللذين لازالا قيــد الطبع بدار المعارف حتى إعداد هذه الدراسة ، وباستثناء أشعاره التى لم تضمها دواوينــه السابقــة مما نشره أو لم ينشره من قبل فى الصحف والمجلات الأدبية ، ولكن هــذا الكم غير القليل من القصائد والأشعار إنمــا يمثل نسبة عالية جــدا من نتاج الشــاعر الغزير ، والذى نستطيع تكوين صــورة كاملة للشــاعر من خلالــه فى التعبير ، وطريقة الأداء

الشعرى ، وفى الموضوعات وطبيعة التجارب الشعرية ، وفى الألفاظ ، والأساليب ، والخيال ، والتصـــوير ، وغير ذلك •

ورغم غزارة نتاجه — كما رأينا — لم يلق من عناية الباحثين الجامعيين وغير الجامعيين ، ومن المهتمين بالشعر خاصـــة ، وبالأدب عامـــة فى الصحف والمجلات الأدبية ما يتكافأ ومنزلته الشعرية العالية •

ولا أخفى فى هذا المقام ما لاحظته عليه من ضيق بسبب تنكر الناس لـــه ، فقد بعث برسالة إلىّ مؤرخة فى الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ثنتين وثمانين وتسعمائة وألف ، أثناء إقامتى بالسعودية جاء فيهـــا :

« تحية طيبة ، ودعاء خالصاً من قلبى إلى الله عز وجل بأن يبارك الله لى فى هـــذه الأخوة الكريمة التى منَّ بها علىَّ صادقة فيما تكنّ لى من محبة وإعزاز تمحو ما يضايقنى الآن من تنكر بعض الإخوان الذين لم أكن أتوقع ، أو أتصـــور أن يقفوا منى موقف نسيان ، أو تأخر عن عيادتى فى مرضى فى حين يسأل عنى ، أو يزورنى إخـــوان من الأقطار العربيـــة ••• » •

وقد أحس بهذا أو قريبا منه الأستاذ ثروت أباظة فكتب فى زاوية الأدب « بالأهرام » فى الثلاثين من مارس سنة إحـــدى وثمانين وتسعمائة وألف تحت عنوان : ديوانان لشاعر كبير — يقول :

« أما الشاعر فهو حسن كامل الصيرفى ، صاحب الاسم الذى ظل يرن فى أسماع أجيال متعاقبة زمناً طويلاً ، وهو من كبار شعراء جيله ، ذلك الجيل الذى أعقب جيل شـــوقى ، وحافظ ، ونسيم ، ومحـــرم ، والهراوى ، والزين ، والذى أكمله عزيز أباظة •

وقد كان من الطبيعى أن يتصدى لكل ديوان من الديوانين أساتذة الجامعة ، ونقاد الشعر ، وكتاب الصفحات الأدبية ، ولكن متى تســـير الأمـــور مجراها مع الأدب جميعه •

وكم أنا حزين وأنا أخط هــذه الكلمات ، فإن شأنى مع الشعر شــأن الهاوى العاشق ، أقرؤه ، وأحبــه ، وأعجب به ، أو ارفضــه وأبغضه ، وأنصرف عنه ، وليس علىّ فى الحالين جناح ، ولا تثريب ، فمــا أنا بناقد له حتى يلزمنى القارىء أن أبدى أسباب إعجابى إذا أنا أعجبت ، أو أسباب انصراف إذا أنا انصرفت •• فأنا كاتب ، إذا كتبت قصة ، أو رواية ، أو مقالا سياسيا أو أدبيا •• أما إذا خلوت إلى متعتى فى القراءة أصبحت ملكا لنفسى ولهواى ، أعجب إذا شئت ، وأرفض إذا شئت ، أمارس حرية القارىء فى مخفف من أثقال الكاتب ، ومادمت لا أنشر الرأى منى فما لأحــد على سلطان ، بل إن ضميرى نفســه لا يدخل بينى وبين ذوقى ، فالأحكام الأدبيــة التى يصدرها القارىء بينه وبين نفســه لا تحتاج إلى حيثيات ، وبقدر ما فى هذه القاعدة من ظلم للاديب المبدع فإن فيهــا الحرية الطبيعيــة للقــارىء المستقبل ، وأنا مع الشعر قارىء مستقبل أقبل وأعرض كيفما شــاء هــو ، أى ما دمت لا أكتب هــذا الرأى ، وتلك هى متعتى الوحيدة الخالصة مع الأدب التى لا يثقلها معاناة التأليف ، ولا يعقبها قلق المنظر ، ولا يكبلها قيود الفن وجهده التى لا يعلمها إلا الله ، والكاتب الذى يريد أن يكون جادا لا هازلا ، يقول ليهز مشــاعر جيل حاضر ، وأجيال مقبلة ، لا ليهدهد مهود الصبيان ومضاجع الفارغين » •

ويقول : « ولكننى حين أرى ظلما بينا فأسمع الصمت حين ينبغى الكلام ، وأرى الضجيج حين يجمل الصمت أنتزع من هــدوء القارىء وأقحم نفسى إلى ميدان الناقد » •

ولعل السر فى إحجام أســاتذة الجامعــة ، ونقاد الشعر ، وكتاب الصفحات الأدبية عن التصدى لشعر الصيرفى يكمن فيما ذكره الأستاذ ثروت أباظة حين قال :

« وحسن كامل الصيرفى شاعر •• وهو شاعر فقط لا يصاحب إلا صديقه ، ولا يرعى إلا ضميره ، ولا يبذل مــاء وجهه ، وإنمــا يبذل

دمه فنا رفيعا سامقاً ، ولا يطرق باباً ، لأن مثله يجب أن يسعى إليه الناس ، فلا يسعى إلى أحد ، وهو كريم على نفسه بخلقه ، وفنه ، وتاريخه جميعاً ومن كان هكذا يستقبل الصمت شعره ، ويختزن أصحاب المجالات الإعلامية تهليلهم لمن يبادلهم نفعاً بنفع ، وتصفيقا بتصفيق ، وتهليلا بتهليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ... »(١٥) .

وقد كتب الأستاذ ثروت هذه السطور حين صدر ديوانا الصيرفي : « عودة الوحى » و « زاد المسافر » ، ليدفع « عن قمم شعراء الجيل حيفاً هم أسمى منه » ، وليرد عنهم صمتا ، « وإن كان شعرهم أبقى على الزمن من الصمت والحديث معا » ، كما قال — ونحن معه فيما رآه .

*

---

(١٥) جريدة الأهرام ، ١٩٨١/٣/٣٠ م ص ١٣ .

موضوعاته الشعرية

الأستاذ حسن كامل الصيرفى شاعر من طراز خاص ، ويتطلب شعره قارئاً من طراز أخص له قدرة على الطيران والتسامى ، فيستطيع أن ينطلق معه فى عوالمه ، ويحلق وإياه فى سماواته حتى يقف على اسرار هذه العوالم وعجائبها ، أما القارىء العادى فهيهات أن يدرك شيئا ، بل إنه ليقرأ الديوان من دواوينه ويخرج دون أن يظفر بطائل ، ذلك لأنه شاعر يخاطب الجمهور الواعى المتأمل (١) •

ويرى الدكتور عبد العزيز عتيق أن الصيرفى يتنقل بقارىء شعره فى دنياه الخاصة حتى إنه ليرى دنيا جديدة لها خواصها ومميزاتها ، ثم إنه لا يجرى على سنن الشعراء وما تواضعوا عليه من النظم فى شتى الأغراض المألوفة كالغزل والرثاء والوطنية والوصف وما شابه ذلك ، كلا فإنه لا يسعد فى دواوينه بهذا التقسيم التقليدى ، وإنما شعره هو شعر الفكرة والتأمل ، تنبثق فى خاطره انبثاق الشعاع ، ولا تزال فى وضوح ونمو حتى تكمل ، وإذ ذاك تساوره وتلجئه إلى التعبير عنها ، والخروج إلى الحياة ، كما يفعل الجنين بلغ تمام نموه (٢) •

وكتب الأستاذ إسماعيل مظهر فى مجلة « المقتطف » يقول : « عرفت الصيرفى •• شاعراً صادق الشاعرية لم يتكلف يوماً أن ينظم شيئا تسوق إليه مناسبة من المناسبات لا تخلف فى نفسه ذلك الأثر الشعرى الذى يهيج فى الشاعر شيطان شعره ، فلاكوارث الزمن ، ولا أحداث الحياة عنده إلا أوهاماً تمر خيالاتها كأنها الصورة المتحركة ، إذا لم تترك فى نفسه ذلك الأثر الذى يفتح مغاليق الشاعرية ، فإذا بلغت

---

(١) انظر دراسة الدكتور عبد العزيز عتيق بديوان « الألحان •• » ص ٩١ ، ٩٢ •

(٢) انظر نفس الديوان ص ٩٣ •

الأحداث من نفسه ذلك المبلغ فاض بالمعنى المستخرج من أعمق أغـوار النفس ، مصبوباً فى قالب شعرى رصين .. وعلى الجملة فقد عرفت الشاعر الذى لم يخلق للأحـداث ، وإنمـا خلقت الأحداث من أجله ، وقلمـا يكون الشعر ذا قيمة ما لم تخضع له أحـداث الحياة ، فإذا خضع لتلك الأحـداث فهنالك يخرج الشعر عن طبعه ، ويتبدل مزاجه ، فيصير نظما ، أى كلاماً موزونا ، أثره فى النفس أتفه ما يكون (٣) .

وإذا كان كثير من النقاد لا يحفل بشعر المناسبات الذى تفرضـه على الشاعر ظروف الحياة اليومية ، وما قد يكون فيها من أحداث تدفعه قسراً إلى قوله ، فذلك راجع إلى ضعف الأثر الذى يتركه هـذا اللون من الشعر فى النفس بعد انقضاء المناسبة التى أنشىء أو أنشـد فيها ، وليس معنى ذلك أن شعر المناسبات كله على درجـة سـواء ، لأن الشعر فى عمومه إنمـا هو وليد مناسبة خاصة ، ولكن الشاعر القوى يتخذ من المناسبة الخاصـة دافعاً على إنشـاء القصيد الذى يقوى على مجابهة الزمن ، بما يوفره لـه من صـدق الإحساس ، وعمق التجربة ، ورقـة الشعور ، ونبل العاطفة ، وإلا فالزمن قادر على محـو الغث من الأشعار ذات المعانى السطحية ، والأحاسيس الكاذبة المزيفة ، واثبات الأشعار الغنية بشريف المعانى ، وسمح الألفاظ ، وصادق الشعور والإحساس ، المحلقة بمـا يكتنفها من صـور الخيال ، المطربة بالموسيقى وجمـال الإيقاع .

ولا أدل على ذلك من تلك الأشعار التى تحدرت إلينا عبر السنين ، منسابة من عمق الزمن ، والتى تكمن وراءها مناسبات خاصة فجرتها ، وإنمـا كتب لها البقاء لأن أصحابها دفعوا بها مذ قالوها إلى الأمـام ، بمـا وفروه لها من عناصر الشعر الأصيل ، والشاعرية المحلقة المبدعة ،

---

(٣) انظر دراسة اسماعيل مظهر بمجلة « المقتطف » وكان رئيسا لها عدد يونية ١٩٤٨ م ، المجلد ١١٣ ، ص ٨٢ — ٨٤ .

من اهتمام بالتجربة ، وعناية بالألفاظ والأساليب والأخيلة ، والموسيقى والايقاع ، والأصالة مع الابتكار ، فتخطت بذلك حواجز الزمن ، وصمدت لرياح الفناء ، وعواصف العدم ، ومكنت لنفسها فى دنيا الأدب ، والأمثلة على ذلك كثيرة بحمد الله مما تزخر به كتب الأدب التراثية ، التى حفظت هذه الأشعار مقرونة بالمناسبات التى أنشئت فيها •

ليس إذن شعر المناسبات كله على درجة واحدة من الإجـادة ، وإحداث الأثر فى النفس ، بل إنها تتفاوت فى القيمة ، وتختلف فى إحداث التأثر بها ، فنيا وجماليا ، ودرجـة التأثر هـذه هى التى يمكن الحكم من خلالها على تلك الأشعار فى غير هـوى أو تعصب أو زيغ ، إذ بمقدار عمق المناسبة فى نفس الشـاعر وقوة إحساسـه بها ، وصـدق معايشته لها تكون درجـة القصيد •

والذى لا شك فيه أن نفس الصيرفى القلقة المتجهمة فى حقبة من عمره قد طبعت شعره الأول بطابع الألم ، ولكن ألحانه الآلمـة ظلت نبعاً ثراً للأرواح التواقة للأنس الروحى المفقود فى دنيا البشر ، وقـد كان للصيرفى لفتات غزلية متصوفة ، ونفثات فى شعر الطبيعة ممتزجـة بالخواطر الوجدانية آنا ، وبالفلسفة الخفيفة آنا آخر ، فضـلاً عن اتجاهات رمزية ، ونفثات إنسانية مثالية نادرة [٤] •

وتطل المرأة فى ثنايا شعره بوجهها الجـاذب ، وينبض فيه قلبها العاطف وهنا يتجه الشاعر بشعره وجهة جديدة ، ويضفى عليه إشراقا ، ويضيف إلى تجاريبه تجاريب ، وينوع فى انفعالاته ، ويبدل من موسيقاه أحيانا •

وفى ذلك يقول الأستاذ مصطفى السحرتى (— ١٩٨٣ م) : وهذا

---

(٤) انظر : المقتطف فبراير ١٩٤٩ م (المجلد ١١٤) ص ١٠٧ ، ١٠٨

« نزوع وجدانى مشرق جديد ، وتبدل نفسانى عجيب جعل الشاعر ... ينسى العذاب ويذكر الألم ، ويودع الماضى ، ويفهم الكون فهما جديداً ، ويرى جماله بالنظرة الأولى ، ويحس فى جمال ... الحبيبة بدفقات النور تضىء جوانحه ويرى مرائى الطبيعة ونباتها بمنظار وردى » .. « ويبدو أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثير من التفكير ، .. وحالما انقشع ما كان يهوم حوله من تفكير فى بداية حبه انبرى .. يصف أثر الحبيبة فيه حسيا ومعنويا ، فأخذ يصف أثرها الحسى ، وأثرها المعنوى (٥) » وإن لم يخل من التأملات الكثيرة ، والمعانى الغامضة .

❋

هذه هى الروح التى تعامل بها شاعرنا الصيرفى مع موضوعات شعره ، وإن لم يكن من السهل الفصل بين تلك الموضوعات إلا فى أضيق النطق ، لأنه يمزج — حتى فى الموضوعات التى يمكن أن يقال عنها إنها موضوعات تقليدية — بين تلك الموضوعات نفسها والروح التى سيطرت عليه ، وصدر عنها فى جل ما دبجته يراعته من أشعار .

فإذا تحدثنا — مثلاً — عن الوصف فى تلك الأشعار فلن نجد هذا اللون التقريرى الذى ساد الشعر العربى القديم ، والذى يكتفى فيه الشاعر برصد مشاهداته على نحو تقريرى دون التعمق فى مشاهد الحياة الكونية ، وأسرارها ، وما قد يغلفها من الغموض ، أو يحيط بها من الإبهام .

لم يقف الشاعر بالوصف عند هذا الحد ، بل راح يمزج مشاهداته ومرائيه الحسية بخواطره النفسية ، وتهويماته الشعورية والخيالية ، وفى سبيل ذلك استعمل التشبيه والاستعارة ، وسائر ألوان المجاز استعمالاً شفافاً رفافاً على نحو ملحوظ .

---

(٥) انظر : المقتطف ايضا ، فبراير ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، ص١٠٧، ١٠٨

وقــد كان الوصف من متطلبات التأمل الانطوائى العميق الجــاد عند الصيرفى ، وكان هذا الوصف المختلط بالتأمل تخالطه نزعــة أخرى رمزية حتى إن الوصف عنده ليس فى الحقيقة مقصوداً لذاته بقــدر ما هــدف الشاعر منه إلى الترجمــة عن تأملاته وسبحاته ترجمــة قوية صادقة ، استمع إليه — مثلاً — فى قصيدته « السحابة المغترة » التى تحمل تلك السمات التى حدثتك عنها من قبل — يقول :

سحابــة كالصبّ فى جوفهــا ... ما فى فؤاد الصبّ من وجــده
تمشى الهوينا كالجهول الذى ... يســير مزهواً على لحـــده
كئيبــة كالمســتبد الـــذى ... يود لــو يأتى على ضـدّه
دجنــاء كالجــانى تراءت لــه ... حفائر القتلى وفى قيـــده
أفعى تساقيه الردى فانثنى ... يكسر الصمصــام فى غمــده
حبلى ولكن لم يحن وقتهــا ... جنينها حــيران فى مهـــده
مرت بطــود شــامخ يرتقى ... إلى عنــان الجــو فى بعده
فغاظها أن لا يبــالى بهــا ... فأقسمت لابــد مــن هــدّه
لابد أن تثنيه عن غيـــه ... فإنه قــد ضــل عن رشده
قــد ظن أن المجــد فى رأســه ... لابد أن تأتى على مجــده
تقدمت منــه وفى صدمـــة ... سريعــة بادت على صـــلده
هــوت من الجو رذاذاً على ... جــوانب الطود إلى نجده (٦)

وهذه الأبيات إنمــا تمثل تجربة واقعية مرّ بها الشاعر فى حقبة من حياته ، فقد حدث أن ذكرتها له ذات يوم ، وقلت له : إننى قــد نظرت إلى هذه القصيدة من قبل على أنها من الشعر الرمزى الموضوعى ، فقال : إنها كذلك فعلاً ، وفهمت منه أن خلافاً وقع بينه وبين واحــد من ذوى النفوذ فى مصر آنذاك ، فأخذ يهدد الشــاعر ويتوعده ، ولكن ثقــة الصيرفى بنفسه ، واعتداده بها قد حولت غضبة تلك السحابة المغترة إلى

---

(٦) الألحان الضائعة ص ٤٣ .

رذاذ ، مجرد رذاذ فقط ، وماذا يمكن أن ينال الرذاذ من الطود الشامخ الذى يضرب بذروته إلى أعنان السماء ؟ أو ماذا يمكن أن تصنع تلك السحابة المتجهمة مع الشم الرواسى السامقات ؟

وإنه ليصعب علينا أن نأتى بنماذج من شعره تمضى على نفس النسق ، خاصة حين يكون أمامنا هذا الرصيد الهائل من الشعر ، ويكفى أن نشير فقط إلى أن الصيرفى حين كان يقول الشعر واصفاً لم يكن يقلد فيه أحداً من السابقين ، وإنما كان يصدر عن إحساس صادق بما يجب أو ينبغى أن يكون عليه الشعر فى عصرنا الحديث ، لذلك رأيناه يقف أمام زهرة « البانسيه » أو زهرة الذكرى ، معشوقة الشعراء والمحبين ، ثم لم يصفها وصفا حسيا خارجيا كما تراءت له حين نظر إليها بعينيه ، ولكنه وقف أمامها مناجيا ، وراح يبث الحياة فى أوصالها ، ويخلع عليها بعض صفات الآدميين من الإدراك ، والحس ، ويتوسل إليها أن تكون دواء للقلوب ، وألا تشهر فوق المحبين سيوف الفتون ، فيقول :

يا فتنة فى الزهر لا تنثنى	تبعث فى النفس جمال الحنينْ
ملت دلالاً .. يا لها فتنة	كما يميل الهدب فوق الجفونْ
فكنت كالحسناء خجلانة	يا حسنك الساحر إذ تخجلينْ
فيك معانى الود مخبوءة	وفى معنى الوجد ضاحٍ مبينْ
فيك دلال الغيد لا تشهرى	فوق المحبين سيوف الفتونْ
كونى دواء للقلوب التى	جرت عليها السقم مرضى العيونْ
فأنت مثوى العين فى عشقها	وأنت وحى الحب للعاشقينْ (٧)

❋

كان الصيرفى إذا وصف لا يصف لمجرد الوصف ، فلم يكن الوصف مقصوداً لذاته عنده يوماً ، لأنه صمم على أن يكون جديداً وليد نفسه وابتكارها ، لا وليد تقليد ومحاكاة ، كان شعره الوصفى مزيجاً من الوصف

(٧) الألحان الضائعة ص ٧٠ .

والتأمل ، واستبطان الذات ، كما كان يدخل فى تشكيله مشاعر النفس ، وومضات الروح ، ودفعات الشعور الصادق والحس النبيل ، وكلها أمور تحس ولا توصف ونحن نطالع نمــاذج من شعره فى هذه السبيل .

ونزعته التصوفية العالية تأبى إلا أن تتسلل إلى شعره الذى تحدث فيه عن المرأة ، وهو حين يتحدث عن المرأة لا يكتفى بذكر محاسنها الجسدية فقط ، بل يمزج وصفه تلك المحاسن بالنقاء والطهر ، وبالتسامى والشفافية ، فقد التقى فى السابع من ينــاير سنة ثمان وستين وألف بامرأة ترتدى فستانا من طراز « المينى جيب » ، فكتب قصيدة بعنوان « زهرة التيوليت » التى كانت من وحى هذا الفستان ، قال فيها :

بثوبها « المينى جيبْ »
كزهـــرة التيـــوليبْ
تســـعى بخفـــاقينْ
بالســـــحر دفـــاقينْ
قـــد سميـــا ســـاقينْ
حســـناً بغـــير ضريبْ

*

. . . .
كأســـــان تأتلقـــانْ
بالنـــور والسحــــر
ســـاقان عاريتـــانْ
للفـــن ، للشـــــعرِ
يخضـــــر تحتهمـــا
الرمـــل كالبســـتانْ
أدق نحتهمـــــــا
الخـــالق الفنـــــانْ
لا لـــوم لا تثـــريـــبْ
فى سكرة « المينى جيبْ »

*

فالحســن نــور اللــهْ
يجلــو بــه الدنيــا
كالطيف فى الرؤيــا
يطــوف ثم يغيــبْ
حلمــا بغير نصيبْ (٨)

ومن وحى جوربها الشبكى كانت قصيدته « نوافذ الضياء » التى وسم ديوانه بها ، والتى يقول فى بعض أجزائها :

نوافــذ الضــياء فى المســاء
تنتظرْ

قــدوم غائب من السفرْ
يراجــع الأيام والذكَرْ
من غابر وحاضر ومــاثل وداثر
تلألأت تلألــؤ الــدررْ
كأنهــا لواحظ النجــوم
تمزق السحاب والغيــوم
وتنقش الرمــال بالرسوم
لرائــد فى رحلــة يهيم
يســائل الدليــل عن ضــلاله
فيسخر الظــلام من ســؤاله
وخلفــه السمار حائرون
مشردى الفكَر
وزائغى البصر
فى تيههم محاصرون كســارب أسر

(٨) نوائذ الضياء ص ٩ — ١٢ .

بخدعـــــة البريـــق
نوافـــذ الضياء في المســـاء
تنتثر

تلوح في مـدى النظر
مدينـــة نائمـــة بمنحـــدر
أضواؤها الزواهر أزاهرها النواضر
ناظرة مشدوهة إلى القمر
لتستحم في صفائه العميم
في ليلها المظلم البهيم
على صدى مرقرق الرنيم
يبدد الأحزان صوته الرخيم
تسبيحـــة الأذين في ابتهالـــه
برقـــــة الأذان في جلالـــه
سكانها هنـــاك ناعمـــون

بالـــزرع والثمـــر
والطيب في الزهَر (٩)

ومن أبرز الموضوعات التي يمكن الوقوف إزاءهـا في شعره الغزير نختـــار :

١ — شعرُ الرثاء .
٢ — شعرُ الحب والمرأة .
٣ — الشعرُ الإنساني ذا النزعة المتسامية .
٤ — شعرُ الطبيعة .
٥ — شعرُ الشكوى والألم .
٦ — الشعرُ التأملي والتصوف .

---

(٩) نوافذ الضياء ص ١٣ — ٢٢ .

٧ — الشعر القصصى الرمزى .
٨ — الشعر الوطنى .
٩ — شعر الحنين إلى مواطن الذكريات .

ومما هو جدير بالملاحظة أن تلك الموضوعات قد تأتى — عنده — منفردة ، أو متداخلة ، وأكثر ما يكون تداخلها فى النواحى الحزينة ، إذ تتوحد تجربة الشاعر ، وتشف موسيقاه ، وتعمق تأملاته ، ولعل مرجع هذا — كما ذكر الأستاذ مصطفى السحرتى ، رحمه الله فى دراسته عن ديوانى : « الألحان » و « الشروق » — إلى أن النفس فى الألم تكون أكثر توحدا ، وأشد استيحاء لأروع ما فيها ، على حين أنها قد تتوزع فى قصائد المرح، أو القصائد الفكرية .

وسبيلنا الآن أن نجلى القول فى تلك الموضوعات ، ونبين خصائص الصيرفى فيها ، ونقف على طبيعة تجاربه الشعرية من خلالها .



١ — شعر الرثاء

لعل سائلاً يقول : ولم قدمت الحديث عن شعر الرثاء على غيره من موضوعات الصيرفى الشعرية ؟ وهل جمدت شاعريته فى الموضوعات الأخرى حتى تجعل لهذا اللون من شعره الصدارة فى معرض الحديث عن تلك الموضوعات ؟

وللإجابة أقول : إن شاعرية الصيرفى كانت متدفقة دوماً فى شعر الرثاء ، وفى غيره ، ولم تجمد شاعريته فى جل ما دبجته يراعته من أشعار ، فشعره يعد أثراً فنياً يروع ويسحر بما اشتمل عليه من سمات التعبير والبيان ، ولكنه كان مجيداً فى الرثاء ، وفى الألم والشكوى ، ووصف المشاعر والعواطف والأحاسيس النفسية الدفينة ، وكثيراً ما كانت

تجربته الشعرية تختلط بتجارب باطنية أخرى فى شعر الرثاء خاصة دون سواه .

ونلمح فى شعر الرثاء عند الصيرفى أنماطاً شتى من العلائق الإنسانية الجديرة بالتسجيل والتقدير ، فشاعرنا يأبى فى شعره الرثائى الجم إلا ان يطلع القارىء على أشكال مختلفة من تلك العلائق ، وإلا أن يأخذ بيده ، ويجوس به خلال الأعماق النفسية البعيدة للشخص المرثى ، ويطلعه على طبيعه الصلة التى كانت تربطه به ، وعلى نشاطه الملموس فى الحياة ، فإذا كان المرثى شاعراً حمل نفس القيثارة التى طالما وقع المرثى على اهتزازات أوتارها ألحانه ، وأسمعنا من خلالها انغاماً شبيهة بأنغام الشاعر الذى يرثيه ، ذلك الذى تجمد نشيد الحياة على شفتيه ، وجفت فى حلقه خمرة الإلهام والعبقرية ، ولكنها أنغام تختلف بطبيعة الحال عن الأنغام التى أسمعنا الشاعر المرثى إياها من قبل ، حيث تأخذ طابع الأسى الحزين ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشير فى أثناء مراثيه إلى أشهر أعمال المرثى الشعرية ، وما تركته هذه الأعمال من أثر فى الحقل الأدبى ، ليدرك القارىء أو المتلقى فى نهاية الشوط فداحة الخطب الذى الم بفقده بالناس ، فترق نفسه ، وتصفو روحه ، وتسمو مشاعره وأحاسيسه فلا يملك إلا أن يذرف مع الشاعر غزار الدموع على الفكر الذى همد ، والنجم الذى أفل ، ، واللحن الذى ضاع !

ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً أن الصيرفى إنما ينظر إلى الحياة والكون من خلال شعر الرثاء ، نظرة فيلسوف متأمل ، فله فى الدموع — مثلاً — نظرات متأملة واعية ، الدموع التى قال عنها فى « الألحان .. » :

دموعى أنت أمطار	من الآمال من عمرى
دموعى كنت آمالاً	تمد القلب بالبشر
وكانت هذه الآما	ل مثل روائع الزهر
يفوح الشعر للعشا	ق حلواً طيب العطر

إذا ما قلته فيها ... فأين بواسم الشعر
لقد جفت أزاهيرى ... وفيها رونق العمر
دموعى أنت أنداء ... فردى زهرة غيرى
. . . .
دموعى أنت أنغام ... تردد فى حمى الصخر
فمن يستمع الأنّا ... ت ؟ من ينصت ؟ من يدرى ؟
ومن يرثى لآلامى ؟ ... ومن يبكى على قبرى ؟ (١٠)

ويقول فى قصيدته « المنديل » :

أنت يا نسج الأمانى للدموعْ عند بؤسى
تستقى من أدمعى خمراً تروعْ كل كأس
فارو مما شئت (١١) أوما شاءت الآلام دهرا
فإذا جفت دموعى فابق للآلام ذكرى (١٢)

والصيرفى لا يذرف الدموع خدعة ، أو زورا ، أو رياء ، ولكنه يذرفها فى صدق ووفاء ، وقد عبر عن تلك المعانى فى قصيدته : « نغمات ونسمات » التى يقول فيها :

عالى عالم المحاسن والحبّ (م) وأكرم بعالمى المسحور
عالى .. عالم الجمال بريئا ... من رياء أو خدعة أو زور
عالى .. آخذ من البدر نورا ... ومن الشمس جلوة فى الظهور
عالى .. عالم الصفاء مع النا ... س بعيدا عن اصطناع الغرور
عالى .. عالم الوفاء إلى الـ ... ـخلان أبكيهم بدمع غزير

---

(١٠) الألحان الضائعة ص ٧٥ ، ٧٦ .
(١١) فى النسخة المطبوعة : فارتو ما شئت ، ولكنى رأيت الشاعر يصوبه بخطه فى الهامش : فارو مما شئت .
(١٢) الألحان الضائعة ص ٧٧ .

في رثاء كأنه فِلَــذ القلـ ــب تهاوت من لاهب وسعير (١٣)

❋

والذي يطالع دواوين الصيرفي المخلفة يدرك أن وقدة الحزن في نفس هذا الشاعر لم تخمد مــع الزمن ، بل إن ذكرى اصدقائه الراحلين حين تعاوده بين الفينة والفينه تترك في قلبه لهيباً يستعر ، والدليل على ذلك انه حين يكتب في ذكرى واحد من هؤلاء شعرا ، حتى بعد مرور عشرات السنين نحس كأنه يبكى إنسانا فارق الدنيا لتوه ، او لساعته ، وهذا ليس كلاما نظريا لا تسعفه الحجة ، ولا يظاهره الدليل ، ولكنى أسوق إليك بعضا من أبيات قصيدته « على قبر أبى القاسم الشابى » التى كانت وحى وقفه على قبر هذا الشاعر في مدينه « توزر » بالجنوب العربى من تونس الخضراء ، وبعد أربعين سنة من وفاته ، حين زار بيت هذا الشاعر وقبره في الخامس والعشرين من مارس سنة خمس وسبعين وتسعمائة بعد الألف ، وكان قد قطع في هــذه الزيارة الطريق التى كان يسلكها أبو القاسم إلى الواحة الخضراء ليصعد إلى ربوة هناك يلتقى فيها خياله بعرائس شعره ، قال :

تمضى السنون وأنت في خلــدى ... حى — وحىّ أنــت — للأبــد
يا ناطقا من تحت حفــرته ... والصمت لف جــوانب البلــد
أنــا ســـامع فاهتف فأنت هنــا ... روح قد انسلخت عن الجسد
. . . .
أنا واقف والصمت يغمرنـــى ... وغمامــة تغشى من الشجن !
وتمــر بــى الــذكرى معطرة ... فواحــة هفهافة الردَن (١٤)
والأربعــون تطــوف مسرعــة ... وكأنها انفلتت مــن الزمــن

---

(١٣) نغمات ونسمات ، المخطوط ص ٩ ، والفلذ : جمع فلذة وهى القطعة من الكبد واللحم .
(١٤) الردن : الكم .

أيـــام كنـــا فى شبيبتنـــا   كبـــلابلٍ تشـــدو علـــى فنن
الروض صوح (١٥) والزمان مضى   بالصادحين به .. وبالغصُنِ
والمـــوت غيب بعض صحبتنا   لكنهم قـــد خلـــدوا حزنـــى
أرثيهـــمُ فى كل محتفـــــل   وأبكّهم بالهـــاطل الهتن (١٦)

نعم . إذا كان الروض قد صوح ، ومضى الزمان بمن صدحوا به ، وبالغصن الذى طالما كان يميس فى المـــاضى مع الغناء والشدو ، وغيَّب الموت بعض الصحاب فيكفى أن يكون ارتحالهم إلى البقاء قـــد خلد فى نفس الشاعر حزنا لا يبلى ، وأسى لا يحـــول ، إنه مصرّ على أن يبقى الحزن خدينه على الأيام ، وأنّى له أن يفارقه وقد ترك هؤلاء الأحبة فى حياته فراغا لا تملؤه الأيام ؟ ! ولكن الذى يسليه أن يكون فكرهم قد تجاوز عصرهم ، وأن يكونوا قد عاشوا حياتهم يهدون الخير إلى الناس كل الناس :

الحى من عاش عمـــره   يهدى إلى الناس خـــيره
والحى من عاش دهـــره   فكرا تجـــاوز عصره (١٧)

❊

كثير هو شعر الصيرفى الذى يحمل سمات فلسفته فى قضية الموت والحياة ، لقد نظر إلى الحياة وهو شاب — كما قال فى مقدمة الألحـــان — نظرة شيخ مجرب (١٨)، حتى القيثارة التى اتخذ أوتارها من قلبه رآها كالحياة ينقطع وتر منها بعد وتر ، وكالناس يفنون فردا بعد فرد (١٩) . ثم انظر إلى لمحة أخرى من لمحات فلسفته تلك فى قصيدته التى عنوانها : « من غير وداع » التى يقول فيها :

---

(١٥) صوح : يبس .
(١٦) نغمات ونسمات ، الديوان المخطوط ص ٣٤ .
(١٧) نغمات ونسمات ، المخطوط ص ٤٢ .
(١٨) انظر : مقدمة الألحان ص ٨ .
(١٩) انظر : مقدمة الألحان ايضا ص ١١ .

ســــفر كشعاعْ   ماضٍ لمَّـــــاعْ
من غـــير وداعْ   صـــك الأســـماعْ

*

وكذلك نمضى فى الدنيـــا
رؤيـــا تتعقبهـــا رؤيـــا
هجرا أو بغضا أو نأيا
والغيب ضنين باللقيـــا

*

والعمـــر وداعْ   فى إثـــر وداعْ
يمضى لضـــياعْ ... الخ (٢٠)

قلت من قبل : إن خط الرثاء فى شعر الصيرفى خط موفور ، وهذه ليست دعــوى يعوزها الدليل ، ويكفى أن نعلم أنه خصص ديوانا من دواوينه لهذا اللون ، هــو ديوان « دمــوع وأزهار » الذى أحتوى على عشر قصائد كلها من شعر الرثاء تشتمل على تسعة وعشرين وأربعمائة بيت على النحــو التالى :

* « غروب شمس » وقد كتبها فى الثالث عشر من أغسطس من عــام ستة وأربعين وتسعمائة بعد الألف فى رثاء شقيقته الوحيدة التى أغمضت أجفانها إلى الأبد — كما قال — عن أحلام دنيانا الزائفة بعد أن وهبت الحياة لوليدها الوحيد (٦٠ بيتا) ، وهى قصيدة « بائية » .

* «الضاحك الباكى » فى رثاء نجيب الريحانى ، وهى مؤرخــة بالثامن من يونية ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة بعد الألف (٣٧ بيتا) ، وهى قصيدة « ميمية » .

---

(٢٠) ديوان : النبع ص ٢٣ ، ٢٤ .

* « رقدة الملاح » ، « بائية » فى رثاء صديقه الشاعر على محمود طه ، وهى مؤرخة بالسابع عشر من نوفمبر سنة تسع وأربعين وتسعمائة بعد الألف (٥٩ بيتا) •

* « الظل المنحسر » ، « نونية » فى رثاء والدته وهى مؤرخة بالعاشر من أغسطس سنة إحدى وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٣٦ بيتا) •

* « نهاية كفاح » ، « لامية » فى رثاء الدكتور زكى مبارك ، كتبها فى الرابع والعشرين من يناير سنة ثنتين وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٢٠ بيتاً) •

* « زهرة الخير » ، « بائية » فى رثاء حماته ، وهى مؤرخة بالثامن من أبريل سنة ثنتين وخمسين وتسعمائة بعد الألف ، (٣٢ بيتاً) •

* « شعلة المجد » ، « همزية » فى رثاء عزيز فهمى ، كتبها فى أول مايو سنة ثنتين وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٧١ بيتاً) ولكن نزعتها الوطنية واضحة ، حيث مزج فيها بين الرثاء ، وبين تلك النزعة •

* « طيف السلام » ، « ميمية » فى رثاء الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى وهى مؤرخة بالخامس والعشرين من مارس سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٣٢ بيتاً) •

* « الشعاع الغارب » ، « نونية » فى رثاء صديقه القاص صلاح ذهنى ، وهى مؤرخة بالسادس والعشرين من أغسطس عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٢٣ بيتاً) •

* « الشاعر الثائر » ، « نونية » أيضاً فى رثاء ، صديقه الشاعر العالم الدكتور أحمد زكى أبى شادى ، وهى مؤرخة بالثانى عشر من أبريل سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد الألف (٥٩ بيتاً) •

هـذا بالإضافة إلى قصائد الرثاء الأخرى التى تنبث فى تضاعيف دواوينه الشعرية الكثار .

ومما هـو جدير بالملاحظة أن الصيرفى كانت تنطبع على نفسه الرقيقة ، وحسه النبيل كل مشاعر الأسى والحزن حين ينعى الناعى إليه أحـداً من أصدقائه ، لأنه كان يدرك جيداً أن فى غروب تلك الشموس إيذاناً بدنو الأجل ، وإشعاراً باقتطاع جزء كبير من الذكريات الغالية المفعمة بالأمل .

وليس معنى هذا أن الشاعر كان يشفق على نفسه من الموت ، فالدنيا كانت دائماً فى عينية « رسوماً لم تـُجَمَّلْ بالظلال » ، استمع إليه يقول فى قصيدته « المعنى المبهم » :

ستختلف الحياة أمام عينى
تمـر طيوفها ، وتغيب عنى
وتفنى فى محيط من تمن
وأحلام تلوح بكل لون

❋

وما أنا غير طيف من رؤاها
تأخر حينه حتى يراها
ويعرف ضعفها ومدى قواها
وتفرحه وتبكيه مناها (٢١)

❋

والذى يلفت النظر حقا أن شعراء « أبولـّو » الراحلين ، الذين انتقلوا من عالم الشهادة إلى عالم الغيب قـد استأثروا بالحظ الأوفى

(٢١) ديوان الشروق ص ٦٥ ، ٦٦ .

والأوفر من شعر الرثاء لدى شاعرنا الصيرفى : لأنه كان مشدوداً إلى أخوتهم العزيزة ، وإلى كل ما كان لـــه معهم من ذكريات وضيئة ، وقد صرح هــو نفســه بهــذه المعانى أو ما يقرب منها ، ففى قصيدته : « ذكرى تعود مع الربيع » ••• ذكرى أخيه الشاعر أحمد زكى أبى شـــادى يقــول :

يا صاحب الذكرى حييت ولم تمت
ما مـــات حى فى القـــلوب معمَّر

لك فى خيـــالى صــــورة أبدية
أغفو ، ولا يغفو الخيال ، وأسهر

وصدى حديثك فى الســـماع مردَّد
وجلال سمتك فى العيون مصوَّر

وأخوة كانت على طـــول المـــدى
وضـــاءة القســـمات لا تتغـــير

طال الزمـــان بهـــا ولكن الردى
لـــا طواك مضت كحـــلم يقصر

حاشاى أن أنســـاك لحظـــة غفـــوة
أنا معـــدن الخلُق الـــوفى الأندر

الراحـــلون من الرفـــاق ذكرتهـــم
لـــا ذكـــرتك فاستُعيد المنظـــر

صـــور تمر سريعـــة بسَّامـــة
ورؤى تـُطيف بمقلتى وتعـــبر

ماضٍ من العمـــر الجميل نشرته
لهفى على المـــاضى الذى أتذكر (٢٢)

---

(٢٢) صلواتى أنا ، ص ٧١ ، ٨٢ .

وحين أقيم للشاعر محمود أبى الوفا حفل تكريمى فى رابطة الأدب الحديث بالقاهرة فى مســاء الثامن والعشرين من مايو سنة سبع وستين وتسعمائة وألف بمناسبة الإنعام عليه بنيشــان عيد العلم حيّاه الصيرفى بقصيدة قال فى بعض أبياتها مخاطباً أبا الوفا :

لست أنســاك ، أنت بعض عزيز ... من رفاق مضوا : حبيبا .. حبيبا
أين .. أين الزكى ؟ أين على ؟ ... أين ناجى ؟ ذكراهمُ لن تغيبا (٢٣)
هم أمامى : دواوين شـــعر ... وغناءٌ أظل منــه طروبـــــا
منذ كنا جماعـــة من فنون ... نسجت للقريض ثوبا قشيبا (٢٤)

ولذلك رأيناه يرثى شعراء « أبولو » فى صدق ووفاء ، أليس القائل :

مـــا أجمــل الوفاء ! ... لا الرثاءْ فى المنـــابرْ
ما أجمل الدمـــوعْ ! ... لا الشموعْ فى المقابرْ

. . . .

يا صاحبى ! يا صاحبى ، مــا أجمــل الوفاءْ !
عاشـــت نفـــوس عـــزّ فى وجودهــــا اللقـــاء
وارتحلت عن عالمـــى ، ولـــم يزل لهـــا بقـــاءْ
فى خاطرى .. فى مهجتى . لم يمحها الفناءْ (٢٥) ؟

وإنه ليحرص على التذكير بصدقه ووفائه فى الكثير من شـــعره ، استمع إليه يقول من قصيدة له بعنوان « أخ كالأذان » ألقاهـــا فى ذكرى الشاعر الروائى على أحمد باكثير الذى فارق الحياة فى العاشر من نوفمبر سنة تسع وستين وتسعمائة بعد الألف :

---

(٢٣) اشارة الى المرحومين ، الشعراء : احمد زكى ابى شادى ، وعلى محمود طه ، وابراهيم ناجى .
(٢٤) صلواتى أنا ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٢٥) زاد المسافر ص ١٢ ، ١٣ .

حادى الركب ! مالركبك رجعــه ... قف قليلا حتى أودع جمعــه !
ضاع منى الشباب والذكر الحلــ ... ــوة منه ، ولم تزل غــير لـمْعَه
والرفاق الأحباب من كل صــوب ... يتوارون دفـْعة بعــد دَفـْعه
وفؤادى فى إثرهــم يتلاشى ... بضعة إثر بضعــة إثر بضعــه
وأنــا فى الطريق أقفــو خطاهم ... مثل ظل يغيب أو ضــوء شمعه
ما احتراقى ما لوعتى ما رثائى ... غير إحساس من أصيب بفجعه !
واحتراقــى ولوعتــى ورثائــى ... يا أحباءُ دمعة أى دمعــه
قــد ذهبتم وخلفكم فى حــياتى ... صدع قلبى •• ولن أرمم صدعه (٢٦)

*

ولقد يبلغ الأمر بهذه النفس الرقيقة ، والروح الشفيفة أن تحس بمقدمات الخطب قبل وقوعه ، حكى لى الصيرفى ذات مرة أن حالة اكتئاب ألمت به ذات يوم من أيام شهر يناير من عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف ولم يلبث دمعه أن انهمر ، ولم يمض وقت طويل حتى اتصل به نجل الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، الذى كان آية فــذة فى معرفة كنوز الفكر العربى فى شتى مكتبات العالم يعلن وفاة أبيه فجأة ، ليترك برحيله المفاجىء فى نفوس محبيه ومقدريه لوعة باقية ، وفى عالم المخطوطات الذى وقف حياته عليه فراغا لا يســد ، فكتب قصيدة رائعة قال فيها :

وداعاً •• وخلف النعش باك ومطرق ... وقلبىَ من هول الفجيعة مرهق
أخى ، وعــزيز أن أودع ماضيا ... عزيزاً ، له فى حبّة القلب موثق
رحلت ولم تزمع وداعاً ولم تكن ... لتنسى وداعاً ، حين تمضى تحلق
لقد كنت سباقا إلى الود راعيــا ... وها أنت نحو الموت تجرى وتسبق
بكيتك قبــل النعى حتى كأنمــا ... تفتح بــاب الغيب والغيب مغلق
شعور تقاضانى البكاء ولم أكن ... لأعلم أن الــوهم بالبين ينعق

---

(٢٦) زاد المسافر ص ٣٤ ، ٣٥ .

شــدهت لــه حتى كأنى مسحَّر   فلا الصمت يجفونى ولا الفم ينطق
تمر بى الأعــوام ذكرى أسيفة   عليها غمامات من الحــزن تطبق
وأمسح دمعا هاملاً بعــد هامل   ليفســح للفيض الــذى يتدفق
مضى الركب بالأحباب من كل وجهة   وغاية هذا الركب هذا التفرق (٢٧)

*

ولا أظننى بمبعد عن الصــواب إذا قلت إن قصائد الرثاء عنــد الصيرفى لم تكن يوماً كغيرها من مراثى الشعراء السابقين التى يصلح أكثرها أن يكون رثاء لأشخاص عديدين ، لمــا فيها من الصور العامة ، والمعانى المشتركة التى تتحدث عن ظاهرة الموت فى عمومها وشمولها ، لأن صور الصيرفى تكاد تنحصر فى المرثى لا تعدوه إلى من سواه ، سواء ما يتصل منها بالسمت الخاص الذى كان عليه المرثى ، أو بما كان له من آثار مخلدة باقية فى غير منحى من مناحى الحياة ، أو بما كان يربطه به من علاقات إنسانية خاصــة ، فهى تسجيل واقعى حى يحكى شيئا وقع ، وماضيا تحقق ، وهــذا ما يميز رثاء الصيرفى عن رثاء الشعراء السابقين ، إنه رثاء جديد مبتكر ، يخرج على الناس فى ثوب قشيب من نسج يد الشاعر ، وليس من نسج شاعر آخر ســواه ، استمع إليه يصف صديقه محمــد رشاد عبد المطلب فى نفس قصيدته السابقة ، وقد خلا منه وجهه بعد أن كان بسمة تلوح على وجه الزمان •

وكنت كإقبال النسيم إذا سرى   عشــية صيف باللظى تتحرق
لطافة ظل فى سلاســة رقة   وومضــة حب بين عينيك تُطلق
تكاد إذا حدثت تهمس وادعــا   كأنك بالأسماع تحنــو وترفق
وداعــة طفل فى سماحة خــيِّر   يكاد إذا هل الصديق يصفق (٢٨)

هكذا كانت أخلاق محمد رشاد عبد المطلب — كما حدثنى الأستاذ

---

(٢٧) زاد المسافر ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٢٨) زاد المسافر ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

الصيرفى نفسه ، وكان قد خبرها فيه — كان يفرح بلقاء الصديق ، ويفتح لــه ذراعيه فى حب ، ويضفى عليه من سماحته الخيرة ما يجعل الألسن تلهج بذكره ، وتنطق بالثناء عليه •

وهذه بعض خصائص الصيرفى فى رثائه ، كان رثاؤه تسجيلا أميناً لانطباعه الفردى نحــو الشخص المرثى ، وتعبيرا صادقاً عن طبيعة العمل الذى خــدم المرثىّ الحياة من خلالــه فى شتى مجالاتها التى سبق أن ارتادها ، وفى العديد من صورها وأشكالها ، وعن سيرته وما وقع لــه فيها من أحداث كبار ، وما كان له معه من ذكريات ، حتى إنه لا يستطيع أن يستعير بعض معانيه من قصائده الرثائية السابقة ليبثها فى تضاعيف ما ينشئه من شعر رثائى جديد ، اللهم إلا إذا كان معنى عاما مشتركا ، كأن يكون متصلا بفلسفة الحياة والموت ، أو بانطباع الشاعر العام تجاه الخطوب والأحداث وفجائع الأيام •

*

لقد أخذت كل مرثية من مراثى الصيرفى طعماً فريداً ، ومذاقاً جديداً ، وقد جاء هــذا التنوع نتيجة تنوع الإحساس عند الشاعر تجاه الشخص الذى يرثيه ، وفكراته التى يعرفها عنه ، ومقدار الصلة التى تربطه به ، وطبيعة الأثر الذى تركه فى الحياة بعد أن آذنت شمسه بالأفول •

وسأضرب المثل على ذلك بمراثيه فى شعراء « أبولو » الراحلين ، هؤلاء الذين عاشرهم من قبل معاشرة حميمة فى حمى جمعية « أبولو » الشعرية التى شارك أبا شادى فى تأسيسها عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف ، وقد تنوع طابع تلك المراثى بتنوع إحساسه ، وتباين فكراته نحو كل واحد منهم ، ومن بين تلك المراثى :

* « رقدة الشاعر » ، فى رثاء الشاعر الشاب محمد عبد المعطى الهمشرى صاحب مطوّلة « شاطىء الأعراف » ، بدأها بقوله :

من الصامت الوسنان تحت العواصف
تمر به الأشـباح شتى الطـوائف

عليه من الحزن العميق غمامـة ملفعـة بالذكريات الكواسف (٢٩)

❊ « الصباح الجديد » ، وقد أهداها إلى روح الشاعر التونسى أبى القاسم الشابى فى مقرها الوادع الأمين ، بدأها بقوله :

أيهـا المتعب الـذى حطم النـاى واسـتراح
هـذه غايـة المنـى هـذه غايـة المراح (٣٠)

❊ « رقدة الملاح » فى رثاء الشاعر على محمود طه (المهندس) ، بدأها بقوله :

لم يبق لى فى طريق العمـر أحبـاب
خلا الطريق وأحباب الرؤى غابوا (٣١)

❊ « طيف السلام » ، فى رثاء الطبيب الشاعر إبراهيم ناجى ، بدأها بقولـه :

ليهنك الصمت لا شكوى ولا ألم ولا كفاح ولا جهـد ولا سـقم
يا تاركا هـذه الدنيا وزخرفهـا مخدوعة بوجود كله عـدم (٣٢)

❊ « الشاعر الثائر » ، فى رثاء صديقه الدكتور أحمد زكى أبى شـادى ، بدأها بقولـه :

رحل الأحبـة عن حماك وبانوا فابك الزمان فلن يعود زمان (٣٣)

---

(٢٩) رجع الصدى (مجموعة صدى ، ونور ، ودموع) ص ٤٠ — ٤٤ .
(٣٠) الشروق ص ٨٦ — ٨٨ .
(٣١) دموع وازهار (المجموعة الثلاثية) ص ٢٥٤ — ٢٦٤ .
(٣٢) نفس الديوان ص ٣٠٢ — ٣١٢ .
(٣٣) نفس الديوان ص ٢٩٢ — ٢٩٨ .

وله فيـــه قصيدة أخرى عنوانها « ذكرى تعــود مع الربيع » ، بدأها بقولـــه :

ذكرى تعود مــع الربيع وتنشر   هى منه أزكى ، وهى منه أنضر[٣٤]

وكتب بالمثل قصيدة أخرى فى أبى القاسم الشابى عنوانها : « على قبر أبى القاسم الشابى » ، وهى التى أشرت إليها من قبل .

* « شاعر الرقة » فى رثاء الشاعر العاطفى الأستاذ صالح جودت وقد بدأها بقوله :

يا أخ العمــر ويازين أخـــوه   لم تشبها فى مــدى الصحبة جفوه
جــاوزت صحبتنا فى سيرهــا   عقدها الرابع فى أروع خطوه [٣٥]

*

وقد رثى الصيرفى عددا كبيراً من رجالات الفكر ، والأدب ، والشعر والفن ، والوطنية نذكر من بينهم : الدكتور زكى مبارك ، ومحمود غنيم ، وعزيز أباظة ، وصلاح ذهنى ، ونجيب الريحانى ، والنائب الوطنى عزيز فهمى وسواهم ، غير أننى اخترت مراثيه فى شعراء « أبولو » لبيان ما فيها من تنوع نجم عن تنوع الإحساس عنده نحــو الشاعر الذى يرثيه ، وما فيها من إشارات إلى بعض آثاره الشعرية ، وما كان له من سمات فى التعبير والأداء ، وفى الموضوعات ، وطبيعة التجارب .

وقد ظهر لى بعد طول مراجعة فى تلك المراثى عدة خصائص لعلها مما يميز الصيرفى عن غيره من شعراء المراثى فى القديم والحديث ، وقد يشاركه فى تلك الخصائص بعض شعرائنا المحدثين وبخاصة زملاؤه فى رحاب جمعية أبولو ، كالشاعر على محمود طه [٣٦] ، ولكن الصيرفى يبقى

---

(٣٤) صلواتى أنا ص ٧٠ — ٧٩ .
(٣٥) نغمات ونسمات ، المخطوط ص ٦٧ — ٧١ .
(٣٦) انظر ديوان على محمــود طه ، دار العــودة بيروت ١٩٨٢ م ص ٩٢ — ٩٨ ، ١٧٣ — ١٧٧ ، وغيرها .

متميزا فى أسلوبه ، وألفاظه ، وأحاسيسه ، وإخلاصه ، ووفائه ، وأخيلته ، وصوره ، وعاطفته ، ودقة تعبيره عن تجربته ، ومن تلك الخصائص :

١ — كثيرا ما نوه فى تلك المراثى برفقته المخلصة من شعراء جمعية أبولو الشعرية الذين حصدتهم الأيام ، وتساقطت أوراقهم ورقة بعد أخرى ، سواء فى خريف العمر أو فى روعة الشباب ، فتركوا فى حياة الشاعر فراغاً لا يسد ، وأسى قائماً لا يحول ٠

استمع إليه يقول فى قصيدته « الشاعر الثائر » التى رثى بها الدكتور أحمد زكى أبا شادى :

ومضى المغرد والجراح تؤوده	واستسلمت لخريفها الأفنان
وتساقطت أوراقنا وتقصفت	أغصاننا ، وتناعب الغربان
ومشى على ألق الخميلة عاصف	جزعت له الأطيار والأغصان
كانت جِنان أزاهر فتانة	لم يغف عن تنسيقها الجنّان
ناجت بها الفجر الوسيم بلابلٌ	أين البلابل رحن والألحانُ ؟
لهفى على الماضى الجميل تباعدت	ذكراته لا رامها النسيانُ ! (٣٧)

ونحن لا نملك إلا أن نهدىء من روع شاعرنا الصيرفى ، ونؤكد له أن البلابل إن قضت فسيظل تغريدها ، وستظل ألحانها ملء السمع والفؤاد ٠

ويقول فى قصيدته « على قبر أبى القاسم الشابى » مسترجعا ذكرى « أبولو » التى لا تغادره فى يقظته أو فى كراه :

ذكرى « أبولو » وهى جامعة	لمواهبٍ صعدت إلى القنن
أشعارها يحنى الزمان لها	هاماته ، فبسحرهنّ غَنِى
ذكرى « أبولو » لا تغادرنى	فى يقظتى أبداً وفى وسنى

(٣٧) دموع وأزهار (المجموعة الثالثة) :ص ٣٠٣ ٠

قصرت على الأعـوام مدتهـا لكنهـا طالت على الزمـن (٣٨)
والعمر يخلـد منه ما خلصت أيامـه من قبضـة المحـن (٣٩)

وقد أصبح الشاعر وفيا لأصحابه — الذين صدحوا على أيكة الشعر فى رحاب أبولو فى الثلاثينيات — فى شعر الرثاء وغير شعر الرثاء ، فحين خرج من أسر الوظيفة بعث إليه صديقه الشاعر عامر بحيرى قصيدة ابتدأها بهذه الأبيات :

ملأ الربى وردٌ ندىٌّ وسرى لـه عطر شـذىٌّ
ونهضتُ منتعش الفؤاد يهزنى لحنٌ شجىٌّ
فسألت : هل عاد الربيعُ أم الخريفُ له سمىٌّ
أم أن صـوت البلبلِ الغرّيدِ فاض به الندىٌّ ؟
قالوا : بلى ! قد أطلق اليوم السجين العبقرىٌّ (٤٠)

فأجابه بقصيدة عنوانها « أنا بأحبائى غنىّ » جاء فى بعض أبياتها :

ذكرتنى عهـد الشباب فـلاح نور كوكبىٌّ
وأعدت لى ذكرى أبولو وهى لى ماضٍ وضىٌّ
كانت أبولّو روضة جمع الزهور بها « زكىٌّ » (٤١)
متعهـداً نوّارهـا الحلو منـه والطلىٌّ
حتى استوت عيدانها وتماسك الغض الطرىٌّ
إنـى لأذكر وجهـه ولـه تألقـه السنىٌّ
وتشـوقنى تلك الوجـوه مضى بها ركب قصىٌّ

---

(٣٨) عاشت جمعية أبولو ثلاث سنوات ، وصدر من مجلتها خمسة وعشرون عددا ، منها احد عشر فى سنتها الأولى ، وعشرة فى سنتها الثانية ، واربعة اعداد فى سنتها الثالثة .

(٣٩) نغمات ونسمات ، المخطوط ص ٣٥ .

(٤٠) ورقات متفرقات ، المخطوط : ص ٣٨ .

(٤١) هو الشاعر الدكتور احمد زكى أبو شادى .

«ناجى» (٤٢) الفراش الزئبقى يسوقه روح" صبىّ
والتائه الملاح فى ليلاته يسرى « على » (٤٣)
وأخو النبوغ العبقرى الشاعرى «الهمشرىّ»(٤٤)
فأكفكف الدمع الهتون أنا به لهمْ سخىّ
وأرى البقية من رفاق طاب لى بهمُ الندىّ
أرجو لهم طول الحياة فهم شبابى السرمدىّ (٤٥)

*

٢ — وكثيرا ما يذكر فى مراثيه أشهر الأعمال الشعرية ، والجهود الأدبية وغير الأدبية للشخص المرثى ، ومن أمثلة ذلك :

* قوله فى قصيدته « رقدة الشاعر » التى رثى بها محمد عبد المعطى الهمشرى أحد شعراء أبولو ، الذى اخترمته المنية وهو فى عمر الزهور :

على شاطىء الأعراف يجنح زورق   تمرس فى عات من النوء عاصف(٤٦)

إشارة إلى مطولة الهمشرى الشعرية الرائعة « شاطىء الأعراف » التى كتبت له مجداً باذخاً فى أدبنا العربى الحديث •

* وقوله فى قصيدته « رقدة الملاح » التى رثى بها صديقه الشاعر على محمود طه :

يامرسل النغم العالى صدى ورؤى   ينصب فى أذن الدنيا وينساب
غنت به ضفتا الوادى ورجعه   من ألسن الشرق أشهاد وغياب

---

(٤٢) هو الطبيب الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى •
(٤٣) الشاعر على محمود طه (المهندس) •
(٤٤) الشاعر محمد عبد المعطى الهمشرى •
(٤٥) ورقات متفرقات ، المخطوط ص ٤٦ ، ٤٧ •
(٤٦) صدى ونور ودموع ص ٤٣ •

أضعت عمرك فى الأوهام تجرعها ... كأسا مزاج طلاها الشهد والصاب
ما الزهر والخمر فيها غير مائدة ... ألقى عليها ظلال الحزن مرتاب

. . . .

طوت مجاليك واغتالت مشاهدها ... كطائر الأيك قد أصماه نشاب

. . . .

الليل معتكر والمــوج صخــاب ... وزورق الحلم فى الهوجاء هياب
ملاحــه بعد طول التيه قد عقدت ... أجفانه سنة أطيافها آبــوا (٤٧)

ففى هذه المرثية إيحاءات بعيدة ، وإشارات إلى بعض أعمال على محمــود طه الشعرية الفريدة ، إذ من المعروف عن على محمود طه أنه كثيراً ما غنى فى شعره للنيل ، وضفتيه ، وروابيه ، وللمجالى وسحرهــا وطيب هوائها ، ففى قصيدته « أغنية الجندول » فى كرنفال فينيسيا يقول :

أين من عينى هاتيــك المجــالى ... يا عروس البحر يا حلم الخيــال
أين عشــاقك ســمار الليــالى ... أين من واديك يا مهــد الجمال
موكب الغيــد وعيد الكرنفال ... وسرى الجندول فى عرض القنال (٤٨)

ولم تنسه الفرحة فى غمرة الأضواء النيل وضفتيه فقال على الفور :

أين من « فارسوفيا » تلك المجالى ... يا عروس البحر يا حلم الخيــال
قلت والنشوة تسرى فى لسانى : ... هاجت الذكــرى فأين الهرمان ؟
أين وادى السحر صداح المغانى ؟ ... أين ماء النيل ؟ أين الضفتان ؟

آه لو كنت معى نختــال عبره
بشراع تسبح الأنجــم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره

---

(٤٧) نفس الديوان (المجموعة الثالثة) ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٤٨) القنال يقصد القناة ، وهى من الاستعمالات الخاطئة الشائعة على كل حــال .

حلم ليل من ليالى كليوبتره° (٤٩)

وفى « السيرانادا المصرية » يقول :

* على النيـــل ، وضـــوء القمر الوضـــاح كالطفل
جـــرى فى الضفـــة الخضراء خلف المـــاء والظل
تعـــالى مثله نلهو بلثم الـــورد والطل (٥٠)

ويقول فى قصيدته ليالى كليوبترة :

يا ضفاف النيـــل بالله ويا خضر الروابى

هل رأيتن على النهر فتى غض الإهـــــاب
أســـمر الجبهة كالخمرة فى النـــور المـــذاب
سابحاً فى زورق من صنع أحلام الشباب ؟

إن يكن مر وحيًّا من بعيد أو قريب
فصفيه وأعيـــدى وصفه فهـــو حبيبى

. . . .

يا ابنة النهر الذى غناه أرباب الخيـــالِ
وتمنت فيـــه لو تسبح ربات الجمـــالِ
موجه الشادى عشيق النور معبود الظلالِ

لم يزل يروى وتصغى للروايات الدهـــورْ
والضفاف الخضر سكرى والسنا كأس تدور (٥١)

فكل هذه الآثار الشعرية وغيرها مما ينبث فى ديوان على محمود طه أعطانا الصيرفى انطباعه الشخصى عنها فى مرثيته السابقة ، وقد أوحت إلينا بعض ألفاظه فى تلك المرثية التنبه إلى جوانب أخرى فى شخصية على محمود طه أيضا ، « فالزهر والخمر » إشارة إلى ديوانه « زهر وخمر »

---

(٤٩) ديوان على محمود طه ص ١٢١ .
(٥٠) نفس الديوان ص ١٦٠ .
(٥١) ديوان على محمود طه ص ٢٣٩ .

و « الملاح » إشـــارة كذلك إلى ديوانيه : « المـــلاح التائه » و « ليالى الملاح التائه » وكلها وغيرها مما ضمه ديوانه الموسوم باسمه الآن ، « ديوان على محمـــود طه » •

❋

❋ وقوله فى رثاء أحمد زكى أبى شادى فى قصيدة « الشـــاعر الثائر » :

كالنحل عاش ، لغـــيره ما اشتاره   مـــن شـــهده وبكأســـه أحزانُ

• •

ورفعت ألويـــة مذاهبهـــا بدت   شتى ووحَّد بينها عرفـــانُ

فى عـــالمِ الأدب الصميمِ وعالمِ الطبِّ الرحيمِ تجـــاوبٌ وأمـــانُ

فى عـــالم النحـــل الوديع ، وعـــالم الفن الرفيع تآلف وحنان

ذهن تبارك مـــن جـــلاه أمامنا   لغزاً تحار بكنهه الأذهـــان (٥٢)

إشارة إلى تبحر الدكتور أحمد زكى أبى شـــادى فى علم الطب ، وتربية النحل ، ونضيف — هنا — : تربية الدجاج أيضاً ، وفى الشعر والأدب ، والغريب أنه كان يعنى عناية خاصـــة بكل تلك المناشط الحيوية ، كما كانت له عناية بالتصوير وآثاره فى كل تلك تشهد بمقدرة علمية وأدبية وفنية ملحوظة •

❋ وقوله فى نفس القصيدة :

كانت حياتك ثورة لا ينتهى   فورانها ، أو يسكن الثوران

فى عـــالم الشعر المشيب شببتها   فنأى الشيوخ ، وآمن الشـــبان

---

(٥٢) دموع وازهار (المجموعة الثلاثية) : ص ٣٠٥ ، ٣٠٨ •

أحييت سوق عكاظ حين أقمتهـــا علماً تحج لضـــوئه الركبان (٥٣)

إشارة إلى جمعية أبولو الشعرية التى أسسها أبو شادى ، وكان أكثر روادها من الشباب ، وحاربها بعض الشيوخ ، بينما رأى فيها أمير شعراء العصر أحمـــد شوقى صورة من عكاظ ، سوق الأدب فى الجاهلية ، حيث قال فى أبياته التى استقبل بها هذه الجمعية ، ومجلتها الفنية التى أنشأها أبو شادى لخدمة الشعر الحىّ (١٩٣٢ — ١٩٣٥ م) :

أبولو مرحبـــا بك يـــا أبولو فإنك مـــن عـــكاظ الشـــعر ظلٌ
عكاظ وأنتِ للبلغاء ســـوق على جنباتها رحلوا وحـــلّوا

. . . .

عسى تأتيننـــا بمعلقـــــــاتٍ نروح على القديم بها ندلٌ (٥٤)

وقولـــه :

يا راقـــداً خلف المحيط معانقاً قيثارة لم يؤذهـــا العـــدوانُ
حاربت رأس الظلم فى جبروته فى حين صلّى خلفه البهتانُ (٥٥)

إشارة إلى رحيل أبى شادى إلى الولايات المتحدة الأمريكية مهاجراً تحت ضغوط الظلم والاستبداد فى عام (١٩٤٦ م) ، وقـــد مكث هناك حتى مات ، ودفن فى « واشنطن » (١٢ من أبريل سنة ١٩٥٥ م) بعـــد أن ضن عليه وطنه بكل شىء حتى التراب .

ويبين الصيرفى بعض أسرار تلك الهجرة ، التى وضع بها الشـــاعر نفسه فى منفاه الحر ، وذلك فى أبياته :

حـــر العقيدة لا تهاب ومؤمنـــا بالحق لا يتزعزع الإيمـــــان

---

(٥٣) نفس الديوان ص ٣٠٧ .
(٥٤) الشوقيات : جـ ٤ / ٨٦ مطبعة الاستقامة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .
(٥٥) دموع وازهار : ص ٣٠٨ .

وصببت نقـدك لا تبالى غضبة ... فى حين كان يكال الاستحسـان
يتهافتون على رضـــاه وحسبهم ... فخراً لهم أن ينعم الشيطان
سهران فى المـاخور يجرع كأسه ... ويقال : هذا الصـالح السهران
ووصفته بالكركـدن مقـــامراً ... بالعرش قوتل ذلك الحيــوان

*

لما يئست من النجاة وزمجر الـ ... ـموج الغضـوب ونودى الربان
وأحيط بالأحرار ضقت بعيشـة ... ضاقت على أنفاسها القضبان
إن قيل : أين النور داعب قيـده ... مترنمـاً بصليله الســجان
فحملت فوق المـوج قلبا خافقا ... مزجت به الآمـال والأشـجان
وحملت صبيتك الثلاثـة رادة ... لم يعلموا مـا تَخْبَأُ الشطآن
وشربت بالمنفى حياة حـرة ... مـا مسها وهن ولا خذلان
نسيتك مصر وأنت فى شيخوخـة ... يحتاج فيها الراحـةَ التعبـانُ
ضنّت عليك ـ إذا استرحت ـ بتربها ... عجباً أيحـرم تربهُ الجثمـان !
هل ينصف الأحرار شـاعر ثورة ... غنى فأصغت للصدى الآذان ؟ (٥٦)

*

٣ — وهكذا جاء شعر الرثاء عند الصيرفى أيضاً تسجيلا أميناً حياً لفصول من حياة أولئك الشعراء المرثيين ، وتبياناً لبعض كبريات الأحداث فى حياتهم ، ولبعض المواقف الإنسانية التى هزت وجـدان الكثيرين — ومن بينهم شاعرنا الصيرفى ٠

فإذا كان من المعروف عن الهمشرى أنه توفى على إثر عملية جراحية ونقل إلى بلدته حيث ورى الثرى فى المســاء ، واضطروا إلى أن يوقدوا

(٥٦) دموع وازهار (المجموعة الثلاثية) ص ٣٠٩ — ٣١١ ٠

شموعاً وهم يدفنونه ، فإن الصيرفى قد أشار إلى ذلك المشهد فى مرثيته عنه ، حين قال فى آخر بيتين فيها :

فيالك حلماً شيعوه إلى الثرى ... وغاب على ضوء من الشمع كاسف
سيخلدمنك الذكر والشعر والصدى ... تردد فى أجوائنا كل طارف

*

وفى مقدمة قصيدته « رقدة الملاح » أشار إلى أنه كان قد ضُرب بينه وبين على محمود طه موعد على اللقاء مساء يوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٩ م بعد خروجه من المستشفى ، ولكن موعده كان أسبق مع الموت ، فتلقى نعيه قبل موعد اللقاء ، وقد ترجم عن هذه الواقعة فى تلك القصيدة فقال :

(علىّ !) كان غروب الشمس موعدنا
يوم الخميس فمالى منه أرتاب ؟

أطارد الوهم عن نفسى ، وبى وجل
كما يطارد وحش الغاب هياب

حتى تلقيت هول النعى فانتثرت
خواطرى فى ظلام الحزن تجتاب

لم يُبق منعاك لى جهداً أفيك به
حق الرثاء ودمع العين منساب

ما أعجب القدر اللاهى بعالمنا
إذا تبسم أبدى الشرَّةَ النـاب

إن فرق الموت جسمينا فإن لنا
فى عالم الروح لقيا ليس ينجاب [٥٧]

---

(٥٧) دموع وازهار ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وبهذا ندرك أن الصيرفى لم يكن ليميل مطلقاً فى مراثيه إلى التقليد ، فالرثاء عنده جـديد ولكنه أصيل ، ولذا فهو مستحق للنظر ، ومسترعٍ للتأميل •

٤ — وهناك خاصة رابعة تتمثل فى حرص الصيرفى على اختيار القالب الشعرى الذى يصب فيه أفكاره فى رثائه أصدقاءه ومحبيه من الشعراء الذين جاوزوا عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، لتخرج متساوقة فى روحها مع بعض قصائد الشاعر الذى يرثيه ، سـواء فى الوزن والقافية ، أو فى الألفاظ والأساليب ، أو فى الأخيلة والصـور •

وقد يشاركه فى هذه الخاصة بعض شعراء أبولو من أمثال : على محمود طه ، وإبراهيم ناجى ، ومختار الوكيل ، وسواهم ، وذلك ناجم بطبيعة الحال عن التواصل الحميم الذى جمع بين هذه الكوكبة من الشعراء فى حمى جمعية أبولو الشعرية زمناً ، ولولا خوف الإطالة لعرضت هنا بعض النماذج ، ووازنت بينها من أجل الكشف عن ملامح التشابه الذى أعنيه ، ورغم استبعاد فكرة تلك الموازنة لا يفوتنى التنبيه على أن كل واحد من هؤلاء كان يتفرد دون سواه ببعض الملامح الخاصة فى التعبير والأداء ، والخيال والتصوير ، والصيرفى بطبيعة الحال لم يشـذ عن تلك القاعدة ، فقد تميَّز بأنغامه ، وتفرد بتجاربه الشعرية الخالصة التى جاء جلـُّها خواطر تأثرية وجدانية صادقة •

لقد رثى الشابىّ بقصيدة عنوانها « الصباح الجديد » وقد جاءت تلك المرثية صدى لقصيدة أخرى للشابى بنفس العنوان ، ولقصائد أخرى كان كتبها تفيض لوعة وحزنا ، وتشع تأملا وفكرا ، وترجم بها عن حياته المليئة بالمآسى الداميات حتى انه ليقول فى قصيدة بعنوان : « فى ظـل وادى المـوت » :

جف سحر الحياة ياقلبى الباكى   فهيا نجرب الموت هيا ! (٥٨)

يقول الصيرفى فى تلك القصيدة :

أيها المتعب الذى   حطم الناى واستراحْ
هذه غاية المنى   هذه غاية المراحْ
لوعة بعد لوعة   فرحة ثم لا تتاحْ
نغمة فى صميمها   آهة الحزن والجراحْ
عالم فى محيطه   راحة اليأس والكفاحْ
مبهم كله رؤى   تخلط الجد بالمزاحْ
جزته اليوم عابرا   ظلم الهازل الوقاحْ
كم تمنيت لو بدت   ظلمة الليل عن صباحْ
فاكشف الستر هانئا   عن أعاجيبه الصبّاحْ

. . . .

فى طريق من الأسى   وظلال من النواحْ
فوق أشلاء بعثرت   من أمانيك الرزّاحْ
وصخور كأنما   تنبت الشوك كالرماحْ
سرت تشكو وتشتكى   ألم الجهد والكفاحْ
ألم اليأس فى المنى   ألم الوخز والجراحْ
عشت تشدو لعالم   قد تلهى بكأس راحْ
الأعاصير لهوه   وأغاريده الرياحْ
كيف يصغى لشاعر   وهو جذلان بالنباحْ (٥٩)

ان هذا الشعر الرائع فى تجربته وخياله وموسيقاه يذكرنا بشعر الشابى وخاصة فى قصيدته « الصباح الجديد » التى قال فيها :

اسكنى يا جراحْ   واسكتى ياشجونْ

---

(٥٨) ديوان أبو القاسم الشابى : دار العودة — بيروت ص ٣٥٤ .
(٥٩) ديوان الشروق ص ٨٦ — ٨٨ .

مـات عهـد النـواحْ	وزمان الجنـــــونْ
وأطـــل الصـــباحْ	من وراء القـــــرونْ

* * *

فى فجـــاج الـردى	قـــد دفنـت الألـم
ونثرت الدمــــوعْ	لريــاح العـــــدم
واتخـذت الحيـــاهْ	معــــزفاً للنغـــمْ
أتغنى عليــــــــه	فى رحـاب الزمــان (٦٠)

ولن أسوق — هنا — المزيد من شعر الشابى الذى تذكرنا به مرثية الصيرفى ، ولكنى أكتفى ببعض عناوين قصائده فى الديوان ، فقـد يكون فى تلك العناوين ما يشير إلى هذا الصدى القوى الذى ملأ على شـاعرنا الصيرفى أقطار نفسه وهو يتحـدث عن صديقه الشابى ، هذا الـذى ملأ الدنيا شدواً ونواحاً ، وعزف على « ناى » شعره ألحان « المـوت » وأهازيج « الحياة » ، فمن ذلك : (فى الظـلام) (نظرة فى الحيـاة) (أنشودة الرعـد) (مأتم الحـب) (الكآبة المجهـولة) (السآمة) (أغنية الأحزان) (الدموع) (أيهـا الليل) (قالت الأيام) (المســاء الحـزين) (بقـايا الخريف) (إلى المـوت) (نشـيد الأسى) (إلى قلبى التائه) (يا موت) (صفحة من كتاب الدموع) (حديث المقبرة) (دموع الألم) وغيرها .

وبالمثل نقول فى مراثيه التى أنشأها فى رفقاء دربه الآخرين ، من أمثال : « طيف السلام » فى رثاء الدكتور ابراهيم ناجى ، و « رقـدة الملاح » فى رثاء على محمود طه (المهندس) ، و « رقدة الشـاعر » فى رثاء محمد عبد المعطى الهمشرى ، وسواها .

---

(٦٠) ديوان الشابى ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

٢ — شعر الحب والمرأة

فى « جولة » الأستاذ مصطفى السحرتى فى ديوانى « الألحان » و « الشروق » التى نشرها بالمقتطف فى فبراير من عام تسعة وأربعين وألف نقرأ قوله : « وإذا كان ديوان « الألحان » قد أطرفنا بمثل هذه الأنغام ، وأتحفنا بتجارب شعرية خالصة ، جلّها خواطر تأثرية وجدانية فإن ديوان « الشروق » يسجل نقلة شعرية مغايرة بانتقال الشاعر نقلة نفسية مشرقة .. إنه ديوان غمرت أضواؤه الظلال ، وأطل فى ثناياه وجه المرأة الجاذب ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره إشراقاً ، وأضاف إلى تجاريبه تجاريب ، ونوع انفعالاته ، وبدل قليلاً من موسيقاه ، وقاده من عالم الضباب والسحاب إلى عالم الحياة والأضواء » .

وعندى أن ألحان الألم التى أسمعنا الشاعر إياها فى ديوانه « الألحان ... » كانت تفسيراً لنفسه القلقة ، المتجهمة فى حقبة من عمره ، ولكن شعره جاءت فيه لفتات غزلية متصوفة فيما بعد ، وتغشاه نزوع وجدانى مشرق ، وتبدل نفسى عجيب ، بل إن بعض نتاجه من هذا اللون فى دواوينه الأخيرة ليؤكد أن قلب الشاعر أبداً لا يشيخ .

لم يتوقف قلب الصيرفى عن النبض بحب المرأة التى جاء هيامه بها روحاً وعذاباً ووجداً ، ولم يكن هياماً من لون رخيص يوماً ، إنه لم يهم بالمرأة جسداً ومتاعاً ولذة ، بل إن شعره فى المرأة لم يخلُ من النظر المتأمل ، والفلسفة الواعية فى أحيان كثيرة ، ففى قصيدته « خلود الشعر » — مثلا — يقول :

سيغنى الشعر لو أنا ... جهلنا خفقة القلب
فتمضى الروح فى الدنيا ... بلا وحى ولا حب [٦١]

---

(٦١) ديوان الشروق ص ٦ .

ويقــول فى قصيدته : « الفتنة » :

أشعلت فتنتها بين الــورى ومضت تبعــد فى آفاقهـــا
وعيــون القــوم ترنو نحوها ظمأ ، والنـــار فى أشـــواقها
حين غاب الحسن عن أعينهم غلب اليأس عــلى أحداقهـــا
فمضت فى أشواقهم تلذعهم لذعات النـــار فى إحراقهـــا
إنما الناس غصـــون عبثت نسمات الحسن فى أوراقها(٦٢)

وقد لفت نظر الأســـتاذ السحرتى فى ديوان « الشروق » قصيدة « النور الجديد » التى بدأها بقوله :

وصـــلت ما مـــر من عمـــرى بآتيه فرحت أكحــل عينى من مرائيــــه
مجلى من النــور لم أبلغ مطالعه أنى اتجهت ، ولم أدرك تناهيه (٦٣)

وقصيدة « النظرة الأولى » التى يقول فيها :

فى النظرة الأولى رأيت الحيــاه° تفتــح لــى بابا إلى عـــالم
تصــدق عينى اليــوم فيما تراه° أم لا تـــرى إلا رؤى حــالم ؟

❋

. . . .

فى النظـــرة الأولى جمعت البعيد° من عـــالم الحـــب وألــــوانه
فى النظـــرة الأولى سمعت النشيد° فرحت مغمــــوراً بألحـــــانه

❋

فى النظرة الأولى رأيت الشباب° يحطــم الأغـــلال عن ســاقه
ويجهــل الماضى وينسى العــذاب فيخفق الكـــــون لخفـــــاقه

❋

---

(٦٢) نفس الديوان ص ١٥ .
(٦٣) الشروق ص ١٠ .

قــد كحل النــور جفونى فلمْ · يدع لطيف النــوم فيهــا أملْ
سينكر القلب معــــانى الألــمْ · ويفهم الــكون بفــكر الثمــلْ

❋

ما أجمــل الــكون إذا شــمته · بنظــــرة المسرور ، لا المكتئبْ
ســـيرجع الصـــب الــذى كنته · وتختفى الحيرة طى الحجبْ (٦٤)

❋

وقد جاء فى تعليق السحرتى على هــذه الأبيات : « فهــذا نزوع وجدانى جديد ، وتبدل نفسانى عجيب جعــل الشاعر — من النظــرة الأولى — ينسى العذاب ، وينكر الألم ، ويودع الماضى ، ويفهم الــكون فهما جديداً ، ويرى جماله بالنظرة الأولى ، ويحس فى جمال هذه الحبيبة بدفقات النور تضىء جوانحه » (٦٥) .

وإذا كان الشاعر قد انبرى فى ديوانــه « الشروق » يصف أثر الحبيبة فيه حسيا ومعنويا بعد أن انقشع ما كان يهوم حوله من تفكير فى بداءة حبه — كما ذكــر صديقه السحرتى — فأخــذ يصف عينيها ، وشفتيها فى مشاعره فى قصيدتيه : « عينــاك » و « شفتاك » ، وأثرها المعنوى فى قصيدتيه : « الرضــا » و « تنهداتى » ، فان وصفه الأثــر الحسى للحبيبة لم يصل يوماً إلى حد الإسفاف الذى نجــده عند شعراء الغزل الصريح ، ولم يكتف بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها ، ولم يتلاعب بالألفاظ والصور حولها ، ولكنه أضاف إلى ذلك انفعالات أخرى تلابس عاطفة الحب أحيانا ، ولقد يصل تهالكه على المحبوب إلى حد العبــادة ، على عادة كبــار « الرومانتيكين » المذهبيين ، ففى قصيدته « خمــرة الفن » — التى أهداها إلى من عصر روحه ليضيف إلى خمرتها القدســية قطرة ، بعد أن عاين رسمها أو صورتها — يقول :

---

(٦٤) نفس الديوان ص ١٦ — ١٩ .
(٦٥) انظر : المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ ، المجلد ١١٤ ، ص ١٠٧ — ١١٦ .

يا خمرة الفن لو أسكرتنى لسمت روحى إلى عالم فى الحلم أشهده
ترنو إليه عيـون النـاس غافلة عمـا أقدس فيـه حين تجدده
أمام رسمك يحنى الشـعر هامته وتشرد الروح فيـه حين أنشـده
ما أعجب الصمت أحيانى وأنطقنى فهل يحرك هذا الصمت منشده ؟

*

روحية الكأس لو أسكرتنى لسمت روحى إلى عالم أصبو وأنشـده
فهـل أعلل نفسى أم أظل كمـا أحيا على ظمئى والرى أرصده ؟
للفـن ألهـب وجـدانى وأحرقه وأنت فى الفن قدس جئت أعبده
وجهت قلبى إلى أبـواب معبده فهلسيوصد دونالقلب معبده؟(٦٦)

ومن أجل الحبيبة التى تلهمه تلك الأهازيج لا يخشى نوازل الحياة وخطوبها ، حتى الموت يعلن لنا فى قصيدته « الرحيل » التى كتبها وكان مريضاً ، أنه لم يعد يخشاه ، بل يهـواه ، لكن فوق صدر الحبيب :

أنا لا أخاف الموت ، بل أهواه .. لكن فـوق صدرِكْ
تستودعين يدىَّ آخـر ما تمسُّ خيـوط شـعرِكْ
وأبثـك الدنيـا ، وقـد أودعتهـا فى لثم ثغـرِكْ
ويرفّ من فوقى جـلالُ المـوت مأخـوذاً بسحرِكْ
وأرى طـريق الكَّلا نهـاية قـد تجـلَّى مثـل طهرِكْ
مسـتقبلاتى فيـه آلهـةُ الفنـون عَنَتْ لأمـرِكْ
ينشـدن ما ألهمتنيه فـلا أحسُّ بجـرح هجـرِكْ
سـيمر بى ليـلى فنـاجى من سيمضى قبـل فجرِكْ
لم تفسـح الدنيـا له حتى يضـم جمـوع زهـرِكْ
أو تبطىء الدنيـا بـه حتى يشـم فـواح عطـرِكْ
فاستودعينى اللـه لا تبـكى عـلى فقـدان طـيرِكْ
أنا لا أهاب الموت بل أهواه .. لكن فوق صدرِكْ (٦٧)

---

(٦٦) الشروق ص ٣١ .
(٦٧) الشروق ص ٣٢ ، ٣٣ .

وهكذا فاض الصيرفى بتلك المعانى الراقية التى استخرجها من أعمق أغوار نفسه ، وصبها فى هذا القالب الشعرى الرصين ، وقد جاءت تلك المعانى أثراً من نفسه وعقله معا ، فنفسه نفس شاعر واسعة الآفاق ، ممدودة الرحاب ، وعقله عقل حر ، لم يقف حائلاً بينه وبين تلك المعانى السامية ، ولم يدفعه إلى تكلف معنى من المعانى التى كثيراً ما تقحم فى الشعر بغير داع .

وللصيرفى فى موضوع الحب والمرأة شعر كثير ، ففى ديوانه « الشروق » — فوق ما أشرت إليه = « ساعة اللقاء » « رسالة الأزهار » « اجعلينى حلماً » « كوكب الطهر » « تنهداتى » « يا قلب » وسواها .

وفى ديوانه : « رجع الصدى » : « سحر صوت » « الحلم الحالم » « دمعة الحسناء » « قلبى » « لاعبة الورق » « ساقان » « رسالة » « الموجة الراقصة » « إسراء » ، وغيرها .

وفى ديوانه « حول النور » : « أتمنى » « كعبة الحسن » « بوحى أو لا تبوحى » « ردى خيالك » «فى طريقك » « الهاربة » « الفتنة النائمة » « مثال وتمثال » « شرود » وسواها .

وفى ديوانه « صلواتى أنا » : « أهداب » « صراع » وسواهما .

وفى ديوانه « نوافذ الضياء » : « زهرة التيوليب » « نوافذ الضياء » « سلاسل النضار » « قيثارة الشعر » « الضوء والفراشة » « عتاب » « عيناها » « ابتهالة » « نافذة الحسناء » وغيرها .

وفى ديوانه « النبع » : « النبع » « قلتها » « أنا من غناك » « البعث » « الحنان » « حلم اليقظة » « أنت كلهن » « ذهبُ الشَّعر وفيروز الحدق » وسواها .

وفى ديوانه « ورقات متفرقات » : « لعله » « عاشق الجمال » « يا مسكرى » « ذهب الليل » وغيرها .

وفى ديوانه « نغمات ونسمات » : « يا وحى شعرى أين أنت ؟ » « عيون القيروان » « عينان من تونس » « مرسلة الشعر » .

وفى ديوانه « همسة العطر للنسم » : « الرسائل المنقطعة » « كان لنا ما كان » « الوعود المدلّلة » « شفاء الوحى » « الانتظار » .

*

وإذا كنت قد أشرت منذ قليل إلى طبيعة شعر الحب والمرأة لدى شاعرنا الصيرفى فقد بقى فى النفس أشياء وقرت فيها مذ طوّفت بهذا اللون من شعره ، أذكرها محاولاً الإيجاز قدر المستطاع .

وأول الأمور التى أشير إليها هنا أن الاتجاه نحو الحب والمرأة فى الشعر كان من الموضوعات البارزة لدى شعراء مدرسة أبولو ، وقد وصل اهتمامهم بهذا الموضوع إلى حد الوقوف طويلاً أمام بعض اللوحات الفنية التى تتخذ من أجساد النساء موضوعاً لها ، وترجمة ما فيها من أسرار الجمال ، وآيات الفن والعبقرية .

والواقع أن هذا الاتجاه لم يسلم من النقد ، فلقد أشار الأديب الحلبى المرتينى فى نقده ديوان « الينبوع » لأبى شادى إلى أن ما يعنى به هذا الشاعر من جمال المرأة يعدّ أدباً منحطا ، وكان أبو شادى متلفتاً إلى صور النساء العاريات ، وأفرد للحديث عن بعض اللوحات التى تحمل بعض تلك الصور قصائد كاملة ، أودعها عواطفه ومشاعره وأحاسيسه الفنية الصادقة نحو هذا اللون من الفن ، بكل ما يكتنفه من سحر وفتون .

كما كتب محمد سعيد ابراهيم مقالاً بعنوان (الأدب المعرّى) نعى فيه على أبى شادى ولعه بتصوير جسد المرأة المكشوف ، ومما جاء فى ذلك قوله : « تعال وانظر أيها القارىء أجساد هذه النساء العارية اندست صورها فى تضاعيف دواوينه ، ودعك من القول بأن تأمل جسد المرأة .. ضرب من ضروب عبادة الجمال الفنى .. » إلى أن قال : « فلئن كان أبو شادى قد عصمه الله من الفتنة فلم تقع هذه الصور من نفسه

موقعـاً يوقظ فيـه دنيا الغرائز فلست أيهـا القارىء — وأنا مثلك — إلا بشراً ، لا حول لنا ولا قوة أمام مثل هذه المفاتن ، وخير لى ولك أن ننأى عن مصادرها من أن يقذف بنا فى نار المحنة ، ويقال لنا لا تكتووا بنـارها .

فهلا رفق الدكتور أبو شادى بقرائه ، وباعد بينهم وبين أسـباب الريبة ، ولاءم بين مخبره الطاهر وبيانه العفيف ، وبين أسلوبه فى إظهار الجمـال » (٦٨) .

وقد رد أبو شادى على ذلك ، ودعم ردّه بأمور منهـا :

١ — شتان بين الأدب المكشوف الغاشم البعيد عن التهذيب والصقل فى كل مظاهره وبين هذا اللون من الشعر .

٢ — كان الجمال الإنسانى وما يزال موضوع عناية المتفننين منـذ قرون سواء تناول الفن جسم المرأة أو جسم الرجـل نحتاً وتصـويرا وشعرا ، ولكل متفنن أن يختار ما يرضيه فالجسم الإنسانى عنده يـكاد يكون ذاتية معنوية لا غير ، وأن الشعر يجب أن يستمد من لب الحيـاة : من شخصية الشاعر ، ومن الطبيعة ، وللمرأة مكانتها السامية فى الطبيعة ، وحينئذ ينبض الشعر بالحياة ، ويشرق بنورها ، ولا معنى لقبـول فن المرأة من الرسـام والنحات ، وإنكار استيحائه على الشاعر إلا أن يكون ذلك مجرد متابعة وتقليـد .

٣ — ليس مما يعيب أن يتسامى المتفنن بالغريزة ، وليس من العيب تقديس المرأة كيانا وروحاً ومعنى ، بل العيب إغفـال حقائق الحيـاة السامية ، فان هذا الإغفـال يؤدى إلى ضـلال النفوس ، وإلى الرذيلة المستورة ، ولم يعرف (أبو شادى) هو وأتباع مدرسته أجساد نسـاء عارية ولكنهم عرفوا معانى رمزية لتلك الجسوم الجميلة .

---

(٦٨) مجلة ابولو ، ٢ ، ٩ ، ١٩٣٤ ، ص ٧٥٩ .

٤ — إعزاز الجمال الجسدى فى اعتدال الفطرة السليمة هو ما دعا إليه هـؤلاء الشعراء ، ومنهـم الصيرفى بطبيعة الحـال — إلى جانب إعزاز الروح الجميلة [٦٩] .

وفى كتاب « قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع » لأبى شادى ، الذى كتبه فى شبابه الباكر يقول : « يستنكر علينا تناول جمال المـرأة وعواطفها وعلاقاتها الطبيعية بالرجـل بشىء من التحليل ، سـواء أكان نفسانيا أم أدبيا أم علميا ، الحق أن إقامة سد هائل بين الرجـل والمرأة فى الشرق العربى قـد أدى إلى شر ألوان الشذوذ الخلقى (كما نـرى أدب الشذوذ فى كتاب الأغانى) .

إن المرأة رمز الفنون الجميلة ، ويجب علينا أن ندرسها على هـذا الاعتبار ، وصراحة الأدب الواقعى إزاءها ليست بالمعيبة ، وإنما الـذى يعاب أن ننكر الحق النقى الذى رسمته ريشة الطبيعة ، ونلجأ إلى عكسه فنقتل بذلك الرجولة ونفسد المجتمع » [٧٠] .

والذى أراه أن أبا شادى لم تـكن له أهـداف مشبوهة من هـذا الضرب الشعرى تهدر كرامة الأخلاق الفاضلة ، أو تزرى بها ، أو تغض من شأنها ، ولكنه وهو المفتن البارع أراد أن يستوحى الجمـال البادى فى أجساد النساء قصائد شعرية رائعة ، كما يستوحيها المفتنّون لوحـات فنية مصورة تنطق بأبهة الجمـال ، وتترجم عن أسـمى آيات اللـه فى الكون ، والتى تقف المرأة بجمالها الطاغى — فى نظرهم — على رأسـها بكل ما فى هذا الجمال من آيات الفتون والسحر [٧١] .

---

(٦٩) انظر : أبولو ، ٢ ، ٩ ، ١٩٣٤ م .
(٧٠) قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع حـ ١١٢/٢ .
(٧١) انظر : نقد شعر التصوير ، بكتابى : مدرسة ابولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث ، ط دار المعارف بمصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ١٩٨٢ ص ٣٧ — ٤١ .

ومما تجدر الإشارة إليه — هنا — أن الأستاذ الصيرفى كان قد تحدث عن المرأة فى شعر أبى شادى ، وساق نماذج من شعره تغنى فيها بالمرأة روحاً وعذاباً ووجداً ، وأخرى تغنى بها فيها لذةً ومتاعاً وجسداً ثم قال : « ها أنت أيها القارىء قد رأيت صورتين متباينتين : صورة صوفية متجردة ، تعيد إلى ذهنك أناشيد « تاجور » فى كتابه « جيتنجالى » ، وصورة مشتعلة بعاطفة جنسية تنطلق من سجنها وتعيد إلى ذهنك مقطوعات « بيير » فى كتابه « أفروديت » وأغانى « بيليتس » .

ثم حدد مفهوم الأشعار الماجنة : بأنها تلك الأشعار التى لا يمكن لإنسان أن يقرأها — إذا تسامح — إلا بينه وبين نفسه ، ونماذجها منبثة فى دواوين الشعراء السابقين فى الجاهلية عند امرىء القيس والنابغة خاصة ، وفى العصر العباسى عند أبى نواس ، أما هذه الصور التى يكتبها أبو شادى وأضرابه من شعراء مدرسته فى تلك الناحية فليس على أى إنسان غضاضة فى أن يقرأها بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس .

ولا يرى الصيرفى فارقا بين الصور الصوفية التى تتحدث عن الجنس حديثا مغلفا بروح التفكير والتأمل ، وبين الصور الجنسية الواضحة ، لأن الشاعر لم يعرض علينا الصورة إلا فنا عرف كيف يتقن عرضها ، كما يعرض علينا الرسام والمثال صورة أو تمثالا لامرأة عارية ، وأى إنسان يشعر برغبة جنسية ملتهبة عندما يقف أمام تمثال « الزهرة » ؟ أى إنسان ذلك الذى لا تفنى رغائبه أمام جلال الفن وسحره ؟ [٧٢] .

والذى يراه علماء الجمال أن فى جميع طبقات الفن أعمالا صحيحة تحمل جمالا حقاً ، لكنها فى نفس الوقت تثير ثملاً جنسيا ، ولا يعنى هذا أنها دنسة ، لأنها على أية حال لا تبعث فينا تلك الاستقلالية الذاتية

---

(٧٢) انظر دراسة الصيرفى كاملة بديوان ابى شادى « اطياف الربيع » ابتداء من ص ١٦٠ .

التى تتصف بها الجنسية ذات اللذة « القبيحة » دون أن نصفها بأنها « طاهرة » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وتشوب هذه الأعمال جاذبية خطيرة من الناحية الجنسية ، لأنها تستطيع أن تمارس إغراءً شديداً ، فإذا وجد الرجل النقى الطاهر إزاء أعمال من هذا النوع كان عليه أن يتخذ هذا الموقف أو ذاك ، تبعاً لأنه قد فتح نفسه ، أو لم يفتحها فى مجال الفن ، فهو إما ألا يرى فى هذا إلا جمالاً فنيا دون أن يحركه شىء آخر ، .. وإما أن يشعر وهو أمامها بشهيق اللذة الجنسية حاراً كخطر يهدده ، وفى هذه اللحظة طبعاً يعمل على تجنب الاتصال بمثل هذه الأعمال قدر الإمكان مادام ما تحويه من نواحٍ فنية يختلط بالإغراء الجنسى (٧٣) .

ونعود إلى شعر الحب والمرأة عند الصيرفى من جديد لنقرر أنه لم يتردَّ فيما تردَّى فيه غيره من شعراء اللذة الحسية فى حديثهم عن المرأة ، صحيح أنه كثيراً ما تحدث عن أثر الحبيبة فيه حسيا ومعنويا فأخذ يصف أثر عينيها وشفتيها فى مشاعره ، ولكنه كثيراً ما تتنوع انفعالاته فلا يكتفى بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها ، ولكنه يضيف إلى ذلك انفعالات أخرى تلابس عاطفة الحب أحيانا .

استمع إليه يقول فى قصيدته « عيناك » :

عيناك حولتا حياتى جدولاً	تهفو إليه حمائم الوديانِ
تتمايل الأزهار عند ضفافه	متجددات العطر والألوانِ
وتمر بى النسمات تلثم صفحتى	فى مثل همس الوحى فى الوجدانِ
تحنو علىّ الناشرات غصونها	فأقبل الأغصان وهى دوانِ
عيناك حولتا حياتى جدولاً	يجرى مع الأيام دون توانِ

---

(٧٣) انظر : بحث فى علم الجمال ، لـ « برتليمى » ترجمة د . أنور عبد العزيز ١٩٧٠ ، مطبعة نهضة مصر ص ٤٩٧ .

أشـــدو وأســـجع والحمائم هتف تتناقـــل المنظـــوم من ألحـــانى
صـــور الوجود جعلتها لى لوحة فإليك ترجـــع تحفة الفنان (٧٤)

ومثلها قصيدته « شفتاك » التى مزجها بروح تصوفية عالية ، حيث يقول فى بعض أبياتهـــا :

شـــفتاك قيثـــار الخلود فرددى لحـــن الخلود ، وجددى أوزانى
إنى خلصت من الشجون برحمة ألهمتهـــا فى ســـاعة الأيمـــان
طالت عـــلىّ ضلالتى وتحـــيرى فى عالم تحـــلو له أحزانى (٧٥)

ويصر الشـــاعر على الاستمساك بهـــذه الروح ، ويقوده ذلك إلى الإكثار من التأمل ، وإنعام الفكر والنظـــر فى بعض الأسرار الخبيئة فى دنيا المرأة ، وفى الكون الكبير من بعد ، ففى قصيدته « تنهداتى » يقول :

لا تحسبى زفراتى الحرّى شجونا لم تـــولّ
فهى التحرق فى هواك وإن حييت بخير ظـــلّ
وهى التأمل فى هـــواك وحيرتى ما بين جهلى
وهى التجرد فى عناقك ، والتنعم ، والتملّى
وهى اختلاف الوحى فى نفسى بآيات التجلى (٧٦)

وفى قصيدته « ساقان » التى أهداها « إلى صاحبة الساقين الفاتنتين اللتين أوحى (إليه) وقع خطاهما موسيقى هذه القصيدة » يقول :

همـــا فتنتان ، هما روعتان
همـــا موجتان ، همـــا آيتان
لقـــد جمع الله لون الجمان

---

(٧٤) الشروق ص ٤١ .
(٧٥) نفس الديوان ص ٤٢ .
(٧٦) الشروق ص ٥٠ .

وأشربـــه برحيـــق الدنـــان
وقال : اهبطى فتنة للعيـــان
إذا اجتمعت حسنات الغوانى
فساقاك أجمل ما فى الحسان [٧٧]

ويقول فى قصيدته « إسراء » :

أحقـــا كـــان مـــا أمّلت ُ — حـــين ضممت أم حلمًا ؟
أحقـــا كان بـــين يـــدىّ — حـــين شعرت أم وهمًا ؟
ضممت العمـــر والآمـــا — لَ حـــين غمرتهـــا ضـَمـّا
وقبـلت الربيـــع السرْ — حَ من أثوابهـــا نمـّا
وذقت الخـــلد من شفتيْ — ين ما أحلاهمـــا طعمـــا
أكانـــت لحظـــة مـــن لحظـــات الخـلد ، أم أســـمى ؟
وكانـــت نقـــلة بالـــرو — ح ، أم بالجسم ، أم بهما ؟
رأيـــت بهـــا جنـــان اللـــه قـــد حلـّـين لـــى رسمـــا
نعمـــت بهـــن لو دامـــت — لفـــان هـــذه النعمى [٧٨]

ومن أجل هذا التأمل الذى غلب على الصيرفى ، سواء فى هذا اللون من الشعر ، أو غيره رأينـــا الأســـتاذ السحرتى يقـــول فى دراســـته عن « الألحان » و « الشروق » : « والملحوظ •• جنوح الشاعر — غالباً — إلى التجريد فى المعانى ، وميله إلى الإبهام فى أحيان ، كما نلحظ ذلك فى قصيدته البديعة « المعنى المبهم» [٧٩] ، وفى مطولته المهموسة « وحـــدة العمـــر » [٨٠] كثير من التأملات والمعانى الغامضة » [٨١] .

*

(٧٧) صدى ونور ودموع ص ٨٦ .
(٧٨) نفس المصـــدر ص ٩١ .
(٧٩) الشروق ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٨٠) الشروق ص ٦١ — ٦٧ .
(٨١) انظر : المقتطف ، عدد شهر فبراير ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، ص ١٠٧ — ١١٦ .

ومما وقر فى نفسى كذلك بعد أن طوفت بهذا اللون فى شعر الصيرفى أن الشاعر قد أصبح فى مرحلته الأخيرة نهباً مقسماً بين ممارسة هذا اللون والعزوف عنه ، بين الاستجابة لدواعى الصبابة والهوى والخضوع لوقار الكبر وهيبة المشيب ، استمع إليه يقول وهو فى غمرة هذا « الصراع » :

إن كنت تعبث يا هوى ، فاعبث بغيرى
إن كان غرّك صبوتى فانظر لشَعْرِى
ودّعت فجر صبابتى ، ونسيت فجرى
لما تباعد بى عن الأحلام سيرى
نحيت كأسى زاهداً ، وسكبت خمرى

ولكن •• أنَّى يودع فجر صبابته ، وينحِّى كأسه ، وينسى فجره ، وقلبه غارق فى فيض السحر ، لم يخطَّ الشيب فيه « حتى ظل سطر » — كما قال ؟:

لكن قلبى غارق فى فيض سحر
ما خط فيه الشيْبُ حتى ظِل سطر
يصبيه مشرع ناظر وخيوط شَعْرْ
وتذيبه اللفتات من جيدٍ ونحرِ
ويرى طريق النور فى بسمات ثغر
وتهزه الأنسام خاطرة بعطرِ
هو كالفراشة حائم ما فوق جمر
متوثب لهلاكه فى كل شبر

*

عجباً لأمرك يا هوى •• عجبا لأمرى !
أتلح أنت ، ولا أجيب ؟ وأنت تغرى
لك ما تشاء ، ولى على الإذعان خسرى

قدّر يســـيرنا عــلى قهـــر وقســـر
فى مســـلك كالأفــق يبعـــد حيــث نسرى
لا أنت تــدرى ما مــداه ، ولســت أدرى
أنــا فى اضطراب دائــم وصــراع فــكر
ضــدان مصطرعان يقتســمان صـــدرى
حـــيران بينهمـــا كمــا فى التيــه أسرى
إيمـــان نفسى واقـــع فى أسر كفـــر
وأمـــان قلبى ضـــائع فى وهــم غــدر
وكأننـــى أنــا زورق فى لـــج بحــــر
الموج يدفعنى إلى الشـــطآن فى خبث ومكر

*

ويختم قصيدته بهذه الأبيات التى يعلن فيها عزوفــه عن الصبابة والهوى ، بعد أن لم يبق له فى روضه وزهور عمره إلا بقــايا العطر فى منسى زهــره :

فالمــم شــباكك يا هــوى لا ترج أســرى
لم يبــق لـــى من روضتى وزهــور عمــرى
إلا بقــايا العطــر فى منسىّ زهــرى (٨٢)

*

ولكنه لم يستطع الفكاك من أسر الصبابة والهــوى ، بل جــذبه سحرهما إليه من جــديد ، وجاءت قصيدته « أهداب » عقب قصــيدته السابقة : « صراع » لوناً من التحدى لخواطره التى أرادت له الانصياع لوقار الكبر وهيبة المشــيب .

---

(٨٢) صلواتى انا ص ١٧ — ١٩ .

ويتابع الصيرفى السير فى أبهاء السحر ، وأودية الجمـال ، ويروح يصدح بأغانى الحب من جديد ، فيكتب « زهرة التيوليب » من وحـى « المينى جيب » (٨٣) بعد أول لقاء مع صاحبة هذا الثوب (فى السـابع من يناير سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف) وهى التى ألهمته ديـوانه « نوافذ الضياء » — كما قال .

كما يكتب « نوافذ الضياء » (٨٤) من وحى الجورب الشبكى و « سلاسل النضار » (٨٥) من وحى الشعر الذهبى .

بل إنه يأبى إلا أن يسيل عذوبة ورقة حين أظهر للمحبوب الرغبة فى أن يسمعه ما كتبه فيه من شعر ، وحين ألح على رغبته ، وأصر عـلى أن يراه وهو يـُروى من فمه ، ليسمعه أغنية من نغمه الحبيب .

ويبدو أن هذه الرغبـة كانت مترسخة فى نفسـه ، ففى قصـيدته « ساعة اللقاء » بديوانه « الشروق » قال :

عشت أشدو — لِتَسْمعينى — شعراً وأنا — اليوم — مشته لغنائك (٨٦)

أجل .. إنها ترسخت فى هذه النفس طويلا ، فبعد عقـدين من الزمان تلح عليه تلك الفكرة من جديد فيكتب قصيدته « قيثارة الشعر » التى قال فيها مخاطباً حبيبته :

أريد أن أسمع شعرى وهو يـُروى من فمكْ
أريـده مسـطَّراً ، مطـرزاً بقلمـكْ
كأننى اسـتوحيته فى رقـة من كلمـكْ
أسـمعه موقعـا أغنيـة من نغمـكْ

*

---

(٨٣) نوافذ الضياء ص ٩ — ١٢ .
(٨٤) نوافذ الضياء ص ٢٣ — ٢٥ .
(٨٥) نفس الديوان ص ١٣ — ٢٢ .
(٨٦) الشروق ص ٣٠ .

أريــد أن أسمعه مرتــلاً برقتــك
كأنـــه إشــراقة مطلة من بســمتك
كأنــه فى فرحــة مستلهم من ضحكتك
كأنــه فى حــزنه مطهــر بدمعتــك

❋

أريـــد أن أسمعه همس النسيم للزهَر
أريــد أن أســمعه وحى الفؤاد للوتَر
أريــد أن أســمعه خفق النجوم فى السَّحَر
أســمعه فأرتقى إلــى العوالم الأُخَر (٨٧)

❋

ومما وقر فى نفسى أيضاً بعد أن طوفت بشعر الحب والمرأة عنــد الصيرفى أن هذا اللــون من الشعر جــاء نتيجة الحيــاة القاسية التى انغمس حمأتها فى بواكير الصبا وتباشير الشباب ، وراح يذوق صــابها وعلقمها من بعد ، والتى زاد المرض من قساوتها فى مرحلته الأخــيرة ، الأمر الذى دفعه إلى الفرار إلى شعر الحب والمرأة فى كل مراحــل عمره المــديد .

لقد راح يطفىء بهذا الشــعر جمــرة طالما توقدت بين جوانحه ، ويذهب به صدى روحه المعذبة ، ويتخــذ منه غذاء يعوضه عن ظــلم الدهر له ، وتحامله عليــه .

لقد ظل الإحساس باليأس يطارده فى سنى عمره مطاردة جعلتــه يحيا بأعصاب مشدودة ، دون أن يجــد بلسماً لروحه المتجهمة القلقــة إلا الشعر ، يستودعه كل أحاسيس القهر ، ويقبر فيه شجنه وأساه .

---

(٨٧) نوافذ الضياء ص ٣١ ، ٣٢ .

جلس الشاعر ذات يـوم فى أواخـر الستينيّات فى أحـد ملاهى الإسكندرية وقد لف المكان كلّه أنغام لحـن إغريقى جميل ، ولـكن هذه اللحظـات الآنسات لم تنسه شجنه ويأسـه فيكتب على أنغـام هذا اللحن قصيدته « إملأ يا ساقى » ، وفيها يقول :

امـلأ لـى كأسى   امـلأ يا سـاقى
فالنـائى النـاسى   يـورى أشـواقى

امـلأ لـى كأسى
اهربْ من حسّى

*

الكأس وعمـرى   إن جفـا جفـتْ
أنهـار الشـعر   فى القـلب ورفتْ

آلام النفـسِ
فى غمـرة يأسِ

*

البحـر الثـائرْ   والمـوج الهـادرْ
والليـل الغـامرْ   قالت للشـاعرْ :

أغرق فى الكأسِ
أحـلام الأمسِ

*

إن الليل الهادىء البهيج ، ونجوم الثغر المتلألئة البراقة ، والنغم الشجى ، وضجيج البحر ، كل تلك المرائى العِذاب لم تملأ رأس شاعرنا إلا باليأس ألم أقل لك إن اليأس قد أمعن فى مطاردته كل هاتيك السنين ، لقد فرض نفسه عليه حتى فى تلك اللحظة الهنيئة التى أخلد فيهـا إلى الراحة فى ظل النغم والكأس :

الليـل الســاجى ونجـوم الثغـر
والنغـم الشاجى وضجيج البحـر

لم تمـلأ رأسى
إلا باليـــأس

*

فاملأ لــى كأسى امـلأ يا ســاقى
واذكـــر للناسى بعض الأشـواق

امـــلأ لى كأسى
اهرب من نفسى

املأ يا ســـاقى امـلأ لــى كأسى
بالنــزر البــاقى تمـلأ إحســاسى

بغــروب الشمس
فى هذى الكأس(٨٨)

وناهيك عما فى هذه الأبيات من روعة الإيقاع ، وجمال التكرار فى قوله : « املأ لى كأسى » « املأ يا ساقى » التى تشعر برغبته الأكيــدة فى الهــرب من كل ما يعكر عليــه صــفو الحيــاة ، بل فى الهــرب من نفســه هو .

*

إذا كان الشعر مرآة صادقة تنعكس عليهــا نفس الشــاعر وبيئته وعصره فإن شعر الغزل فى العصر الحــديث قد اكتسب كثيراً من الميزات والسمات الحضارية التى نبعت من ثقافة العصر ، وألقت عليــه البيئة الحاضرة ظلالاً من رقة المعانى ، وعذوبة الألفــاظ وسهولتها ، ودفعت الشعراء وبخاصة شعراء أبولو — والصيرفى واحد منهم — إلى التغنى بجمال المرأة العصرية وسحرها وفتنتها طبقا لمقاييس الجمال العصرية ،

(٨٨) النبع ص ٦١ — ٦٣ .

ولقد أفردوا قصائد كاملة للحـــديث عن « الســـاقين » و و « الشفتين » و « العينين » حتى « الأهداب » يفرد لها الصيرفى قصيدة كامله [٨٩] وكذلك « الابتسامة » [٩٠] وقد استقصى شاعرنا فى تلك الأشعار جــلَّ المعانى الخافيـــة التى استوحاها من تلك الأجـــزاء الناطقة بالفتنـــة ، والمترجمة عن مكامن الحسن فى المرأة ، وذلك ما لا نكاد نعثر عليـــه فى الشعر القـــديم .

ولن أستقصى هنا كل الأشـــعار التى تفصح عن تغلغل الـــروح الحضارية فى شعر الحب والمرأة عند الصيرفى ، ولكنى أكتفى هنا بسوق أبياته التى كتبها تحت عنوان « ثوبها والربيع » ، والتى أهداها إلى ذات الثوب الموشى بكل ألوان الزهر تزهو به فى (منتداه) .. يغبطها عليـــه الربيع ، وتغار منها الرياض ، وفيها يقول :

لـــا ازدهى هـــذا الربيـــع عـــلى الرياض أو ازدهاها
ومشى يخـــايل بالـــرداء الحـــلو متشـــحاً ، وتاهـــا
قالت لـــه النجمـــات ســـاخرة تلألأ فى ســـماها :
ارجع إلى الحســـناء فى ســـتر الظلام إذا احتـــواها
وتســـلَّقنْ أســـوارها ، وتســـلَّلَنَّ إلـــى حمـــاها
حيث اســـتراحت مقلتـــاها ، وهى تحرســـها رؤاهـــا
واترك لهـــا هـــذا الـــرداء مـــكان ما وضعت يداهـــا
وانقـــل نقوش الثوب عنـــه — إذا أردت — به تَبَاهَى
هذى الزهـــور المونقـــات الخافقـــات عـــلى ســـداها
آمالهـــا المتفتحـــات لـــكل قَطْـــر من نداهـــا
فاترك لهـــا ما أنـــت سالبه ، ورد لهـــا مناهـــا
وإذا تســـاءلت الرياض فقـــل لها : هـــذا رِدَاهـــا

---

(٨٩) صلواتى أنا ص ٢٠ — ٢٢ .
(٩٠) النبع ص ٦٩ ، ٧٠ .

حـاك الشـباب لهـا الـرداء فليس يلبسـه سـواها
وإذا أردت العطـر تسرق نَفْحهُ ، فاتبع خطـاها

*

ومشى الربيـع يجـوس فى الظلماء يضرب فى دجـاها
متخفف الخطـوات يحسـب كل بارقـة سـناها
متهيبـاً مـن أن تحس بـه ، وتنظـرَ مقلتـاها
متأمـلا فى حسـنها ، متسـائلاً : هى من تُراها ؟
متشـككاً فى حـيرة بلغـت بـه أقصى مداهـا
أأنـا الربيـع أم الربيـع أراه فيهـا لاعـداها
يضـع الرداء مكانه ويعـود يحسـد من رآها [٩١] ، .. الخ

وهكذا يأبى الصيرفى أن يشـذ فى مثل هذا اللون من الشعر عمـا عهدناه فيه من تغليفه هذا اللون بروح تصوفية عذبة ، صحيح أنه عاش مشدوداً إلى مكامن الجمال فى المرأة ، ولكنه لم ينقدْ يوماً للفتنة اللاهبة المنبعثة عنها ، ففى تقديمه قصيدته الموسـومة « فتنة » يقول :

« إليك عنى أيتها الفتنة التى تتلوى حية تلدغ ، والتى ترقص ناراً تلذع ، إليك عنى قبل أن تطغى الظلمة على ضوء المصباح الذى أوقدته ، وتريد أنفاس ريح عابثة أن تطفئه ، إليك عنى ، فلن يستطيع الشيطان الجاثم فى ما خور جسدٍ مخمـور أن يقهـر الملك القابع فى محـراب روح وادع » :

بالله يا حـواءْ لا تخـرجى آدمْ
من عـدنه الهـانى
فالسحر والاغراءْ قد دفعـا العالمْ
فى كف شيطان [٩٢]

---

(٩١) نوافذ الضياء ص ٥٩ — ٦١ .
(٩٢) صدى ونور ودموع ص ١٠٧ .

وحواء — هنا — رمز لـ « المرأة » التى تقهـر الرجال ، وتفتنهم بمكامن الفتنة والجمـال الجسدى فيها .

❋

وهـكذا عاش الصيرفى شـارعاً قلمه من أجـل الجمـال ، يحوطه ويرعاه ، لأنه يدرك أن الشاعر الحق لا يعرف القيد ، وأنـه حـرّ الخيال .

فى مارس من عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف يلتقى شـاعرنا بمن أسـماها « شـادية » صاحبة العينين اللتـين تشعان بكل سـحر « تونس » وجمالها ، فكتب قصيدته « عينان من تونس » ذكرى لقـاء عابر فى مدينة « توزر » بالجنـوب الغـربى من الجمهورية التونسية ، وكانت هذه الفتاة التونسية قد نزلت بالفنـدق الذى نزل به ، وطلبت الاستماع إلى شىء من شعره ، ثم حضرت ندوة فى المساء ندوة أقيمت فى « نادى الشابىّ » طالبة أن تسمع جديداً ، فكانت هذه القصيدة التى أنشدها فى النـدوة ، وفيها يقول :

من أجـل عينيك شرعت القـلم
ورحت أسـتوحى جميـل النغم
فهل لهذا اللحـن من شـاديهْ
تنشـده للنسـمة الساريهْ ؟
فرجعيـه أنت يا « شاديهْ » !

❋

الشـاعر الفنـان حـر الخيالْ
لا يعرف القيـد فهـذا محـالْ
الشاعر الفنـان راعى الجمـالْ
إن ضل فيـه كان هذا الضلالْ
هدى الهـوى للأنفس الصاديهْ

لـكل لحــن يـرْتجى الشاديه°
فرجعيـــه أنــت ياشـــاديه°

*

عينـــان من « تونس » فياضتان°
بالوحى•• بالنور•• بسحر الجنان°
فجـددى للقـلب أشـــعاره°
ورجعيــه أنــت يا شـــاديه°
فأنت •• أنت الوحى والراويه ° (٩٣)

وإذا كانت النزعة الرومانتيكية قـد غلبت على الصيرفى فى هـذا اللون من الشعر ، وإن مازجتـه بذور قليلة من بذور الواقعية ، وإن جاء تعبيراً لمزاجه فى حالى الاكتئاب والإشراق — فقد أخذ عليه الســحرتى فى دراســته عن ديوانى « الألحان • • » و « الشروق » هذه النزعة الرومانتيكية الغالبة ، وأمَّل فى أن يودع تلك النزعة ، ويهبط إلى دنيــا الناس ناظراً إلى المجتمع الذى يعــج بالآلام والمآسى والمظالم ، وأن يذكر دائما قوله فى قصيدته « وحدتى » :

شـــقاء النـــاس يؤلمنـــى فأســـعدهم بأشـــعارى
ونار النـــاس تحـــرقنى ولا تحـــرقهم نـــارى (٩٤)

*

وأختتم الحديث عن شعر الحب والمــرأة لدى الصيرفى بمــا ذكره الدكتور عبد العزيز عتيق فى دراسته عن ديوان « الألحـــان • • » قال : « ومما يلفت النظر فى الديوان بوجه خاص قلة الغزل فيه ، فشــاعرنا الصيرفى شـــاب (٩٥) ، وهذا أول دواوينه ظهورا ، فكان طبيعيا أن ترى فيـــه أثراً واضحاً للشعر العاطفى ، لأن المرحلة التى قيلت فيهــا هذه

---

(٩٣) نغمات ونسمات المخطوط ص ٢٦ — ٢٨ .
(٩٤) الألحان الضائعة ص ٨٦ .
(٩٥) كان ذلك فى عام ١٩٣٤ م .

المجموعة الشعرية هى المرحلة الطبيعية التى يلتفت فيهـا الشاعر إلى المرأة التفاتا يكاد يطغى على الجوانب الشعرية الأخرى » (٩٦) ٠

وقد رأى الدكتور عبد العزيز أن الصيرفى لا يود أن يعطى المرأة فى شعره من العناية أكثر مما يعطى لكل ناحية أخرى من نواحى الحيـاة التى توحى بالشعر والإلهـام ٠

على أن شعره فى ذلك لا يخـرج عن كونه غـزلا صوفيا ، فهـو لا ينشد فى المرأة ما ينشده كثرة الشعراء مما أفاضوا فى وصفه وذكره ، ولكنه يرجوها لترقأ دموعه إذا طغى سيل الحوادث ، ولتكون أغانيه وأمانيه ، وأشعاره ، وأحلامه ، ونوره ، استمع إليه يقـول فى قصيدته « تحت ضوء القمر » ، وكان قد اعتاد الجلوس على شاطىء النيل هـو ومحبوبته فى مكان معين ، ثم ذهب مرة إلى هذا المكان فأثرت فيه الوحدة ، وهاجته الذكرى فراح يناجى القمر مناجاة مؤثرة :

أنـت قـد أذكـرتنى الآن وهيجت حنينى
أين من ترقأ دمعى ؟ أين من تطـوى أنينى ؟
أين من كانت لى الأم ، وكانت لى خـدينى ؟
أين من كانت لى النور إذا أمست شجونى ؟
أين من كانت لى الشـ ك وكانت لى يقينى ؟
هى كانت فى نواحى الفكر فى شتى شـؤونى

أين يا بدر وقد جئتك وحـدى ؟
أين هذا العهد من سالف عهدى ؟

ويتدرج من هذه الأسئلة اللاهفة إلى تأسية نفسه بما يخاله عـزاء وسلوى ، فيقـول :

---

(٩٦) الألحان الضائعة ص ١٠٢ ٠

يغفل المسرور عـن آلام من ضـل السرورْ
وسرور النـــاس فى الدنيـــا غـــرور

كـم ضحكنـا ولهـــونا وعـــدونا مرحـــــين
كـم شربنـــا وخـــلونا وســـكرنا فرحـــــين

فإذا اللهـــو رجـاء خـادع !
وإذا السـكر سراب لامـــع !
وإذا الـكل لدينـــا ذكرياتْ
تتراءى كطيـــور حائمـــاتْ
فى حمـى مســتنقع

مـا ألـذ الذكـــــريات لـو تكونـــين معـى [٩٧]

❋

٣ ـ الشعر الإنسانى ذو النزعة المتسامية

والنزعـة الإنســانية تعنى الميـل إلى حب الإنســانية واعتبـار الخـير العـام للإنســان الهدف الأسمى ، وقـد تميز هـذا اللـون بوضوح فى القَصَص بانكلترة وفرنسة فى منتصف القرن التاسعَ عشرَ عند بدء إيقاظ الوعى بعيوب المجتمع ، والشعور بضرورة إصلاح حـال الفقـراء [٩٨] .

والذى يطالع شعر الصيرفى فإنه يهتدى بخواطره وتصويره إلى أن الفن وحده هو خلاص الإنسانية ، وفيه سعادتها ، والفن ينتظم الجمـال بما يعنيه الجمال من حب ورحمة ، وتجاوب شامل للوجود ، وقـد أسمعنا

---

(٩٧) الألحان الضائعة ص ٨٦ .
(٩٨) معجم مصطلحات العربية فى اللغة والأدب ، حرف النون .

الصيرفى فى أول ديوان نشره وهو ديوان « الألحان .. » هـذه الأبيـات التى استهل بها هذا الديوان ، وفيها يقول :

عصرت روحى خمراً للورى وهوى — وما تذوقت منها بعض ما شربوا!
ضاعت أمانى فى الدنيا وأى منى — تعيش فيهـا وتحيا وهى تلتهب
أنشـدت كل أناشيدى فما بقيت — ألحـانى ، وتولى موتها الصخب
فمرحبـا بشـقائى فى محبتهم — ومرحبـا بعـذاب جـره الأدب
وليغفـر اللـه للدنيـا إساءتها — وفى سبيل الورى روحى وما أهب[٩٩]

وهى أبيات واضحة الدلالة على طبيعة رسالته المتسامية فى شعره .

وإذا كان قد جعل نشيد الألم مستهل هذا الديوان فقد جعل نشيد الألم ختامه — كما قال صديقه أبو شادى فى دراسته عن « الألحان » — ولكنه الألم الذى لا يصحبه الندم ، ألم التضحية النبيلة :

هنـا فى هيـكل الحـب — أحقـر مبـدأ لفـرد
وأحـرق عنـده قلـبى — بخـوراً طيـب النـدّ
ولسـت بنـادم يومـاً — على قـربانى الضـائعْ
أجـل النـاس من يظمـا — ليرضى الظـامىء الجائعْ[١٠٠]

*

واللافت للنظر أنه إذا كان شعراء أبولو — والصيرفى واحد منهم — قد عالجوا مشكلة البغىّ فى نطاق النزعة الإنسانية ، ولونوها بالنظـرة الفاقهة لأسرار الحياة والكون ، وحملوا المجتمع ما تناثر حولها من آثام وأوزار ، وإذا كانوا قد التفتوا — كذلك — إلى الريف المصرى ، والفلاح الذى يحيا فيه حياة السوائم والعبيد ، دون مراعاة لإنسانيته أو آدميته

(٩٩) الألحان ص ١٥ ، وقد تقدمت .
(١٠٠) الألحان ص ٨٧ ، ٨٨ .

التى توجب له حق الرعاية والتكريم ، وإذا كانوا قد تحدثوا عن مكفوفى البصر ، وتحملوا عنهم قدراً من متاعبهم وآلامهم ، والصعوبات التى يواجهونها فى حياتهم ، فكتب على محمود طه « الموسيقية العمياء » وكتب السحرتى « الضرير » وكتب الشابى « إلى عازف أعمى » وكتب أبو شادى « الضريرات » وإذا كانوا قد أسهموا بأشعارهم فى أنماط شتى من صور الشقاء والبؤس فى مجتمعهم ، ولم ينعزلوا عنه كما روج لذلك بعض المغرضين من النقاد — فإن شعر الصيرفى لم يشتمل إلا على لفتات طفيفة من هذا اللون ، وقد تنبه الأستاذ السحرتى — رحمه الله — إلى هذا الملحظ من قبل فقال : « وصار على الشاعر الذى نتحدث عنه ، وقد جاوز حد الأربعين بأشهر [١٠١] أن يخرج دواوينه التى لم تطبع ، وفيها قصائد فريدة معجبة ، وعليه بعد ذلك أن يودع نزعته « الرومانتيكية » الغالبة ، ويهبط دنيا الناس ، ناظراً إلى المجتمع الذى يعج بالآلام ، والمآسى ، والمظالم .. وليقبل .. شاعرنا على العزف على قيثارة الحياة ، ولا ليشجى الناس بأنغامه ، ولا ليسعدهم بأشعاره فقط ، بل ليصور آلامهم ، ويثور على أسوائهم وأهوائهم ، ويحمل على ظالميهم كما فعل فى قصيدته « السحابة المغترة » [١٠٢] التى رمز بها الى أحد الحكام المتعجرفين فى زمن مضى .. » [١٠٣] .

وقد كتب الأستاذ السحرتى ذلك قبل صدور دواوينه التالية لديوان « الشروق » ، وقد هبط الصيرفى مرة إلى دنيا الناس فى مجموعته الثلاثية « صدى ، ونور ، ودموع » ونظر إلى المجتمع ، فكتب قصيدته « عبادة الأصنام » التى قدمها بقوله : « يقضى على بعض الشعوب أن تستكين إلى طاغية يفرض شخصيته عليها ، فيفقد أفرادها حرية الفكر ،

---

(١٠١) كان ذلك حين كتب الأستاذ السحرتى دراسته عقب صدور ديوانه « الشروق » فى منتصف عام ١٩٤٨ م فى طبعته الأولى .

(١٠٢) نشرت مجلة المقتطف هذه القصيدة عام ١٩٣١ فى المجلد ٧٩ ص ٣٠٦ ، ونشرت بالألحان الضائعة ص ٤٣ من طبعته الأولى « ١٩٣٤ » .

(١٠٣) مجلة المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ ، المجلد ١١٤ ص ١١٦ .

وتصبح الكلمة كلمته ، والرأى رأيـه ، ويسلط أعـوانه على خصومه ، وتحت رهبة طغيانه وجبروته يقف الشعب منه وقفة عابد الصنم .

وفى هذه الأبيات تصوير لأحد المحكومين من هؤلاء ، يوجه خطـابه إلى عابد من عباد الأصنام الحجرية [موازناً] بين هذه العبادة وعبادة الصنم المتحـرك :

أيهـا المخلص العبـادة للصخـ ـر تحصنّ من موجـة الإلحـاد
فغـداً تفقـد الشعور وتحيـا كجمـاد مسـخر لجمـاد
صنم صامت من الحجر الصلـ ـد لَخَيْر من ناطـق بالفسـاد
إن تكن نائمـا على ظلَم الجهـ ـل رضيـاً بعيشـة الزهـاد
فأنا نائـم عـلى كتف النـو ر ، ولـكن بظلمـة فى الفؤاد
صنمى يقتـل العقيدة والفكـ ـرَ ، ويحيى عبادة الأجسـاد
إن تكن مطـلق العقيـدة يا صا ح فإنى مقيـد فى اعتقـادى
ملجئى السجن إن دعوت إلى الحق (م) مسوقا فى مـوكب الأصـفاد
الوشـايات والدسـائس والرعْـ ـب سـلاح فى وجـه كل انتقاد
وهبوط الأحـرار من منبر الحـق (م) صـعود لمنبر الجـلاد [١٠٤]

ولعل السر فى انزواء شاعرنا الصيرفى ، ونشدانه العزلة عن الناس يرجع إلى ماركب فى طبعه من الهدوء ، وإيثار الوحدة فى عالم يحسن صنعة الصخب والضجيج فى غير غاية ، ولكنه رغم هدوئه وانزوائه قـد نراه فى بعض الأحايين ساخطاً برماً ، ولقد يبلغ به اليأس مبلغه فيروح يجأر بالشكوى ، ويصرخ بالألم ، وما لنفسه يفعل ذلك — كما قال الدكتور عبد العزيز عتيق — « ولكنه يفعله من أجل الناس ، ومن أجل ألحـانه التى تلاشت بينهم كما يتلاشى النسيم العطرى فى مهب الرياح ، فهـو إذا سخط أو تبرم فلما أصاب الناس من البلادة والجمود ، وهو إذا

---

(١٠٤) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ص ٤٥ — ٤٨ .

شكى أو تألم فلما يشيع فيهم من الفســـاد والكنود ، ومن العزوف عما يخلقه لهم من الجنان والفراديس .. » (١٠٥) .

ومن العجيب أن تتحـــرك نفس الصـــيرفى إزاء بعض المواقف التى قد لا تستلفت نظر الكثيرين من الشعراء وغير الشعراء — قد تتحـــرك هذه النفس وتثور فيها دواعى الرحمة الحانية ، والإنســـانية المتسامية ، لتشمل القطط والطيور النافقة بالحب والعطف والإشفاق ، بل ويصل به ويصل به الأمر إلى حـــد الرثاء .

وقد شاركه فى هذه النزعة الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، والأستاذ مصطفى السحرتى ، والدكتور إبراهيم ناجى ، فقـــد كتب أبو شـــادى قصيدتيه « الكلب التائه » (١٠٦) و « رثاء صديق » (١٠٧) فى رثاء كلبـــه الموسوم (فهمى) بعد أن اضطر إلى إزهاق روحه ، وكتب الســـحرتى قصـــيدته « كلاب الطـــريق » (١٠٨) ، وكتب ناجى قصيدته « رثاء كلب صغير » (١٠٩) .

وهاهو الصيرفى يرثى « هرَّه » (ضرغام) الذى صحبه ثمانيـــة أعوام ، وكان وفاؤه العجيب عزاء له — كما قال — عن وفاء ضـــائع بين النـــاس :

« ضرغام » موتك هز وجـــدانى
وأثـــار فىّ عصىّ أحـــــزانى

. . . .

حرمتنى الأيـــام من ولـــدٍ

---

(١٠٥) الألحان الضائعة ص ٩٣ .
(١٠٦) الشفق الباكى ص ١٨٦٥ .
(١٠٧) مختارات وحى العام ص ١٠٥ .
(١٠٨) أزهار الذكرى ص ٩٤ .
(١٠٩) ديوان ناجى ص ٦٧١ .

فوجـدت فيـك عـزاء مفتقـد
وفقـدت بعـدك سـلوة الأبد
لولا خيـالك ملء وجـدانى

*

كنت السـمير لصـاحب يحيـا
فقـد الوفـاء المحض فى الدنيا
آنسـتنى .. والأنس كالـرؤيا
ولـى وراءك أيهـا الفـانى

*

تلهـو هنـا وهنـاك كالأمل
متـوثباً فى غـير ما مـلل
إن ألـه عنـك أتيت فى جـذل
وشـغلتنى عـن كل أشـجانى

وهكذا يمضى الشاعر فى قصيدته مؤكداً حزنه وشجنه عـلى هـذا « الفانى » الذى وجـد فيه من الوفاء ما لم يجده فى الإنسان ، والـذى كثيراً ما شـغله عن همومه وأشجانه ، والـذى فاقت عاطفته كل عواطف البشر ، ولا غرابة فى ذلك فقلوب بعض الناس كأنها قدت من حجـر ، فهى قاسية متبلدة ، لا حس فيهـا ولا عاطفة ، استمع إليه يقول :

وأراك فقـت عـواطف البشـر
بفـؤادك المتفتـح النضـر
وقلوب بعض النـاس من حجـر
ويقال : هـذا قلب إنسـان !

ويختم قصيدته بعد عدة أبيات بهذا المقطع الذى علل فيـه لبكائه ونشيجه ، وحزنه على هره ، ودفع لوم اللائمين فى تعاطفه معه :

يتعجبــــون لأدمـــع تجـــرى
ونشـــيج محـــزون عــلى هرّ
يا لائمى فى الحــزن لا تــدرى :
أى الوفاء المحض خــلانى (١١٠)

ويرثى قطته « فلفلة » التى عاشت فى كنفه ســتة عشر عاماً ، كانت خلالها رمزاً صادقاً للوفاء والحب ، والإخلاص فى الصحبة .

والوفاء الذى افتقده الشاعر بين الناس هو الخيط الذى شــد إليه الأحاسيس والمشاعر التى ترددت فى نفسه طويلا ، وقفزت إلى مرثيتيه فى هرّه « ضرغام » وقطته « فلفلة » ، فإذا كان قد قال فى مرثيته السابقة مخاطبا هرّه الفــانى :

كنت الســمير لصــاحب يحيـــا
فقد « الوفاء » المحض فى الدنيا

فإننا نراه مع طول الفاصــل الزمنى بين ديوانيه : « رجع الصدى » الذى يشتمل على ما كتبــه فى ١٩٣٦ — ١٩٥٤ ، و « صلواتى أنا » الذى يضم شعره من ١٩٦٣ — ١٩٦٧ ، نراه يعــود فيكرر نفس الفكرة فى مرثيته « فلفلة » فيقــول :

لا تعجّــب لأعجــــــــم	أنــا أوليـــــــه بالـــرثاء
قطــة قــد خصصتهـــا	بعصىّ مـــن البــــكاء
علمتنـــى خصــــــــالها	كيف لا يجحــد « الوفاء »
بينمـــا خـــان ناطــق	والتــوى طبعــه وســـــاء
قطـــة فى ســـكونها :	عــزة النفس والرضــــاء
حـــين يمضـــى بأنفس :	طمــــــع ميــت الإبــاء
قطـــــة فى امتنانهـــــا	شكر من يحسن الجــــزاء

---

(١١٠) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ص ١٠١ — ١٠٤ .

علمتنـــى بصمتهـــــــا كيف لا ينـــكر الثنـــاء
وكثـــــيرون قابلـــوا الصـــداقات بالعـــداء
حيـــــوان ، وإنمـــا ليس فى طبعــه رياء [١١١]

وإذا كان قد قال فى مرثيته الأولى أيضا :

يتعجبون لأدمــع تجــرى •• الخ

فإنه يعود فيكرر نفس الفكرة أيضا فى مرثيته الثانية ، فيقول :

لا تعجّــب لأدمــــــع حيــث لا ينــكر البــكاء
قطــة قـــد جزيتهـــا بوفـــــاء عــلى وفـــاء
عشرة طـــال عمـــرها فى صـــفاء وفى نقـــاء
زينـــة النفس أن تفــى فالوفـــاء نعمــة الســماء

وبهذا يمكن القول بأن الذى حركه ودفعه إلى رثاء تلك الحيوانات النافقة هو ذلك « الوفاء » المحض ، الذى آنســه فيها ، وافتقــده فى غيرها ، ولعل هذا الإحساس هو الذى دفع الصيرفى إلى اعتزال الناس ، وإلى اجتناب مالهم فى هذا العالم من صخبٍ وضجيج ، وإلى القنــاعة بالعيش فى أبهاء عالمه الذى كثيراً ما حدثنا عنه فى قصائده ، وبخاصــة قصيدته « أنا والناى والبنفسج » التى سبق أن عرضت لها من قبــل •

أما قصيدته « حكمة عصفور » ذات النزعة الإنسانية الراقية التى ضمها وسواها ديوانــه « النبع » فهى من شــعره الإنســانى الممتزج بالتأمل ، وهى تشير أيضا إلى أن فى أبسط مظاهر الحياة مــدداً لأسنى المشاعر الإنسانية وأنبلها ، وأسمى آيات الشاعرية وأندرها •

عاش هذا العصفور عند الشاعر فى قفصه أربع سنوات ، ثم انطلق

---

(١١١) صلواتى انا ص ٨٠ — ٨٢ •

ينشد الحـرية ، وعاد بعد عشرة أيام يحـوم حـول قفصه ، حتى إذا أدخل فيـه أسلم نفسـه الأخـير بعـد دقيقتين ، وكأنه يلقننا هـذه الحكمة .. وكان الشـاعر قد وُضع تحـت الرقابة [مـدة] من الزمن فى عهد مراكز القوى ففكر فى الهجرة عن مصر ، لولا حادثة هذا العصفور إذ ردته عن فكرته — كما قال — استمع إليه يقول فى هذه القصيدة :

قـد عاد إلى القفص المهجـورْ
واشـتاق لآسره المأسـورْ
الحـكمة من هـذا العصفورْ
أسـمى من فهـم البشـريهْ

❋

قـد عـاد لينغض أحـلامهْ
فى قفص عاصـر أيامـهْ
كـم ردد فيـه أنغـامهْ
وتنـاسى تـلك الأغنيـهْ
الحـرية . . الحرية . . الحريهْ

❋

إن فـر أبـىّ من وطنـهْ
هـل فر شـجى من شـجنهْ ؟
أو أطلـق حـى من زمنـهْ ؟
القيـد شـقيق الأبديـهْ

إلى أن قال :

وطـن الإنسـان
رغـم القضـبان
فى كل لسـان

أحلى من لفظة « حريه° » (١١٢)

وهــكذا راح شــاعرنا يلقن أبنــاء الإنســان دروســا مفيدة فى الوفاء ، استمدها من الحيوان والطير بعد أن عز العثور على هذا الخــلق النبيل بينهم ، وبعــد أن أصبح الوفاء من العمــلات النادرة جــدا فى هذا الزمان •

ولا شك أننا كنا نطمع فى أن يهبط شاعرنا إلى دنيا الناس ، ناظراً إلى المجتمع العاجّ بالآلام والمآسى والمظالم ــ كما نبه إلى ذلك صــديقه الأستاذ السحرتى من قبــل منذ ما ينيف على ثلاثة عقود من الزمان ــ نؤمل فى أن يتحــدث عن الفلاح ومتاعبه ، وعن المشردين والبائسين من أبناء أمته ، ولو كان قد فعــل لكنا قد ظفرنا منه بشعر ممتــاز يستحق الرعاية ، ويسترعى التأميل •

٤ ــ شــعر الطبيعة

عرضت فيما سبق لشىء من شعر الطبيعة لدى شاعرنا الصيرفى . وذلك فى معرض الحديث عن شخصيته ، حيث عرضت بعضاً من قصائده فى ديوان « الألحان •• » تشير إلى الملامح المتميزة لتلك الشخصية ، وكان لجــوؤه إلى الطبيعة ، وشــعوره بالطمأنينة فى أبهائها ، وارتماؤه بين أحضانها من أبرز تلك الملامح •

وإذا ألقينا نظرة سريعة على شعر الطبيعة فى الأدب العربى رأينا أن شعراء الطبيعة عنُــوا بالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وســائر ألوان المجاز ، والمحسنات البديعية أكثر من عنايتهم بروح الطبيعة ذاتها ، على الرغم من أن الطريقة المثلى فى شعر الطبيعة هى أن يشربها الشاعر نفسه وروحه ، ثم يبرزها للناس كما أشربها ، أو أن يفنى فيها ، ويندمج

---

(١١٢) النبع ص ١٦ ــ ١٩ •

بها اندماجا تاما ، ويتحدث عن آماله وآلامه من خلالها ، فخرج شعرهم أشبه ما يكون بالألعاب البهلوانية [١١٣] .

والحديث عن الطبيعة بهذا المعنى يدخل فى نطاق الوصف الذى يعد واحدا من أغراض الشعر البارزة ، ووصف الطبيعة خاصة كان من أهم ما هدف إليه الشعراء ، لأنه يدل على تأثر واضح بالجمال ، والقوة ، والعظمة ، وإدراك لأسرار الوجود ، ونفاذ إلى حقائق الأشياء .

وقد تباين الشعراء فى تأثرهم بالطبيعة المحيطة بهم ، وفى ملكتهم المعبرة عما يجيش فى صدورهم ، فمنهم من يقف عند حد المرئيات ، أو السمعيات ، ينقل إليك ما فى الطبيعة ملونا تلوينا خفيفا بشعوره ، ومنهم من يشخصها ويخلع الحياة عليها ، وينفذ ببصيرته الملهمة إلى سرها المغلق ، ويهيم فى أودية الخيال يغترف من ينابيعها ، ويقتطف من أزهارها ، وتنعكس نفسه على ما وصل إليه ، وتشع بإشعاعات مختلفة فإذا الذى يلهج به لسانه أجمل من الطبيعة ، وأوفى مقصداً ، لأنه فسرها ، وشرح آياتها ومعجزاتها ، ونقله إليك صورة خلابة تزيده بهاء ورواء [١١٤] .

وقد عرف الأدب العربى فى جميع عصوره شعر الطبيعة ، وفى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والكلام المأثور تحس بروح الطبيعة نابضة ناطقة .

وتظهر النزعة الوصفية على شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، وقد تتخلل هذه الأشعار بعض النواحى النفسية ، وإن كان ذلك اللون لم يقع منه فى أشعارهم إلا النزر اليسير .

---

(١١٣) انظر : النقد الأدبى لأحمد أمين جـ ١ / ٨٥ .
(١١٤) وصف الطبيعة وتطوره فى الشعر العربى للسباعى بيومى وآخرين ص (ز) .

وقد حفل القرن الخامس الهجــرى بأبدع شـــاعر وصاف للطبيعة هو ابن خفاجة الأندلسى ، كما حفل القرن الخامس أيضا بشـــاعر لا يقل عن ابن خفاجة فى منحاه السابق أيضا وهو ابن عبد الجبار بن حمديس .

وإذا تقدمنا فى عصر الظلام الأدبى لوجدنا شعلات مصرية تضىء فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، ولوقفنا على شعراء مصريين كانوا يمزجون نفثـــات الطبيعة بأغراضهم الشعرية ، ومن هؤلاء شرف كانوا يمزجون نفثات الطبيعة بأغراضهم الشعرية ، ومن هؤلاء شرف الدين الأصيلى ، ومحمد أحمد الحنـــاوى المصرى الذى له ديوان شعر جيـــد النظم ، .. ومن هؤلاء الشعراء الشاعر المصرى شهاب الدين الخفاجى صاحب الريحانة ، وهو ترجمة لنفســـه ، وكان له شغف بمزج الطبيعة فى أشعاره إذا قال فى الخمر أو فى حالاته النفسية [١١٥] .

ولا نجد فيما نشر للبارودى من شعر قطعا مستقلة عن الطبيعة ، ولكن كل ما كان يرمى إليـــه هـــو تلوين خواطره الوجدانية والفلسفية وتجميلها باللون الطبيعى ، وقد جرى على غراره فى هـــذا بعض شعراء العصر الحديث وبخاصة حافظ ، وشوقى ، وصبرى ، وفكرى ، ومحرم ، وغيرهم ، فتصوّر هؤلاء لم يكن فى الغالب إلا وصفاً حسيّاً للمرائى دون الحالات النفسية ، ودون إبراز تجارب فنية فى هذه الناحيـــة المتعلقة بالطبيعة ، وتناولها التناول الفنى الذى يرضى عنه أصحاب الذوق الأدبى الرفيـــع [١١٦] .

ومن ألمع شعراء الطبيعة فى مصر فى العصر الحديث مطران وشكرى وأبو شادى ، وكان لمطران فضل السبق على الشعراء ، وفضل توجيههم إلى موضوعات الطبيعة ، فقد كان يمزج الطبيعة بالوجدان حيناً ويتناولها مستقلة حينا آخـــر ، وتقف قصيدته « المســـاء » عـــلى رأس اللـــون الأول ، كمـــا تقف قصيدته « الزنبقة » على رأس النوع الثانى منهما .

(١١٥) انظر : أدب الطبيعة ، للسحرتى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .
(١١٦) انظر : أدب الطبيعة للسحرتى ص ٨٨ .

وقد تحدث الدكتور كمال نشـأت فى كتابه « أبو شـادى وحـركة التجديد فى الشعر العربى الحديث » عن الطبيعة ، وتركز حديثه عنهـا أساسا على أن اتجاه الشعراء القدماء فى الطبيعة كان يرمى إلى وصف الطبيعة كمظهر خارجى تلتقطه العين بأبعاده وحدوده وألوانه ، فالشاعر العربى القديم لم يتصـل بالطبيعة اتصـال ألفـة وامتزاج فى الأغلب الأعـم (١١٧) .

*

ويهمنا — هنا — أن نصـل من الحـديث عن شعر الطبيعة عنـد الصيرفى ما انقطع ، وأن نكمل ما بدأناه حين كنا نتحدث عن شخصيته ، إذ كان من أبرز سمات هذه الشخصية الاندماج فى الطبيعة ، والفناء فيها ، والتحدث عن آمالها وآلامها من خلالها .

لقد فجرت الطبيعة فى نفس هذا الشاعر حشـداً هائلاً من الأفكار والنظرات التى تغلفها روح التأمل والاستبطان الذاتى النفسى البعيد . فهو الذى يقول فى قصيدته « البسمات الساخرة » مخاطباً « الزهر فى الروض » :

برغمـك مثلى أيها الزهر تغتدى ... إلى الكون من أكمامك النضراتِ
وتوفى على الدنيا ، وفيك ابتسامة ... تعبر عمـا عبرت بسـماتى
وما بسمتى الا مقـالة سـاخر ... خلت من صرير النطق والهمسات
وليس يُجَازى الدّهر فى حال غدره ... سـوى بابتسـام سـاخر وثبات
أتبسـم مثلى هازئاً ، مترفعـاً ... ترى ؟ أم حياة الزهر غير حياتى
خلصت من الآلام ؟ لا ، بل تعددت ... عليك ، ولا تدرى الذى هـو آت
نجوت من القيد المـذل ولم تعد ... تحجبك الأكمـامُ منطبقـاتِ

(١١٧) انظر : شـعر المهجـر ، فبراير ١٩٦٦ م ، المكتبة الثقافية ، وابو شادى وحركة التجديد فى الشعر العربى الحديث ص ٣٠٧ ، ومدرسة ابولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث للمؤلف ص ٢٣٢ — ٢٥٥ .

فطر عن حماك الآن ، لست بنائل . خلاصاً ، وما الأغصان غير حماة
إلى أن يمــر القاطفون فتنتهى إلى عالــم مســتبهم الظلمــات
نعم أنت مثلى أيها الزهر مرغم وما هذه الألوان؟غير شيات [١١٨]
وما العطر إلا أنــة وتوجـــع كاصداء أنغامى ورجع شكاتى[١١٩]
يغنى شجى القلب والناس حوله طروبين بالإنشاد والنغمات [١١٩]

أرأيت ؟؟ .. إلى هذا الحد كان هذا المزج العجيب بــين بسماته وبسمات الزهر بكل ما فيهــا من سخرية واستهزاء ، ثم .. أرأيت كيف يكون التأمل المغلف بروح خفيفة من الفلسفة فى مشاهد الطبيعة والكون ؟ وكيف تكون الموازنة بين حال الشاعر وحــال ذلك الزهر الــذى لا يعى شيئا ، ولا يحس بشىء أى شىء مما يتردد فى خاطر شاعرنا الصيرفى ؟ ، وكيف جعل الزهر « مشبها » وجعل « مشبها به » مع ما فى ذلك من عميق الدلالات ؟ ، وكيف جعــل « العطر » المنبعث من الزهر لونا من الأنــين والتوجع ؟ وكيف جعل هذا الأنين وذلك التوجع صدى لأنغامه ، ورجعــا لشكاته ؟ فقلب بذلك التشــبيه لضرب من المبالغــة والتهويل ، فى إبراز آلامه ، وتجاوزه إياها إلى الإنشاد والطرب ، يغنى ويشدو ، ويطــرب الناس لغنائه وشدوه ، فى الوقت الذى يكون قلبه فيه مغمــوراً بالشجن والحزن ، والأسى والألم !

وهكذا عاش الصيرفى يستلفت نظره أبسط ما فى الطبيعة والــكون من مشاهد ، وقد تكون مشاهد عابرة ، أو مرائى معتادة ، وقد لا تستلفت نظر غيره من الشعراء أو غــير الشعراء ، ولكنه لم يكن يملك إزاءها فى النهــاية إلا الاندماج بها ، والحلول فيها ، والتحدث عن آماله وآلامــه من خــلالها .

فالشجرة العارية — مثلاً — فى فصل الخريف قــد تكون مشــهدا

---

(١١٨) الشيات : العلامات ، واحدها شية .
(١١٩) الألحــان ... ص ٤٤ .

مألوفاً ، أو مـرأى معتـاداً لا يسـتلفت نظـر الكثيرين من الشـعراء أو يستوقفهم ، ولكن الصيرفى — يشاركه فى ذلك بعض شـعراء جيله ، وبخاصـة رفقـاؤه فى رحاب جمعية أبولو الشعرية — تسـتوقفه تلك الشجرة ، وتستمطر دموعه ، وتهيج خواطره ، وتوقظ فى نفسه أحزانه فيروح ينظر إلى نفسه من خلال تلك الشجرة المعرّاة من مظاهر النضرة والحياة ، ويروح لسانه يتردد فى فمه مترجما عن تلك الأحاسيس والمشاعر بهذه الأبيات التى وجهها إلى تلك الشجرة ، موازناً فيها بين حالها وحاله :

أنا أنت •• لـكن خبرينى : أترى أعـود إلى ربيعى
ترويـك أمطـار الشـتاءِ إذا ارتويت من الدموع

❋

أنـا أنـت منتشر الغصـون مـددت ظـلى فى الحيـاةِ
لـكن أهـواء الخـريف كأنهـا حـكم الطغـاةِ
عصـفت بأوراقـى فـلا ظـل يمـد عـلى هـنـواتى
لـكن يعـود لك الربيـع ، فهـل يعود إذاً ربيعى ؟ !

نعم • سيعود الربيع الى تلك الشجرة يوماً ، وستكسوها الخضرة حين يرحل الشتاء ، وينقشع الظلام ، أما هو فهيهات أن يعود ربيعه إليه ! ، ويستأنف الشاعر حواره مع تلك الشجرة فيقول :

أنا أنـت • • منفـرد يحيط بى السـكون بـلا سـميرِ
لـكن تحيـط بك الطيـور ، كعهـدك المـاضى الزهـيرِ
وتحـط فوقـك تطـلب الذكـرى ، وتهجـرنى طيـورى
ولسـوف يرتـد الربيـعُ • • فخـبرينى عـن ربيعـى !

ولا شك أن فى هذه الأبيات نفحاتٍ من شعر المهجر ، وبخاصـة فى المضمون أو الفكرة ، فهذه الأبيـات تذكرنا بقصيدة « النهر المتجمد »

لبخائيل نعيمة ، فالفكرة واحـدة ، وإن اختلف الموضوع ، وإن تمـيز كل شاعر منهمـا بألفاظه ، وأساليبه ، وأخيلته ، وبطرائق الأداء المختلفة عنده بلا أدنى شك ، والأبيـات السابقة تفصـح عن ذلك ، والأبيـات التاليـة أيضـا :

أنا أنـت لـكن أنت أسـعد من حيـاتى فى الخـريف
فلتذكـرينى فى الربيـع يمـر فى رفـق الطيـوف
ويعـود موفـور السرور كعـودة الصـب اللهيف
ويعـود ماضـيك الجميـل ولا أعـود إلى ربيعـى
فلأرو من فيض الدمـوع لعـل تنفعنى دمـوعى (١٢٠)

فالطبيعة لم تعد كما كانت فى الشعر القديم وصفاً ماديا ، تتدخـل فيـه الحـواس من بصر ، وسمع ، وشم ، وذوق ، بـل أصبح لحواس الشاعر غير المنظورة دخل كبير فى الحديث عنهـا ، ولتأمله المغـرق فى السبح فى أجواء بعيدة عن عالمنا دخل كبير كذلك .

وهذا هو القمر لم يعد كما كان فى الماضى منجلاً من ورق إذا كان هلالاً ، أو زورقاً من فضة مثقلاً بحمولة من عنبر ، ولـم يعد كوجـه العـذراء إذا كان مكتملاً ، يختفى خجـلاً وحياءً خلف هـذا النقاب الأبيض الشفاف ، ممثلاً فى تلك السحابات البيضاء الخفيفة يختفى تحتها تارة ، ويتبرج تارة أخـرى حين تجـاوزه إلى حين تأتى سـحابة أخرى تحجبه ، بل يكتب شـاعرنا قصيدة بعنوان : « تحت ضوء القمر » يمزج فيها بين أحاسيس جمة مختلفة كونتهـا فى نفسه هواجس وأهازيج ، وأحلام وآلام ، وحقائق وأوهام ، وتاريخ وذكريات ، وتداخلت كل هاتيك الأحاسيس فى نفسه الآملة والآلمة فى آن ، ليخـرج من هذا التداخـل والتشابك مزيج من لون غير مألوف فى الشعر القديم ، لا يفصـل الشاعر فيه عن ذكرياته وماضيه ، ولا عن مكونات نفسه ، ومحتويات شخصيته ،

---

(١٢٠) الألحان ... ص ٥٣ ، ٥٤ .

ولا عن أحاسيسه التى لمسها بنفسه فى أوج الشعور بفقد الحبيب ، استمع إليه يقول :

مـا ألـذ الذكـريات لـو تكونـين معـى

*

أيهـا البـدر وقد أشرقت مزهوًا بنـورك
سكر النـاس عـلى ضـوئك من خمر سرورك
وتباروا بالأناشـيد عـلى شطئ حبـورك
وأنـا بـين حنينى لغـرامى الراحـل
وافتقـادى ضـوء حبى وشبابى الآفـل

شـارد اللـب كأنـى لا أعـى
ما ينـاغى مسـمعى

مـا ألـذ الذكـريات لـو تكونـين معـى

ومنهـا :

أيهـا البـدر وكـم علمت أبناء الحيـاه
كيف يسعى المرء فى الدنيـا ولا يطوى مناه
تتلقـاك سـحابات فتطـويها وتبـدو
ثم يخفيـك محـاق فتلافيـه وتحبـو
أتـرى يا دائـم الآمـال أنا لا نعيش
دون أنا نحشـد فى الدنيا جيوشا فى جيوش

من أمانينـا إلى أقصى مـدى !
وترى هـل عائد لى ما مضى ؟ !

ثم انظر إلى جمال « التشخيص » فى مخاطبـة البـدر ، وفى خلع الشاعر عليه بعض صفات الأحياء ، وبثه الحياة فيـه ، ليبدو نابضـاً ، ذخاراً بالحركة ، يسأله الشاعر ويصيخ القمر إليه بسمع :

سألتك بالأمس حين جلست على ضفة النهر أرجو الصفاء
أيجدر بالمرء أن يستطيل مناه ، ويبسطها فى البعيد ؟
فإما تقادم منها الضعيف تسيطر منها القوىُّ الجديد
كسنة هذا الوجود الأبيد ، وسنة إشراقك المستديم
وأن الحياة تحب الجديد ، وأن الحياة تعاف القديم
أيجدر بالمرء ألا ينوح على ما يهدّم من أمنيات
ويبنى على إثرها غيرها ، ويبعث فيها جديد الحياة ؟ (١٢١)

ويعج ديوانه « الألحان الضائعة » بنماذج من هذا اللون من شعر الطبيعة ولا يكاد يخلو فى بعضه من نظرات متأملة متفسلفة ، ولكن جفاف الفكر لم يذهب فى شعر الصيرفى بوهج التجربة ، وصدق المعاناة .

وكثيراً ما يلون الشاعر تجاربيه الشعرية فى الحب والمرأة بلقطات من شعر الطبيعة ، وأحياناً تسير الطبيعة والمرأة جنبا إلى جنب ، ويبدو أنه كان مشدوداً إليهما ، وأنه لم يكن ليملك الفكاك من أسرهما فى كثير من الأحيان ، ففى قصيدته « اجعلينى حلماً » — على سبيل المثال — تقرأ قوله :

اجعلينى حلماً لذيذاً شهيا ... مثلما يحلم الفقير بملْكِ
فأرى عالما تطلّين منه ... ومروج الخيال على جانبيكِ
فتنة العطر نفحها سرقتها ... زهرة الروض فى العشية منكِ
اجعلينى حلماً كما أنت حلمى ... فأريك الحياة من غير إفكِ
بلبلات الخميل تنقل عنى ... شعر قلب نقلته أنا عنكِ (١٢٢)

إنه يريد أن يقول : إذا كانت الطبيعة ملأى بأسرار الجمال فان محبوبته هى التى أضفت عليها من سحرها ، ورفدتها بصور مختلفة من

---

(١٢١) انظر القصيدة كاملة بالألحان الضائعة ص ٥٧ — ٦٢ .
(١٢٢) الشروق ص ٤٣ .

جمالها الــذى حباها الله إياه ، ومن سحرها وفتنتها اللذين يسبيان قلوب العشاق ، والشعراء على السواء :

الطيـور التى تسـابق فى الرو ض وتشـدو الحلو الغناء بأيك
ترسـل السحر طـاوياً كل أفـق كى يصـب الأنغـام فى أذنيك
هل تدرى يا روح أنك صـوت علوى الأنغـام — إياك تحـكى
والزهور التى تعطـر دومـاً من شذاها الجو الجميل بمسك
ما شـذاها إلا هـدية صب بلـَّلتها عين الذى وهى تبكى (١٢٣)

وعلى غرار هـذه القصيدة شـعر كثير ينبث فى تضاعيف دواوينه المختلفة ، وأقطف لك من هذا الشعر على غير اختيار قصيدته « قلبى » التى يقول فيها :

انفضى عنـه نـداه وانشـقيه فهـو زهـره
غسـَّلتهـا فى سـكون السـَّحَر المفتـون قطـره
نفض الفجـر عليهـا سحره والصـبح بِشـره
وعـلاها فى الضحى النو ر فنالـت منـه سره
وبـدت عنـد الأصـيـ ـل الأرجـوانى كخمـره
عطف الليـل إليهـا فمضى يفتـح صـدره
ورأى الشـاعر فيهـا مصـدرا يلهـم شـعره
فاقطفيهـا إنهـا قلبى • • فمـا أروح عطـره !

إلى هذا الحد عاش شاعرنا الصيرفى مشدوداً إلى الطبيعة والمـرأة مفتونا بهما ، وظل حديثه عنهما أشبه بخطين متوازيين فى شعره ، كأنه يريد أن يلفتنا إلى مدى التواصل المحبوب بينهما فى نفسه ، وروحه ،

---

(١٢٣) الشروق ص ٤٤ ، وانظر قصيدة : الحلم الحالم بـ « صدى ونور ودموع » ص ٣١ ، ٣٢ .

وإلى أثرهما المخلد الذى لا ينكر أو يجهل فى شعره ، الى حد تسخير أحدهما للآخر حتى يصير فى بعض الأوقات فى درجة العبودية :

أو تــــدرين الــذى ينـ ـشــدُ ؟ لا تدرين بعــدُ !
مــلأ الجــو أغــاريـ ـدَ ، فهـذا الجـو عبدُ
ينقــل الأنغـام كالوحـ ـى أمينــا فهى عهــدُ
لــم يضيعـه ولكـــن سـامع الأنغـام صـلد
كلهـم للنـــوم عبــدا نٌ ، وللأوهـــام جنــد
فاســمعيه أنــت ، فالبلـ ـبلُ قلبى بـات يشـدو [١٢٤]

لقد ترك الصيرفى الشعراء يســيرون فى طريقهم المعبدة المألوفة — كما قال الدكتور عتيق [١٢٥] وراح يختط لنفسه طريقا جديدة ، ولقــد كان شعره فى الطبيعة أغنية عذبة من أغانى الحيــاة الندية ، وتعبيراً من تعابيرها الشــعرية ، ممزوجاً بأســفه العميق ، وتأملاته الســديدة ، وسبحاته الشفيفة ، التى تنعتق عن العــالم الأرضى لتحلق فى سماوات بعيدة من الخيال والنور ، وفى عالم بعيد من الألحان ، والأنغام .

ولقد استمر للشاعر أسلوبه المتميز ، وأداؤه المنفرد حين تحــدثه عن المرأة فى جلّ ما له من نتاج بعد ذلك ، ففى ديوانه « نوافذ الضياء » — على سبيل المثال — قصيدة بعنوان « ابتهالة » يقــول فيها مخاطباً حبيبته :

يا رقــــة فى غــــلاله ما أنــت إلا ابتهــــاله
تصــــاعدت من فــؤاد مبرءٍ عـــن ضَلاَلــــه
أشـــعة الشمس كانــت نســيج هــذى الغــلاله
والنجــم وشى ســـداها والبــــدر ألقــى ظــلاله

(١٢٤) الشروق ص ٥٢ ، ٥٣ .
(١٢٥) الألحان ص ١٠٠ .

وقـال ربـك : كـونى ... لـكل فـن مثـالهْ
إذا تخيـل حسـناً ... داعبت أنـت خيـالهْ
الشّعر ليـل رخـى ... لما أطـال انسـدالهْ
والوجـه مشرق صبح ... لـه من الطهـر هـالهْ
ومشرعـات جفـون ... وراءهـا إطـلالهْ
من البريـق المصفى ... مثـل البروق الخـالة [١٢٦]
من كـل جفـن تـراءى ... حـلم يزيـد اكتحـالهْ
والثغـر ينبـوع سـحر ... تظمـا القـلوب حيـاله
والجيد راووق عطـر ... قـد رق حـتى صـفا له
يارقـة كنسـيمٍ ... أوحت إليـه اعتـلاله [١٢٧]

*

وهكذا راح الشاعر يتحـدث عن محبوبته ، ويتخـذ اشبهاته فى حديثه عنها نظـيراً من عالمه الذى أحبه ، عالم الطبيعة المحـاط بأسرار السحر والجاذبية ، المغمور بنور الجمـال العلوى ، السابح فى الألحـان القدسية الحـالمة .

بقى أن أشير فى هذا الحديث عن شعر الطبيعة لدى الصـيرفى إلى أن هذا الشاعر عاش مشدوداً إلى البحر فى الكثير من قصائده من هـذا اللون ، ولا شك أن السر فى ذلك يعـود إلى ما فطر عليه الشـاعر من حب للبحر ، وانجذاب إليه ، فقد ولد على سيفه فى مدينة دميـاط ، واستمر يبثه أحلامه وآلامه من بعـد ، ودامت الصلة بينهمـا أعواماً طوالاً ، لم تهن للشـاعر خلالها عزيمة ، ولم تفتر له همـه فى مناجاته ، وبثه آماله وأحلامه ، وشكاياته وآلامه ، وقد عرضت لشىء من علاقـة الصيرفى بالبحر من قبـل فى معرض الحديث عن شخصيته ، وأملت فى العودة من جديد إلى تلك العلاقة ، ووعدت بإبراز ملامحها فى شعره ،

(١٢٦) الخالة : المتهيئة للمطر .
(١٢٧) نوافذ الضياء ص ٤٣ ، ٤٤ .

وهأنذا أصـل من حديث البحر عند الصيرفى ما انقطـع ، ليتكون من مجموع تلك الدراسة صورة واضحة المعالم لصلة شاعرنا بالبحر فى مراحل حياته المختلفـة .

ولقد بدأت بواكير شعره فى البحـر فى ديوانه « الألحـان .. » أول دواوينه المنشورة — كما مرّ — ففى قصيدته « اللغـز » يقول :

أنا العـابر الملاح أبهم سـاحله
وقفت على مـوج الخضم أسائله
عن السـاحل المجهول ضاعت دلائله
وبانت عن المـلاح طـرا مخـائله
فثار علىّ المـوج قاسٍ تحـامله
وحطمت الريح الغشوم سـفينتى   وهل فى مثار الحرب تجدى سكينتى؟
لقـد غمر الموج الغضوب الشـواطئا
وغطى جميـع الصخر إلا النواتئـا
لقـد جـاء فى جيش الفنـاء مفاجئا
وبى رغبـة فى العيش فلأمض هازئا [١٢٨]

وإذا كنت قد قلت من قبل : ان شاعرنا الصيرفى كان يحب البحر ، ولكنه يحبه هادئاً وقوراً سمحا معطاءً ، فإذا عـلا هديره ، واصطخبت أمواجه ، وأظلمت جوانبه ، واستقبلت صخور الشاطىء ثورته المدمدمة فى صمت حزين يائس كرهه وخافه ، فقد أصبحت غضبة البحـر نذيراً بالفناء ، وإذا كانت سفينة الشاعر قد أصابها مس من جنون المـوج ، وفاجأه الفناء فى غمرة غضب البحر ، وقسوة تحامله عليه فإنه يعلن لنا فى البيت الأخـير من تلك الأبيات أن غضبة البحر لن تفت فى عضده ، ولن توهن من عزيمته ، بل انه سيمضى هازئاً بكل دمدماته العاتية ، وسيسخر

---

(١٢٨) الألحان ص ٣١ .

أبداً من دنياه ، ويرتدى ثيابا من الحق الصراح ، ويغطى على كل ما يراه ، فلسان الحوادث يترجم عن حقيقة ساطعة تؤكد أن الذى حير الأفكار هو من عاش ساخراً ، مغضيا على كل ما يرى من خدعة الورى .

وفى ديوانه « رجع الصدى » نراه يكتب قصيدة عن الإسكندرية ، يسجل فيها تأملات نفسه ، وخطرات روحه ، وسبحات خياله ، يقول فيها :

يا فتنة سحرتنى فيها الرؤى تتجسمْ
ما أنت إلا خيال فى رأس وسنان يحلمْ
. . . .
يا فتنة تتجنى على الخضم وتعظمْ
حملت قيثار شعرى وجئت كى أترنمْ
فما تسمعت إلا قصيدة لا تترجمْ
منظومة من حسانٍ على الشواطىء نوّمْ
هن المعانى ولكن أسرارها ليس تعلمْ
وكأس حسنك توحى بالمبدعات وتلهمْ
حَبَبَ ابها سابحات من الفواتن عوّمْ
يهبن فى اليم ما لا يهبن فى الأرض مغرمْ

*

عجبت للشط تحمَى به الرمال وتضرمْ
وقد أُريح عليه خد وصدر ومعصمْ
حسانه تتعرى ونجمه يتحشم
وفتنة الحسن تطغى على القلوب وتحكم (١٢٩)

---

(١٢٩) رجع الصدى ، المجموعة الثالثة : « صدى ونور ودموع » ص ٢٥ ، ٢٦ .

والصيرفى — كما ترى — لم يسجل مشاهده الشاطئية تسجيلا ماديا ، أو « فوتوغرافيا » فحسب ، وانما مزجها بأحاسيسه وتأملاته ، وأضفى عليها ظلالاً من نظراته وسَبَحاته ما جعلها تأخذ هذا البعد الجمالى الفريد .

❋

وتمضى السنون والشاعر محب للبحر ، مقبل عليه ، وتبقى الأسباب موصولة بينهما ، ويقف الشاعر يوما — بعد أن وخطه الشيب — على اللسان الممتد فى البحر الأبيض المتوسط ، حيث يتعانق البحر والنيل فى « رأس البر » ، ويلتقيان لقاء أمن وسلام بين مارد وراهب ، وتسبح خواطر الشاعر فى هذا المصيف بعد أن تغيرت مظاهره عن صورته الأولى التى كانت تحتفظ بها ذاكرته منذ صباه ، فيلهج لسانه بهذه الأبيات :

كان المصيف كعبة يحجها العمرانُ
يلمس فيها راحة ينشدها الوجدانُ
يخلع فيها زهوه وعجبه الإنسانُ
ويستوى فى ظلها الإثراء والحرمانُ
وتعتلى على الورى الأمواج والكثبانُ
فكانت الكثبانْ منابر الأذانْ
للضوء .. كالإيمانْ تنظر للإنسانْ
فى عزة وزهو

❋

وكانت الأعشاش فى زماننا : الأكنانْ
مرفرف فى هدأة فى جوها الأمانْ
وساكناً فى ظلها وصمتها الحنانْ
والضوء فى سمائها كالحالم الوسنانْ
والليل فى رحابها كالعابد السهرانْ

ومـــــرت الأعـــــوامْ تســـــابق الأحـــــلامْ
عـــــاما وراء عـــــامْ واختـــلف الأقـــــوامْ
فى الغـــزو بعد الغـزوِ

❋

فاختفت الأكنـــان بالأمان والحنـــانْ
وازدحمت شـــعابها براســـخ البنيانْ
يفتنّ فى تنميقـــه ما تملك اليـــدانْ
فقهقـــه المـــــارد فوق رمله الريانْ
وتمتم الراهـــب فى تسبيحة الإيمانْ
تغـــــير الزمـــــانْ تبـــــدل المـــكانْ !
تجـــبر الإنســـــــانْ تـــلألأ البنيـــــــــانْ
بباهـــرات الضـــوءّ ! (١٣٠)

ويرجع تاريخ هذه القصيدة الى أول أغسطس من عام خمسة وستين وتسعمائة وألف ، وهى من شعره التأملى الوجدانى ، ولقد فرضت عليـــه طبيعة هذه المرحلة من مراحل عمره أن تتحـــول مسارح الذكر فى عينيه الى مصدر خصب من مصادر إلهامه الشعرى ، وكانت بلدته دمياط تلك المدينة الساحرة القائمة على ثغر النيل الجميل كابتسامة الفاتنة الحالمة — كما قال — يحاول لسانها الرقيق أن يحيـــل صخب الموج الثائر عنـــد المصب الشرقى هدوءاً فى البقعة الذهبية الساطعة « رأس البر » التى يسيل لها لعاب البحر الأبيض يريد أن يبتلعها ، ثم يجزر مده عنهـــا وهى ضاحكة ساخرة من لقاء ذلك الهدوء الغامر بذلك الصخب الهادر ، (١٣١) كانت هذه المدينة مصدر إلهام شاعرنا الصيرفى ، وكثيراً ما ألهمته عذب الأشعار ، وكثيراً ما سقته من فيضه الأكواب :

---

(١٣٠) صلواتى أنا ص ٢٣ — ٢٧ .
(١٣١) أنظر نفس الديوان ص ٣٤ .

هى نبــع الخيـــال والشعر عذباً كم سقتنى من فيضه الأكـــواب
كــل ما صغت من نشـــيد رقيق كان منها غــذاؤها والشراب (١٣٢)

❋

وقد عرضت من قبل لقصيدته « أنا والبحر » (١٣٣) تلك القصيدة التأملية وبينت ما فيها من دلالة على شخصيته ، ذات الطبيعة الصـــافية ، والنفسية الطيبة ، وكان للبحر أثر فى تكوينها وتلوينها — كما مرّ •

يقول الأستاذ السحرتى عن الصيرفى : « •• ولقد هيأت له طبيعة بلده (دمياط) إلهامات شعرية منوعة انسابت إليه من البحر الجياش والنهر الهادىء المقدس ، حيث يلتقيان هناك قريبا من بلده ، وفجر الألم فى نفسه ينابيع الشاعرية — ، ونقلتها أعصابه المتجاوبة المرهفة فأثمرت شعرا جديدا ، فاتن النغم ، لا عهد للبيئة الأدبية المصرية به » (١٣٤) •

وقد كان للبحر أثر بارز كــذلك فى الكثير من شعره ، وفى شـــعره الرمزى لمحـــات واضحة الدلالة على هــذا الأثر الذى أعنيه ومن ذلك قصيدته « التيار العابث » التى يقول فيها :

يا عابث التيـــــارْ
بالـــزورق الــــدوارْ
فى اللج دون قـــرارْ

اهــدأ وقــل للـــــريحْ :
كفـــى عــن التطـــويحْ

بالزورق الحـــيرانْ !
لا هدْى لا شـــطآنْ

---

(١٣٢) صلواتى أنا ص ٣٨ •
(١٣٣) النبع ص ٥٦ ، ٥٧ •
(١٣٤) المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، ص ١٠٧ •

لا نجــم لا أنــوارْ
واستسلم البحـــارْ
قد مزّق الإعصــارْ

شراعَــه المطـــــروحْ
ثقـــوبه كجـــراحْ

فى جســـد منهــارْ
فيــه شظايا النــارْ
والــكاتم الأســرارْ
فى الشط ليس يبوحْ
والنور ليس يلــوحْ

والمـــائج الغضـــبانْ
فى لَــوثة الســـكرانْ

ويصرخ البحـــارْ
ما أصعب الأســفارْ
فى ثورة الإعصــار

والـــريح لا تهـــدأْ
ما أبعـــد المـــرفأْ(١٣٥)

وهــكذا عاش الصيرفى مشــدوداً ببصره وبصــيرته ، وأحاسيسه ومشاعره ، وروحه ووجدانه الى البحر ، حتى انه ليكتب قصيدة بعنوان « لقاء على الرمل » وقد راودته فكرتها فى المدة الواقعة بين (١٦ — ٢٦ يولية ١٩٧٨ م) وكان بالاسكندرية ، ولكن لقاءه على رمــال الشاطىء

---

(١٣٥) انظر القصيدة كاملة بديوانه المخطوط : ورقات متفرقات ص ١٩ — ٢٣ .

الذهبية بالاسكندرية حركت فى نفســه كوامن الذكريات فراح يســجل أحاسيسه ومشاعره المستثارة فى تلك الأبيات :

لقــاء على الرمــل جــاءت بــه	ــ على رغمهن ــ السنون الضنينه
لقــاء على الرمل والمــوج يطــ	ـغى بتصخابه فيهــز السـكينه
ويعلو على تمتمـــات الســلا	م كأن به والســـلام ضغينه
لقــاء عــلى الرمـل •• لكنــه	لقــاءُ أخى الحــلم راد جفونه
أعــــاد لـــــه ذكــريات مضيْــ	ــنَ ، ولما تزل فى الفؤاد مصونه
وعــــــاد يرتــل أشــــعاره	فهــل تذكرين الذى تسمعينه ؟
صــداه مــع النسمات الرخــا	ءِ يرجِّــع فى صمتهن حنينــه
أناشـــيده خالــدات الشـــبا	ب ولن يقرب الشيبُ يوما لحونه

واختتم الشــاعر هــذه القصــيدة بعــد عدة أبيــات بقوله :

لقــاء على الرمــل والرمــل لا	يخلـّـد خطــو الألى يعبرونه
اذا مــرت الريــح قالت : هنــا	تجلى مع الصيف : حسن وزينه
وتحــت المظـــلات كانت هنــا	روايات حب وولــت حزينـــه
وعــادت مع الصيف أطيافهـــا	مفرقة فى زحــام المدينــه (١٣٦)

وقد اشتمل ديوانه الأخير : « همسة العطر للنسم » على شىء من شعر البحر ، أذكر منه قصيدته : « يا صيف ولى الموسم ، المخطوط ص ٦٢ ــ ٦٧ » كتبها فى نهاية صيف عــام ١٩٧٩ ، وهى من الشــعر التأملى الوجدانى الذى يمازجه شىء من الرمز ، وقصيدته : « اليــك أعود يارمل » التى قال فى تقديمه إياها : « فى صيف عام ١٩٧٨ كان لى حظ قضــاء عشرة أيام (١٦ ــ ٢٦ يولية) فى الأسكندرية كتبت فيهــا قصيدتى « لقاء على الرمل » المنشــورة فى ديوان « عــودة الوحى »

---

(١٣٦) عودة الوحى ص ٥٣ ــ ٥٧ .

[ص ٥٣ — ٥٧] •• ويجىء صيف عام ١٩٧٩ ، ولـكن ظروفاً قاهـرة تحـول بينى والسـفر الى الاسكندرية ، فكتبت فى نهـاية ذلك الصيف قصيدتى : « يا صيف ولى الموسم » ••• وكان أن سمحت الظروف فى صيف ١٩٨٠ بعودة الى الاسكندرية فى صباح يوم ١٦ أغسطس من هذا العام ، لأمضى فى « شاطىء المعمورة » خمسة عشر يوما •• ولكنى لم أتمها حيث رحلت منها قبل خمسة أيام للعلاج وكنت قد كتبت فى مسـاء يوم وصولى هذه القصيدة ، ومنها قوله :

أراد اللـه ـبعد البعد —	أن يجتمـع الشـمل
لأنظم فيـك أشـعارى	كمـا أنشـدت من قبـل
حـكايات مـن المـاضى	يجـدد عهـدها الوصـل
قصـائد من صميم القلـ	ـب لـم يسـبق لهـا مثل
سـما بجـلالها حـبٌ	وطـاف بقدسـها نبـل
فهـل أنعـم باللقيـا	وهل أسـعد يارمـل [١٣٧]

وهذا شعر ينبىء عن لهفة الشاعر العارمة الى الرمل ، والبحـر ، والشاطىء ، كيف لا ؟ وهـو الـذى فتح عينيه على زرقتـه الصافية مذ وعى الحيـاة صغيراً فى موطنه دمياط ، واستلهمه حكاياته الماضيات التى جدد الوصل عهـدها واستوحاه قصائده الرائعـة التى سما الحب بجلالها ، وطاف بقدسها النبل — كما قال ؟

وحين يخلو شاطىء المعمورة — فى نظر الشاعر — من مواكب الحسن الربانى الأصيل الساحر ، بعد أن كان عامرا بهـا فى الأعـوام الماضية (قبل عام ١٩٨٠) لتزحف عليه شراذم من الزيف والقبح تؤذى النواظر وتنفر المشاعر ، وتشرد الخواطر — فان هذه الصورة تثـير دهشته ،

---

(١٣٧) همسة العطر للنسم ، المخطوط ص ٩٨ — ١٠٠ .

وعجبه ، وتجعله يثور ويغضب ، ويصـــل أثر هذه الثورة وهذا الغضب الى شعره فيقول مخاطباً البحر والموج :

اصخب يا بحر ، وثر يا مـــوج ! فـــإن الحســـن تغيـــب رؤاه !
تمضى الأيـــام كلمـــع البرق وركـــب الحســـن مضى أو تـــاه
والشـــاطىء كالســـوق الجيـــا ش يعج بمـــا ساء الأمواه [138]
زحمتـــه قوافـــل كالأفيـــال تدب عليـــه نصـــف عـــراه
ومرايا الحســـن بأحـــلى التيه فقدن ــ مع البهتان ــ حلاه [139]

وختمها بعد عـــدة أبيات بهذا البيت :

يا هـــذا الصـــيف جمعت الزيف جـــزاك الله ، جـــزاك الله [140]

❋

٥ ــ شعر الشكوى والألـــم

وكان موضوع الشكوى والألم من الموضوعات البارزة فى شعره ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان واحدا من شعراء جمعية أبولو الشعرية ، الذين لم تكن الظروف السياسية غير مواتية فى عهـــدهم ، حيث كانت مصر تجتـــاز محنتها بصـــدقى فانطووا على أنفسهم ، وتغنوا بشـــعر « رومانسى » حـــزين •

لقد كانت الشـــكوى تجلل الجـــانب الأكبر من أشـــعار هـــؤلاء الشباب ، وبخاصة فى قصائد الحـــب اللاهب ، وما يعقبـــه من أنات وآهات ، وفى قصائد الطبيعة التى تعشقتها نفوســـهم ، وتعلقت بهـــا أرواحهم ، حتى وان فصلوا عنها بأجسادهم فى بعض الأحيان •

---

(١٣٨) الأمواه والمياه : جمع الماء .
(١٣٩) حلاه : الحلى جمع الحلية ، وهى زينة الشىء .
(١٤٠) همسة العطر للنسم ص ١٠١ ــ ١٠٥ .

كان الألم يطفح فى شعر الواحد من هؤلاء الشباب بعد أن تفارقه المحبوبة ، وكثـيرا ما يروح لســانه يلهج بالشكوى ، وتجأرُ نفســه بالألم ، وحين يدرك أن أحداً لم يشاركه محنته ، أو يتحمل عنه أســاه فانه يلجأ الى قيثارته ، فيحملها بيديه التعبتين ، ويتعهد أوتارها بأنامله المرتعشة فيعزف مقطوعاته الشاكية ، وكثيرا ما يؤمل فى أن يلقى الرحمة فى قلب الصخر الجلمود ، أو فى جوف الليــالى الجون بعد أن افتقــدها فى قلوب الناس ، وتلك سمة من سمات « الرومانسيين » المذهبيين فى الغرب ، ــ كما هو معلوم ــ تتصل بالموضوع وطبيعة التجربة الشعرية •

وقد سبق أن عرضتُ نماذج من شعر الصيرفى تضج بالشكوى ، وتمور بالألم ، وكان صدى هذا اللون من الشعر يتردد كثيرا بين أرجاء ديوانه « الألحان •• » ، ولما يكن قد أكمل العقد الثالث من عمره بعد •

ولم تكن الظــروف السياسية وحــدها مسؤولة عن شــيوع نبرة الشكوى والألم فى شعر الصيرفى وصحبه من شعراء أبولو ، بل كان لــكل شاعر من هؤلاء ظروف حيوية خاصة فجرت فى نفسه هذا اللون الكابى من الأحاسيس والمشاعر ، مما كان له كبير الأثر فى شعره فى تلك الناحية ، وقد سبق أن تحدثت عن شىء من تلك الظروف الحيوية التى مرّ بهــا شاعرنا الصيرفى فى بعض فصول حياته ، وكانت مسؤولة بالإضــافة الى بعض الأسباب الأخرى عن شيوع تلك النبرة الآلمــة فى شعره والشاكية أيضـــــا •

ولن أستمد كثيرا من شعر الشكوى والألم فى ديوانه « الألحان •• » ففى النماذج التى سقتها من قبل أبيات تضج بالشكوى ، وتعج بالألم ، ولكنى اكتفى ببعض شعره فى هــذا الديوان مع اتاحة الفرصــة لبعض أبياته الشاكية الآلمة فى باقى دواوينه الأخرى ، فمن ذلك قوله فى قصيدة بعنــوان : « انفردت » :

يا فؤادى بعد إيناس الأمانى انفردت !

ثم جئتَ الآن تشكو ما تعانى هل عرفت
يا فؤادى سر آلام الحياه ؟
انه الحب اذا ولى سناه (١٤١)

فالمرأة التى فجرت ينابيع شاعريته فى بعض القصائد هى نفسها هنا المسؤولة عن تفجير الشكوى الآلمة فى نفسه حين اجتوته وقلته •

ومن الممكن أن نرد ظاهرة الشكوى والألم فى بواكير شعره الذى نشره على الناس متمثلا فى ديوانه « الألحان •• » أن نغماته وان تضوع عبقها فى قلة من الناس فانها لم تلق أى تقدير من غالبية العاديين من سكان هذه الأرض •

وفى ذلك يقول الأستاذ السحرتى : « ومثل هذه الألحان المتمردة كثيرة فى ديوان « الألحان » ، وأكثر منها ألحان الألم ، وهى تفسير نفسه القلقة المتجهمة فى حقبة من عمره ، وستظل هذه الألحان نبعاً ثراً لقلوب « الرومانتيكيين » ، وللأرواح التواقة للأنس الروحى فى دنيا الناس •• » (١٤٢) •

ولكن هذه النفس القلقة المتجهمة لم تلبث أن أشرقت بالأمل فى ديوان « الشروق » فسجل بذلك نقلة شعرية مغايرة بانتقاله تلك النقلة النفسية المشرقة •

« انه ديوان غمرت أضواءه الظلال ، وأطل فى ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره اشراقا ، وأضاف الى تجاريبه تجاريب ••• »

---

(١٤١) الالحان ص ٥١ •
(١٤٢) ، (١٤٣) مجلة المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ ، المجلد ١١٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ •

وهذا النزوع الوجدانى المشرق « جعل الشاعر ينسى العــذاب ، وينكر الألم ، ويودع الماضى ، ويفهم الكون فهما جديدا ، ويرى جمــاله بالنظرة الأولى ، ويحس فى جمــال ٠٠ الحبيبة بدفقات النــور تضىء جوانحه ويرى مرائى الطبيعة ونباتها بمنظار وردى ٠٠ ويبدو أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثير من التفكير ٠٠ » (١٤٣) ٠

وفى ديوان « رجع الصدى » يستمر للشاعر هذا الاشراق ، حيث لا تعبأ روحه بالعالم الصاخب من حوله ، قانعاً بملاقاة الوحى يهبــط عليه فى مستقره الآمن بالإلهام ، ونراه يوجه الحديث الى قلبه فى قصيدة بعنوان : « الى وكرك يا قلبى » جاء فى بعض أبياتها :

إلــى وكـــــرك يا قلــبى ففى وكــــرك أحــــلامكْ
تعـــــانق فيـــه ما يوحيـــ ـه من شـــــعرك إلهـــامكْ
وتغنى فى جـــــلال الحـــب ، والأحـــــلام آلامـــك (١٤٤)

وأحيانا تعاوده نبرة الحزن من جــديد ، فتتوارى تحــت دموعه بسمات النور فى عينيه ، وتميل ظلال الراحة السمحة عن ربوعه ، استمع اليه يقول فى بعض أبيات قصيدته : « البلبل » :

الربيع الطلق قد آب فمن لى بربيعى
بسمات النور فى عينى وارتها دموعى
وظلال الراحة السمحة مالت عن ربوعى
ولهاة الطير قد غصت بمهراق النجيع
فدعونى صامتا أدفن فى الصمت نزوعى

---

(١٤٤) صدى ونور ودموع ص ٢٨ ٠

وهكذا راح شاعرنا يلوذ بالصمت يدفن نزوعه فيه ، وهو تحــول ملحوظ مستمر عما عهدناه منه من أشعار الألــم والشكوى فى ديوانــه « الألحــان •• » الذى علت فيه تلك النبرة على نحو ملحوظ •

وتستمر للشاعر تلك الروح فى الكثير من شعره بعد ذلك ، بل ان زهور الأمل لتتفتح فى نفسه فيضحك للغيوم ، ويهزأ بالآلام والمتاعب ، ويتحول قلبه جنة تحفل رباها بمختلف المشاهد والرسوم ، ففى قصيدته : « تفاؤل » نحس بانفراج أسارير وجهه ، ومع هذا الانفراج تتفلت منه تلك الأبيــات :

سـأضحك يا سـماء فلا تغيمى — وأهـزأ بالمتاعـب والهمـــوم
فؤادى جنـــة حفلـت رباهــا — بمختلف المشـاهد والرســوم
منضــرة الأزاهـــر والـدوالى — معطـــرة الجـداول والنســيم
حـَمَــاها أن يـُلم بهــا خريف — ربيــع" مـن فراديس النعـيم
تبسـَّمُ للشــتاء إذا احتــواها — وتوحى الصحو للصيف النـؤوم

ويكرر نداءه السماء فى تلك القصيدة ، حيث يقول :

سأضحك يا سـماء فـلا تغيمى — فقد يطوى الجمـال مع الغيوم

ويقــول :

سأضحك يا سـماء فرددى لى — غنـــائى يا سـماء ولا تغيمــى
مضى ليل الخطوب فلا تعيــدى — الى ذكراك أيام الحســوم [١٤٥]

كأنه يريد أن يلفتنا الى هذا التحول الآمــل الذى ملأ أقطار نفسه ، والى هذا الاصرار على هجر الماضى بكل ما كان يجلله من أسى وألم ، وتبديد ما يطرأ فى أفقه من غيوم ، والحلم بالسلام على ربى غده الآمــل الموعــود •

(١٤٥) حول النور (المجموعة الثلاثية) ص ١٣٧ — ١٤١ •

ويبدو أن المرأة قد ضوأت بالأمل حياته ، وأشرق عليــه وجههــا فى يقظته ومنامه ، فراح يغنى لها فى العديد من القصــائد من أمثــال : « بوحى أو لا تبوحى » التى كتبها الى من تنطق عيناها بأروع معــانى السحر ، و « ردى خيالك » و « فى طريقك » و « الهاربة » و « الفتنــة النائمـــة » وســـواها .

*

وتعاود شاعرنا نبرة الألم من جــديد حين يفجــؤه المرض ، ففى ديوانه « صلواتى أنا » الذى ضم شعره من عام ١٩٦٢ — ١٩٦٧ يكتب قصيدة بعنوان « الزنبق » وكان على فراش المرض ، قال فيها :

أنا هنـــا مــع الأسى — مــع الضنى والوهـــن
بين صـــباح مـؤذن — بآخـــرٍ لـم يؤذن
أعــد أيامـــى عــلى صعيــد هـــذا الزمـــن
وأســتعيد مــا مضــى — من مفــرح ومحــزن
تمـــر بـــى روايـــة — مليئـــة بالمحـــــن
تخللتهــا بســمات كطيوف الوســن
فأمسح الآلام عن قلبى وأنسى شجنى (١٤٦)

وقد أصبح للشاعر نظرة عميقــة الى الألــم ، وصبغتها تجاربيه العريضة فى الحياة بصبغة تأملية واضحة ، ففى ديوانه « زاد المسافر » يكتب قصيدة بعنوان : « قصائدى الأخيرة » ... قدم لهــا بقوله :

(١٤٦) صلواتى انا ص ١٣ .

« يسألنى بعض الرفاق : لماذا أكثر الآن من نظم القصائد القصيرة فى الأبحر الصغيرة ، فاليهم الجواب » ، ومن أبيات هذه القصيدة :

آلامى المـوارة ، الدفاقة ، الكثيره
أحزانى الصامتة ، الدامعة ، الغزيره
ما بان فى الجفون ، أو ما غاب فى السريره
عابرة من عالمٍ أضيق من حفيره
الى محيط واسعٍ فى الفجوة الكبيره

*

قصائدى القصيره	أنفاسى الأخيره
كومضة المصبا	ح فى ائتلافة منيره
فى خفقة مسرعةٍ	لاهثةٍ قصيره (١٤٧)

وهذه النظرة المتأملة الواعية هى نفسها التى أنطقت لسان الشاعر فى قصيدته التالية : « زاد المسافر » التى وسم بها هذا الديوان وفيها يقول :

هذا المسافر بعد طول صراع	فى عالم الآلام والأوجاع
ماضٍ كأحلام الصباح تزفها	زمر من الأنغام والأسجاع
ماضٍ كإشعاع الغروب وخلفه	ذكرٌ يسرن على مدى الاشعاع

الى أن قال :

ماض عن الدنيا وسحر بريقها	بعد التعلق بالسنا الخدّاع

(١٤٧) زاد المسافر ص ٢٢ ، ٢٣ .

نفض اليــدين ، فزاده فى قلبه لم تقترب منــه ظــلال ضياع
زاد تجــرد من شوائب أرضــه وصراعهــا فى الشر أى صراع

وهى نظرة عاقله للحياة ، وما فيها من بريق خدّاع . أملتها عليه — فيما أرى — طبيعة المرحلة التى عاشها بعد انعتاقه من أسر الوظيفة ، ومجابهته آلام المرض ، وآلام تنكر المجتمع له ، ولذا رأينــاه يهتف فى البيت الأخير من القصيدة بأبناء أمته ، طالبا اليهم أن يتذكروه لحظة « فى صمت مدّكر وزفرة ناع ! » ، استمع اليه يقول :

بلــغ المــدى فتذكروه لحظــــة فى صمت مدكر ، وزفرة ناع (١٤٨)

*

٦ — الشعر التأملى والصوفى

والذى يطالع شعر الصيرفى يرى أنه أطال التأمل فى أسرار الحيــاة والكون ، وأن التأمل قد اتخذ عنده طرقا كانت محاور رئيسية دار عليهــا شعره فى هذه السبيل .

منها : التأمل المجرد ، وأعنى به ذلك اللون من التفكير الذى يتناول بعض المسائل الحيــوية أو الكونية ، ويغوص وراء أسرارها ودقائقها ، دون أن يكون هناك دافع وراءه من تحقيق نظرية ، أو تمحيص رأى فى قضية ، وفى أثناء ذلك يتمكن الشاعر من الوصول الى مدركات عقليــة ، أو فكرية ، لا تحـدها نظرات الفلاسفة الجافة ، ولا شطحاتهم العقلية التى تذهب فيها العقول كل مذهب .

ومنها التأمل المشوب بالفلسفة وروحها العلمية .

---

(١٤٨) زاد المسافر ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ .

ومنها التأمل الذى تدفع اليه حياة المتصوفة ، والتصوف وثيق الصلة بالفلسفة ، لأنه فى جوهره يلتقى بالنزعات الفلسفية فى عدة مواطن ، لعل من أشهرها ما يلى :

١ — الشعراء المتصوفة كانــوا فى مذهبهم الجــديد يرون أن كل جميل فى الأرض انمــا هو لمحة من جمــال الله ، وجعلوا العالم خيــالا لا حقيقة ، ووحدوا فى بعض الحالات بين ذات الانسان ، وذات الله .

٢ — انعتق المتصوفة من الحواس التى تقيدهم ، وتشــدهم الى الأرض ، فخدروا هذه الحواس ، وتركوا العنان للروح حتى تنطلق فى شطحاتها كما تشاء ، دون أن تتقيد بالعالم المادى المحسوس .

٣ — كانت ذواتهــم خلجــات تذلل فى أعينهم ترهات الأرض ، وتقلهم الى عالم أرحب ، تتقلص عنه الأشياء ، وينطفىء الحس ، وتفنى المادة ، وأن هذه النزعة نحو المشاهدة أشبه بفكرة المجهــول والغريب التى تضعف النزعة الرمزية ، وكلاهما مستمد من الهند على ما يرى بعض الباحثين .

على أن هذا التشـــابه فى النزعــات أو بعضها لا يفضى بالحتم الى تشابه أو مطابقة . أو مجانسة تامة فى النتاج ، فبين الشعر الصــوفى والرمزى بــون شاسع ، وخــلاف كبير فى جــوهر كل منهمــا عــلى الحقيقة [١٤٩] .

وقبل أن أعرض لتلك النزعات فى شعر الصيرفى ينبغى أن أشير الى أن الفلسفة بروحهــا العلمية الجافة لم تستطع أن تقهر فى نفس الصيرفى روح الشاعر الفنان ، بل ظلت روحه الشـــاعرة تحلق فى رحــاب قصية

---

(١٤٩) انظر : الرمزية والأدب العربى الحديث ، لأنطون غطاس كرم ، دار الكشاف ، بيروت ، لبنان ص ١١٢ .

من الإبداع ، وتلمع خلف ضباب الفلسفة ، مبددة كل الغيوم الحاجبة لجمال الشعر وبهائه ، فأشعاره التأملية المشوبة بالفلسفة يغلب عليها الوضوح والخصوبة ، وذلك على عكس أغلب الشعر الذى كتبه من قبل أصحاب المذهب الجديد فى الشعر (شكرى والمازنى والعقاد) ، حيث طغت على أشعارهم فى هذا المنحى برودة الذهن ، وجفافية العقل .

كما أن شعره التأملى قد كثر كثرة ملحوظة ، والذى يطالع نتاجه الشعرى يدرك سيطرة تلك النزعة على جل هذا النتاج .

وكثيرا ما اختلطت فى شعره النظرات المجردة بالنظرات التأملية المشوبة بالفلسفة حينا ، وبالتصوف حينا آخر ، بل ان قصائده تعج بهذه النظرات فى الجانب الكبير منها ، ولكن فى انسجام وتآلف ، وهذه الناحية تشير الى مدى الصعوبة التى تصادف الباحث فى شعره عند التطبيق ، اذ أن الحكم على قصيدة من قصائده فى هذا الاتجاه بكونها من الشعر التأملى ، أو التأملى المشرب بالفلسفة ، أو بالتصوف ، أو بهما معا يصبح فى أحيان كثيرة أمرا فى غاية الحرج والصعوبة .

*

ومما تجدر الاشارة اليه أن الغمغمة ، أو الصور غير المفهومة التى تطبع شعر التصوف أحيانا كانت نزرة يسيرة ، بل معدومة فى نتاج شاعرنا الصيرفى ، ذلك لأن هذا الشاعر ، ومعه شعراء أبولُّو كانوا يؤمنون بوضوح الفكرة ، وخصوبة المعنى ، وعذوبة الأسلوب ، ورشاقة اللفظ ، وثراء الخيال ، وروعة التصور والأداء فى جلّ ما كان لهم من نتاج .

ولا أملك ، كما لا يملك أحد غيرى — فيما أظن — أن يغمط شاعرنا الصيرفى حقه فيما له من فضل باقٍ على أدب الطبيعة ، حيث فسر مرائيها ومشاهدها تفسيرا روحيا عذبا ، لاندماج ذهنه بأحداثها ،

ومزاوجته بين النظرات التصوفية ، والعلمية فى تناوله اياها على نحــو رشــيد •

ولا ينبغى أن نغمطه حقه أيضا فى شعره المتصل بالمرأة ، فهو لم يقف — كغيره من شعراء الغزل المادى — عند حد الاعجاب بالجســد ، بل راح يمزج حنينه اليــه بالقلق الصــوفى المبهم ، وذلك على النحــو الذى سبقت الاشارة اليه من قبل فى حديثى عن شعر الحب والمرأة عنده •

*

كثير هو شعر الصيرفى التأملى المستغرق فى الشجن ، وهو يكشف عن طبيعته السمحة ، وحسه النبيل ، ويفصح عن مقــدار تعلقه بدينــه وربه ، ومن ذلك قصيدته « الحيــارى » التى يقول فيها :

قد سبحنا بالفكر عنــدك يارب	فتاهت أرواحنــــا فى ســمائك
وشدونا ما قــد شــدونا ولكن	ضاع هــذا جميعــه فى فضائك
وعرفنــا من الخيــــال معانيــ	ـه ، وغابت عنا معانى جــلائك
وســـمعناك فى الضــمائر توحى	ما يهــز القــلوب من إيحائك

وأبيات هذه القصيدة تعلوها مسحة تصوفية رقيقة ، ولكنه التصوف الواضح المعتدل ، لا السابح فى تهاويم الفكر ، ومجاهل الخيال •

ومن المناسب أن أسوق الأبيات الأخيرة فى تلك القصيدة ، حيث تتجلى فيها هذه المعانى ، فهو يناجى ربه قائلا :

أنت قدرت أن نعيش حيــارى	والحيارى على الرضا بقضائك [(١٥٠)]
أنفس تهمس الرغــائب فيهــــا	همسات الكفاح ، والجسم شائك

(١٥٠) فى الأصل : « والحيارى هنا ضحايا قضائك » ولكنى وجدت الشاعر صوبه فى الهامش بقلمه : « والحيارى على الرضا بقضائك » •

فى صراع الجســوم تنتقل الــ	أرواح ترجو الهدوء عند جوائك
ليت هــذى الجسوم كانت صفاء	مســتمدا جــلاله من صــفائك
لنعمنـــا مــع الخلـــود بسر	دينــوى وصلته بســمائك (١٥١)

والنماذج التى سقتها من قبل فى دراستى عن شعر الصيرفى لا تخلو من ظواهر تلك النزعة التأملية والفكرية ، ولكن لا ضير فى أن أضيف الى هذا الرصيد قصائده التالية :

فى ديوان « الألحــان •• » : « اللغز » ، « التائه » ، « الشاعر » ، « موت عزرائيل » وســواها •

وفى ديوان « الشروق » : « النــور الجديد » ، « إلى المعبد » ، « الحــرمان » « بين اللهب » وغــيرها ، ومن قوله فى تلك القصــيدة الأخــيرة :

تطغى عــلى الروح نيران مسعرة	وفى الفــؤاد حنــين بات يلهبــه
وفى الكؤوس أرى خمرا مشعشعة	والدهر يفرغلى جامى(١٥٢)ويسكبه

وكان قد صدّر هــذه القصيدة بكلمات « فلتشر » : لنشرب كأسا معا نغرق فيه أشجان الحياة ، ولنشربها اليوم دون انتظار الغد ، فمن يدرى ما يخبئه الغد ، ومن يدرى ، فقد لا يكون لنا غد » (١٥٣) •

وفى ديــوان « رجــع الصــدى » : « الى وكــرك يا قلبى » ، « موجتان » « فتنة » وسواها •

---

(١٥١) الألحان ص ٢٩ .

(١٥٢) الجام : قدح الشراب ، وانظر القصيدة كاملة بديوانه : الشروق ص ٣٦ ، ٣٧ .

(١٥٣) تمثل هذه الكلمات جزءا من فلسفة الصيرفى نفسه فى الحياة .

وفى ديوان « حـول النور » : « عنـدما تحترق الفراشـة » ، « تفاؤل » ، « غيرة » ، « ومثال وتمثال » وغيرها •

❋

أما شعره التأملى المشوب بلمسة خفيفة من الفلسفة فمن نماذجه : « وحدة العمر » و « أنا » و « الحـيرة » وكلهـا بديوانه « الشروق » الى غير ذلك من الأبيات والقصائد التى تنبث فى تضاعيف دواوينه الشعرية الكثـار •

يقول فى « المعنى المبهـم » :

تطـوف روحى وراء معنى — يجول فى خاطـر الزمـانِ
يمر كالضـوء فى خيـالى — ويلهب النـار فى بيـانى

❋

ويمـلأ اللحـنُ منه سمعى — ولست أدرى مـدى صداه
يطـوف فى عالمى ويسـعى — ولسـت أدريـه أو أراه

❋

ذوبت روحى بنـار حـب — بثثت معنـاه فى نشـيدى
يعيش فى خاطـرى وقلبى — بلا زمـان ولا حـدود

❋

تمـر منـه علىّ ذات — ولسـت أدرى الذى أريده
وأعجـب الأمـر أن قلبى — يجهـل معنى الـذى يعيده

❋

يا أيهـا المبهـم الخفـى — فى خاطـر المبهم الزمـانْ
متى يلـوح الخفىّ حتى — يفسر اللغز عاشقانْ (١٥٤)

---

(١٥٤) الشروق ص ٥٧ ، ٥٨ •

وفى قصيدته « وحدة العمر » يعرف حدود نفسه ، ويدرك السعادة ملء كاسه — كما قال :

تعـال فقد عرفت حـدود نفسى
وأدركت السـعادة مـلء كأسى
. . . .
تعـال فهـذه الدنيـا حيـالى
رسوم لـم تجمـل بالظـلال
. . . .
يد الأقـدار تزعجنى دوامـاً
وتطـلق فى سكينتى الهـاما
وتمـلأ رحب إحسـاسى زحاما
تعـال فحـول الدنيا سـلاماً
. . . .
ستختلف الحيـاة أمام عينى
تمـر طيوفهـا وتغيب عنى
وتفـنى فى محيـط من تمـن
وأحـلامٍ تلـوح بـكل لـونِ
. . . .
وما أنا غـير طيف من رؤاهـا
تأخـر حينـه حتى يراهـا
ويعـرف ضعفها ومـدى قواها
وتفرحـه وتبـكيه مناهـا (١٥٥)

---

(١٥٥) الشروق ص ٦١ ، ٦٧ .

فهذه نظرات متأملة لا تخلو من التفلسف ، ولكن الفلسفة على كل حال لم توهن من قوة تجربته الوجدانية فى تلك الأبيات ، ولم تصبها بالجمود والجفاف ، وتتأكد هذه المعانى وغيرها فى قصيدته « الحيْرة » التى أهداها الى الأستاذ اسماعيل مظهر صاحب مجلة « العصور » الذى حمل مشعل المعرفة زمنا بين الرياح الهوج ، وفيها يقول :

يا عالمى أنا سارٍ فى شعاب دجىً	يلهو بغاية روحى ليله الضافى
كأننى أنا ثأر ظل مشتعلاً	بين الوجود وبين المبهم الخافى
وكلما شاهدت عيناى فى أفقى	ذاتاً تحققتُها أطياف أطياف
كأننى — والأمانى فىّ جائشة —	أفق تذوب به أصداء هتاف
صيرت فى عالم تطغى عجائبه	على رؤاه ، وخابٍ نوره الصافى
ما أضيع النور فى قوم يحيرهم	سرّ بهيم ، وكون حالم غاف[١٥٦]

❋

ولقد يسيطر على شاعرنا المعنى الفلسفى ، ويتردد فى خاطره بعض الوقت ، ثم لا يملك فى نهاية الشوط سوى التعبير عنه ، ووضعه فى سمط شعرى بديع .

والفكرة الفلسفية قد تنبث فى قصائده غير التأملية ، ولكنها أكثر ما تكون ورودا فى شعره التأملى ، فالتأمل وثيق الصلة بالفلسفة — كما قلت — ، وأحياناً تأتى الفكرة الفلسفية منفردة ولكنها تجىء موجزة مختصرة ، فهى أقرب الى الخاطرة فى دنيا النفس ، أو السبحة فى عالم الفكر استمع اليه يقول تحت عنوان « أيهما أصلح ؟ » :

---

(١٥٦) الشروق ص ٧٠ .

أتـرى يصـلح من عالمنـــــا
أن يبيـد الشر منـــه أو يضـرّ ؟
لا أرى الا بقـــاء الشـرّ كـى
يعـرف العـالم ما يعنى بـ « خيْر » (١٥٧)

ومن العجيب حقـا أن يظهر هذا اللون من شعر الصيرفى ، ويشتد عوده فى حياته الشعرية الباكرة ، اذ المعهـود فى الشاعر أن يبدأ عاطفيا وجدانيا ، وينتهى فى مرحلته الحيوية الأخيرة الى الفلسفة والتأمـل ، ولكن هذا الشاعر بدأ من حيث انتهى غيره ، ولا أعلم أحدا يتفق مـع شاعرنا ، أو يتفق شاعرنا معه فى تلك الناحية من شعرائنا المحـدثين سوى الأستاذ العقاد ـ رحمه الله •

لقد احتوى ديوانه « الألحان » ومثله « الشروق » على نمـاذج منوعة من هذا اللون ، ثم راح يبتعـد فى دواوينه التالية كثيرا ، أو قليلا عن تلك النزعة ، وظل مشدودا الى العاطفة والوجدان أكثر من الفلســفة والتأمل ، وهى ظاهرة تثير الدهشة ، وتسترعى التأميل على كل حال •

ويرى الدكتور عبد العـزيز عتيق أن ما يلفت النظـر فى ديوانـه (الألحان) بوجـه خاص قلة الغزل فيـه ، وقال : « فشـاعرنا الصيرفى شاب (١٥٨) وهذا أول دواوينه ظهورا ، فكان طبيعيا أن ترى فيـه أثراً واضحاً للشـعر العاطفى ، لأن المرحلة التى قيلت فيها هـذه المجمـوعة الشعرية هى المرحلة الطبيعية التى يلتفت فيها الشاعر الى المرأة التفاتا يكاد يطغى على الجوانب الشعرية الأخرى ، بل اننا لنرى كثيرا من شعراء الشباب يخرجون دواوينهم وقـد غلب عليهـا لون واحـد هو الشعر العاطفى ، ولكن يخيل الى أن شاعرنا الصيرفى لا يود أن يعطى المـرأة

---

(١٥٧) الألحـان ص ٧٢ •
(١٥٨) كتب الدكتور عبد العزيز عتيق ذلك فى عام ١٩٣٤ م •

فى شعره من العناية أكثر مما يعطى لكل ناحية أخرى من نواحى الحيـاة التى توحى بالشعر والالهـام »[١٥٩] .

*

أما شعره الذى تعلوه مسحة خفيفة من التصوف فنجد نماذجه فى الكثير من شعره الذى قاله فى الحب والمرأة ، والذى أنشده فى الطبيعة ، وقد سبقت الاشارة الى أن هذا الشاعر كان يمـزج حنينه الى المـرأة بالقلق الصوفى المبهـم ، والى ما فجرته الطبيعة فى نفسـه من الأفكار والنظرات التى تغلفها روح التأمـل ، والاستبطان الـذاتى البعيد ، وما تقود اليه تلك الروح من رؤى صوفية معتبرة .

لقـد راح الصيرفى يتحـدث عن محبوبته فى كثير من التقـدير والاحترام ، ويتخذ لها نظيراً فى حديثه عنها من عالم الطبيعة الذى أحبه ، هذا العالم المحاط بأسرار السـحر والجاذبية ، المغمور بنور الجمـال العلوى ، السابح فى الألحان القدسية الراقية .

وقد رأى ذلك من قبل الدكتور عبد العزيز عتيق حيث قال فى معرض حديثه عن الغزل فى شعر الصيرفى : « على أن شعره فى ذلك لا يخـرج عن كونه غزلا صوفيا ، فهو لا ينشد فى المرأة ما ينشـده كثرة الشعراء مما أفاضوا فى وصفه وذكره ، ولكنه يرجوها لترقأ دموعـه اذا طغى سيل الحوادث »[١٦٠] ، واستشهد على ذلك بقصيدته « تحت ضـوء القمر »[١٦١] .

---

(١٥٩) الألحان الضائعة ص ١٠٢ .
(١٦٠) الألحان ص ١٠٢ .
(١٦١) انظر القصيدة كاملة بنفس الديوان ص ٥٧ — ٦٢ .

يقول فى الجزء الثانى من هذه القصيدة :

جـــدير بأسمى التجلات ممن يناجيك يا بدر نحـــو أى ملاك°
فأنت مثـــير الشعور الجميل ، وباعث روحى بأعلى السّماك°
وأنت سمير الوحيـــد الحـــزين ، وأنت نديـــم المحب الهنىء°
وضـــوؤك حلم الطفولة أو حـــديث الغـــرام السعيد البرىء°
ومذ صـــور الهائمـــون الجمـــال ظهرت أيا بدر فى رســـمهم°
ومذ مهـــد العاشـــقون الأمـــانى بـــدوت أيا بـــدر فى حلمهم°
وكنت لهم وحيهم فى الجمـــال ، وعرفتهم سر هـــذا الجمال°
وما أدركوا للعبـــادة معنى سوى حين لحت بهـــذا الجـــلال°

فهو يمزج حديثه عن القمر بتلك النزعة الصوفية المتسامية ، كمـــا ترى ، وقد أكد تلك النزعة التى بثت فى نفسه روح السكينة فى الأبيات الأخيرة من نفس القصيدة ، التى يقول فيها :

أراك تخفيت خلف السحاب وكم فى الحيـــاة سحائب دجن° !
تمـــر عليـــك فمـــا تستكين لغاراتهـــا ، وهى دوما تشـــن°
وتبـــدو لنا باســـمِ الثغـــر فى هـــزوء بتلك الغيـــوم الكثيفه°
فهـــلا بعثـــت الى أنفسٍ بهـــذى الحيـــاة حيـــارى ضعيفه°

ببعض عزائمـــك الســـاخرات°
بـــكل كؤود من الغـــيم عـــات°
لنســـلك بعـــدُ طريق الحيـــاة
بأقصى هدوء وأقصى ثبـــات ؟ !

وقد لازمته تلك النزعة فى مراحـــل حياته المختلفـــة ففى ديوانـــه « نوافذ الضياء » يقول متحدثا عن « الشاعر » وهو فى الحقيقة يتحدث عن نفسه :

يعيش بين النـاس فى حزنهم مشـاركا صدقا ، وفى الفرحِ
فى قلبـه الدنيـا ، وفى روحـه معالم الجنـة فى السبح (١٦٢)

وفى قصيـدته « زهرة التيوليب » التى اسـتوحاها من صاحـبة « الميني جيب » يقول فى الأبيات الأخيرة منها :

فالحسـن نـور الله
يجـلو بـه الدنيـا
كالطيـف فـى الـرؤيا
يغشى العيـون سـناه
يطـوف ثـم يغيـب
حلمـا بغـير نصيب (١٦٣)

ويقول فى قصيدته : « ابتهالة » :

لا تفـرقى من مقـالى فمـا أسـأت المقـاله
أنا الـذى عـاش يرْوى من النقـاء زلالـه
أوحـى الجمـال اليـه أرق شـعر فقـاله
أسـمو بـكل جميـل وما اشـتهيت ابتـذاله
ومـا رميـت شـباكا ، ولا نصـبت حبـاله
لـكن عبـدت إلهـى فى كل حسن بدالـه
قدسـت كل نبيـل تشـع منـه النبـاله
نهـلت منـه حيـاتى نقيـه وحـلاله
كـبرت للـه مضـفى هـذا السـنا والجـلاله

(١٦٢) نوافذ الضياء ص ٧ .
(١٦٣) نفس الديوان ص ١٢ .

لأنت أنت صلاة قدسية لا محاله
فى معبد من نقاء سمعت فيه بلاله
مؤذناً لخيال رام السحاب فطاله [١٦٤]

ولا شك أن نماذجه فى هذا الاتجاه قد كثرت فى نتاجه كثرة هائلة ، وبخاصة فى شعره فى الطبيعة والمرأة ، وهذا ليس بغريب عليه ، وقد قال فى « حب الحياة » :

لأننا نعيش فى الوجود بالجسوم مرّه
نخاف أن نموت ألف ألف مرّه
فنجرع الدواء : حلوه ومرّه
ونطلب الشفاء صحةً وقدره
وهذه الحياة : شهقةٌ وزفره
نعيش فوق أرضنا عناكب
نبنى شوامخ البيوت
لأننا نخاف أن نموت
بيوتنا بيوت عنكبوت
تفضى بنا وبالمنى الى خرائب

*

ونحن فى الحياة قد نموت ألف مرّه
من خوفنا وحرصنا على الحياة ، وهى مُرّه [١٦٥]

---

(١٦٤) نوافذ الضياء ص ٤٣ — ٤٦ .
(١٦٥) زاد المسافر ص ١٩ ، ٢٠ .

٧ — الشعر القصصي الرمزي

تلحظ أيها القارىء أنني جمعت فى هذا العنوان بين عنصرى : القص والرمز ، لأنه ليس من الانصاف بداءة أن أفصل فى شعر الصيرفى القصصى بين هذين العنصرين ، فلم يكن القص — عنده — غاية فى ذاته ، ولكنه كان يمزج أقاصيصه الشعرية بالرمز ، وبالتأمل والفلسفة أيضا على النحو الذى اجليه من خلال النماذج التى أعرضها عليك عما قليل •

لقد جرى شاعرنا فى شعره الرمزى وراء التعبير عما لا يقع تحت الحس ، واتجه وجهة صوفية نفسية ، وآمن بعالم وراء هذا العالم الحسى ، وحاول العيش فيه ، واستمداد موضوعاته منه ، لأنه هو العالم الكامل الجميل الأبدى الدائم ، ولذا حاول التعبير عن هذا العالم المثالى ، لأنه العالم الحق ، وليست الأشياء الملموسة الا رمزا الى الحقائق المثالية البعيدة عن العالم المحسوس •

وقد جاء شعره فى هذا الصدد تعبيرا عما كان يدور فى نفوس كثير من الشعراء — قبل أن تصير الرمزية خلقا سويا ومذهبا أدبيا — من عجز يكاد يكون تاما فى كثير من الحالات الشعورية أو النفسية التى لا تسعفهم اللغة وربما لا تسعفهم الألحان أيضا عن التعبير عنها تعبيرا كاملا ، أو مباشرا •

والرمزية — على هذا النحو — كانت — عنده — لونا من البث غير المباشر ، فهى تستعيض بالصور عن التقرير ، ولا تأتى بالتشبيهات والاستعارات والمجازات لجامع شكلى بل لجامع نفسى ، أى كوسيلة للتعبير عن انطباعات النفس ، لا عن مظاهر الشكل الخارجى ، تريد ذلك دون أن تهجم على الطابع الوجدانى للشعر الغنائى ، أو تنال منه شيئا •

ومعلوم أن الرمزية لا ترى أن وظيفة الشعر هى استنفاد كل ما فى وجدان الشاعر ، وسكبه فى وجدان الآخــرين ، بل ترى أن وظيفته هى الايحاء عن طريق الصــور والموسيقى بحالات نفسية ، ايحــاء ينــير — عن طريق التأمل — للآخرين نفوسهم ، فيستشعرون وقع التجــربة التى عاناها الشاعر فى حياته الواقعية ، أو بطاقته التصويرية التى تخلق التجارب ، بل وتستطيع أن تبث الحياة فى الحياة ذاتها •

والصيرفى قد يلجأ الى استخدام الرمزية اللغوية ، ولكنه على الرغم من استعماله التعابير المفردة المشبعة بالرمز فى بعض قصــائده لم تذهب بوضــوح فكراته فيهــا كما هو الشــأن فى الكثير من الشــعر الرمزى الحــديث •

ومع الألفاظ تتعاون الموسيقى ، والايقــاع فى ايجاد الجو النفسى الذى يريد الشاعر ابرازه ، وفى جعل تجاريبه زاخرة بكل ألوان الحــركة والنشاط ، وهــذا من شأنه أن يحمــل القــارىء أو المتلقى على أجنحة شفيفة من رائق الخيال ، ويجوس به فى أعمــاق التجربة الشعورية الحية التى عانى منهــا الشاعر طويلا ، فيصاب — عن طريق العدوى — بتــلك الحالة النفسية المركبة التى كانت تموج بها نفس الشاعر قبل أن يصبها ألفاظاً وأساليب فى قالب شعرى •

ولقد آمن الصيرفى أيضا بمرونة الرمز ، وقدرته على نقل كثير من نظرات الفكر والتأمل ، واستيعابه اياها فى كثير من الأحيان ، فــراح يتحدث عن أشياء غيبية حديثا ملؤه اليقظة والوعى ، والادراك بما للرمز من مزايا تذهب جفاف العقل ، وركود الذهن ، وتحــرك مائية الشعر فينساب الى النفس فى عذوبة ورقة ، وسماحة ولين •

*

ففى قصيدته « موت عزرائيل » تختلط الفلسفة بالرمز ، مع شىء يسير من عنصر القص ، وتندمج جميعها فى وحدة أثيرية شفافة من أجل

النهوض بالفكرة ، والتعبير عن التجربة الشعورية التى ماجت نفسه بها طويلا ، وأدائها على خير ما يكون الأداء .

وقد ألمح الدكتور عبد العزيز عتيق فى دراسته عن « الألحان » الى فكرة هذه القصيدة ، ورآها حلوة وعجيبة ، وقال :

« فليس هناك من يجهل أن « عزرائيل » (١٦٧) هو ملك الموت الموكل بقبض الأرواح ، وأن تلك مهمته ، فالشاعر يعبر الى الأمام مئات الآلاف من السنين الى حيث نهاية هذا العالم وفناؤه ، وحيث الرجعى ، وحيث المقر » (١٦٨) .

حيث تبدو الدنيا كأول عهد ... أنشئت فيه بلقعاً لا يسرُّ
قد توارى سكانها وتخلوا ... فتساوى كوخ لديها وقصرُ
لا رياض فيها فترتاح نفس ... لا زهور فيها فينشر عطرُ
قد توارت أنهارها وتلاشى ... كل حسن منها ، وغُيِّب سحرُ
ليس فيها إنس يعيث وجنٌ ... ليس فيها وحشٌ يجوب ونسرُ
ساحه يخْطر السكون عليها ... لا دبيب ، لا همسة تستسرُ

. . . .

سكنت ريحها فليس تدوِّى ... عالم مائت الطبيعة صفرُ

فالشاعر يتصور الحياة بعد هذا الكم الهائل من السنين حيث لا يبقى على وجه الأرض انسان أو حيوان ، أو طير ، أو هوام ، فيرى أن ملك الموت قد قام بمهمته ، وفرغ من أداء رسالته ، وأنه لم يعد له من عمل يؤديه بعد ذلك ، ولا بد أن يسقى بنفس الكأس التى طالما

---

(١٦٧) هذا هو الشائع ، وان لم يثبت فى نص قطعى من القرآن أن اسمه كذلك وكذا فى السنة المطهرة على الأرجح .

(١٦٨) الالحان ص ٩٧ ، ٩٨ .

جرّعها كل كائن ، وهنـا ينظر الله الى الدنيـا فيراها كعهدها الأول فينادى « عزرائيل » آنئذ :

إيه « عزريل » هل تواروا جميعا ⁂ وتلاشوا فى هـذه واستقروا ؟
واستردت أفلاذَها مَنْ نَمتهم ؟ ⁂ «قد تلاشوا مولاى وانفض دهر»
إيه « عزريل »؟حيْنـك الآن دان ⁂ فامض واجرع ما لست منه تفـر

« ولا يكاد « عزرائيل » يسمع هـذا الانذار المحتـوم حتى يسـتولى عليه اليأس والذعر ، ويمضى فى سبيله زائغ الطرف ، سـادر الخطو ، تتشعب به مسالك التفكير فى ماضيه فيرى ما يهوله ويروعه : فهـذه أم قد غال وحيدها ، وتلك فتاة طاح بذويها ، وأسلمها الى الشـقاء ، وهذا حبيب قد نكبه فى حبيبته ، وهـكذا توالت رؤى ضحاياه بخاطره هائلة مخيفة فتملكه الذعر والحزن .. » (١٦٩) :

وترامى تفكـيره فى نـواحٍ ⁂ كان يسعى فيهـا فيحتم أمـرُ
خـادعاً يهبـط الثرى فإذا فى ⁂ قبضتيه : عمـرٌ ، وعمر ، وعمر
محـزنا يبعث الأسى حيث حلَّت ⁂ قدمـاه فيختفى منـه بِشْرُ
قـد تـرامى تفـكيره فـإذاه ⁂ مبصـراً مسرحـا مرائيـه كثْرُ

. . . .

وتوالت رؤى ضحـاياه تبْـدى ⁂ صور الهول ، وهـو أسود نكرُ
كل هذى الأشـباح كانت سراعاً ⁂ فى خيال المـوت الكئيب تمـرُّ

ثم مـاذا ؟

ثم حـان الوقت الذى ليس منه ⁂ فى محيط الأقـدار يومـا مفـر
فـدوت صرخه فمـادت لها الأر ⁂ ض ، وطافت أصداؤها لا تقرّ
ودوت صرخـة فأسلم فيهـا ⁂ ملك المـوت روحـه تستقر (١٧٠)

---

(١٦٩) الألحان الضائعة ص ٩٨ .
(١٧٠) انظر القصيدة كاملة بالألحان ص ٤٥ — ٤٧ .

تلك هى قصة « موت عزرائيل » ، وهى قصة فيها جمال وطرافة ، كما قال الدكتور عتيق فى دراسته عن الألحان ، وتشير هذه القصيدة الى احتفال الصيرفى بالفكرة ، وانتحائه فى الشـــعر ناحيـــة جديدة من حيث طرافة الفكرة ، وسلامة التعبير عنها ، وكذلك من حيث روعة الأداء .

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز عتيق أيضا فى نفس الدراسة أن من أحسن فكر الصيرفى الشعرية فى « الألحان » فكرة قصيدة « الشاعر » (١٧١) ففيهـا يمثل لنا خلق الشاعر ، وكيفية هبوطه الى الأرض ، وأســـباب ذلك فى عرض شعرى شـــائق ، فيرى أنـــه قد رن فى أنحـــاء الوجـــود الأول صوت كأنه الحلم المحبـــوب يطوف بالجفن ، أو المعنى الســـامى يمر بالذهن ، واذا هذا الصـــوت يتجلى غناء للسامعين ، ويتمشى رجـــاء للنائمين ، واذا السامع والنائم كلاهما يهفو الى هذا الصـــوت فى لهف وظمأ ، ثم اذا هذا الصوت صوت الشاعر يرجّع على قيثاره :

أنـــا طيف آت مـــن الفردوسِ أنا همس يسمو على كل همسِ
أنا حـــلم يجـــوب فى كل نفس

أنا نـــور جهلتمـــوه زمـــاناً أنا روض جهلتمـــوه مـــكاناً
أنا وحى لـــم تدركـــوه عيـــاناً

ويتدرج فى فكرته فيرى أنه خلق من النظرة الأولى بين آدم وحواء ، وأن آدم لمـــا بصر بنفسه الى جوار فاتنة جميلة حـــاول النظر اليهـــا معبرا لها عن هواه ، فكان حديثه وتعبيره هو الشعر .

ويرى أن مشيئة الله لم تخلق الشاعر عبثا ، ولكنه خلقه ليكون خير هاتف بحسن هذا الكون ، ولقـــد بات الشاعر مع آدم وحـــواء فى الجنة يؤنسهما بعذاب أغانيه ، كما أطلقته المشيئة فى جنة الخلد حراً ينشـــد للطير والملائك الأشعار فترددده عنه سحراً مذابا ، ولكن أمنا « حـــواء »

(١٧١) انظر دراستى : « صور رمزية فى شعر الصيرفى » بمجلة الاديب البيروتية .

جرّت عليه الهمّ والشقاء بحسنها الجذاب ، وبضروب الغـواية التى جعلت آدم يعصى الإله وينساه ، ويطيع الحسناء فيما نهاه ، واذا الله يقصيهما عن جنته ، وهنا يتحـدث الشاعر عن خروج آدم وحـواء من الجنة وتوديعه إياهما فيقـول :

فى صباح الخـروج ودعت آدمْ وهـو يهوى بزوجه نحـو عالمْ

مجـدب صامت عميق الطلاسمْ

بنشـيد بثثت فيـه حنـانى وغنـاء أذبت فيـه جنـانى

سمع الله فى العـلا ألحـانى

ولما هبط العاشقان (آدم وحـواء) الى الأرض راحـا يستطلعان الحياة ، ومازال بين عينيهما ضياء الله ، وعلى شفتيهما ابتسامة ، ولكنهما تركا الشاعر فى الجنة وحيدا لا يطمئن الى وحدته ، ولا يرتاح الى جنته ، بل لقد حالت محاسنها فى عينيه ، وأمسى ما كان يستخفه ويطربه يستثير شجونه وتبرمه •

ثم يروح يناجى الإلـه ، ويسأله فى النهاية أن يعيد الى هـذه الجنات ماضى أنسها ، والا فانه سيهجرها الى حيث يلحق بآدم وحـواء على ظهر الأرض •

ولكن أمنية من أمانيه لم تتحقق ، فيتمرد على أن يحيـا متفردا فى جنته الخاوية ، التى صارت بادية قاحلة ، ثم يزين لـه الشيطان الفرار من هذه الحياة الفانية ، فيستودع الخالق قيثاره ويخـرج من الجنة :

أودعتـك القيثـار يا خالقـى وعفـت أحـلامى وأطيافيـهْ

وهناك على أبواب الجنة ، وقبل أن يبرحها الى العالم الأرضى ينادى الإله الشاعر آمراً إياه بتأدية رسالته الى الناس :

فخـذ من الجنــة قيثـارتى وانــزل الى الأرض بأنفاسـيه
خفف عـن المتعـب آلامــه واسـبل عليـه رحمتى الحانيه
أنشـده فى بلـواه أنشـودتى وعـزه عـن جنتى النائيـه

ويهبط الشاعر الى الأرض مفتونا بها مشوقا اليها ، فاذا هو يرى من أمرها عجبا ، واذا أبناؤها يجـدون ويهزلون ، ويألمـون ويأملون ، ويراؤون ويصارحون ، ويتواضعون ويشجنون ، ثم اذا هم أشد من ذلك لا يستجيبون لداع غير داعى الشهوات والنزوات ، واذا الموت من ورائهم يتخطفهم دون رحمة أو عطف أو اشفاق :

عجبت لسـكان هـذا الوجـو د ضحـايا ولكنهـم يعبثـون
تبـددهم سـخريات الحيـا ة ، وتجمعهم سخريات المنـون
تصـوفهم من جمـود الصخو ر ، وشهوتهم من ضرام الجنون

وفيها يقول الدكتور عبد العزيز عتيق : « تلك هى فكرة « الشاعر » أو قصة « الشاعر » من مبدئه الى منتهـاه ، وهى قصـة تمثل لنا نفس الشاعر وآماله ورسالته ، ثم قلقه وحيرته ، فهـو لا يطيق الوحدة حتى ولو كان فى فراديس الجنان ، فاذا ما أفلت منهـا الى الآفاق الجـديدة المجهولة تلك التى يخيل اليـه أن السعادة كل السعادة فيها فسرعـان ما تعاوده حيرته وقلقه ، حيث يصطدم بدنيا الحقـائق ، وسرعان ما يهم بأن يودعها ، ولكن .. الى أين ؟

ولقد نجح الشاعر الصيرفى فى تصوير هذه القصـة خير تصوير ، كما عبر عنها أوضح تعبير . وان هذه القصيدة وحـدها لكفيلة أن تنظمه فى سلك الشعراء المتفردين المطبوعين » [(١٧٣)] .

*

(١٧٢) راجع القصيدة كاملة بالالحان الضائعة ص ٣٣ — ٤٢ .
(١٧٣) نفس الديوان ص ٩٧ .

ومن أقاصيصه الرمزية قصيدة بعنوان « موجتان » ، وهى علـى هيئة حوار بين موجتين ، احداهمـا متكبرة متعالية تغـالى فى تكبرها ، وتعاليها وعنادها ، وثانيتهما غـير متكبرة ولا متعالية ، وليس ببعيد أن يكون قد رمز بهاتين الموجتين الى شخصيتين انسانيتين ، ربما كان لهما وجود ملموس فى عالمه ، ولا أحب أن أحـلل هذا الموقف الحوارى الذى أراده الصيرفى ، ولكن الشىء الوحيد الذى يستحق التنويه به فى هـذا الصدد أن الموجـة الشريرة التى سيطرت النزعة السادية عليها حيـث كانت تتلذذ بآلام الآخرين ، وتسعد لرؤية الضحايا والمنكوبين — هـذه الموجة الشريرة استطاعت أن تحتوى الموجة الأخـرى الخيرة ، وهـذا الأمر فى ذاته قد نجد له نظيرا فى دنيا البشر ، ولكن الشـاعر لم يركن الى هذا الهول فأبدى تعاطفه مع الضحايا المصروعين ، وفى ذلك يقـول فى الأبيات الأخيرة من القصيدة :

فكرة صـادقت هـوى فاستعدا	لهجـوم عـلى سـفينة صيْد
ساقها والرجـاء يحـدوه شيخ	عاش يسعى سعى الدؤوب المجدّ
رزقه فـوق راحـة الغيب كنز	رصدته الأقـدار أحرص رصد
هادىء هانىء الفـؤاد رضىّ	يبـذل العمـر بين كـدح وكدّ
البنـون الجيـاع يرجـون منه	عودة الوالـد الحنـون المفدّى
بيـد أن المقـدور يمضى سريعا	حيث يقضى بصـولة المسـتبد
لم يـكن عالمـا بمـا خبـأته	نيـة المـوج فى انحسار ومـدّ
والقضاء السريع يبرم أمـراً	ليس فيـه لدى الردى من مردّ
صرح الهـول بالفجيعة فاربـدّ (م)	لهـا كالعـدو الألـدّ
ومشى العاصف الغضوب يدوّى	فكأن الخضم غـابة أسـد
وعلت موجـة الغـرور فألقـت	بالسـفين الضعيف من مثل طود
وطغت أختهـا تكشر عـن نـا	بِ المنـايا لحـائر دون رُشد

ورمت جثـة الفـريق الى الشط (م) همـودا من بعد عـزم وجـدّ

وضلوع السفين يقذفهـا المـو ج حطاماً فى كل صوب وبُعدِ
وعلت ضحكتان أرهـب صـوتا من ضجيج الوغى ومن قصف رعدِ
وانثنى المـوج بعـد ذلك كالنشـ وان يمضى الى حماه بجهد (١٧٤)

وعلى هذا النحو راح الصيرفى يعالج بعض الموضوعات الأخـرى الداعية الى التأمل ، واعمال الفكر ، والمحركة لأسمى المشاعر وأنبـل الأحاسيس فى قلب الشاعر الانسان ، من مثل قصيدته « حطـام » التى قدمها الى القراء بهذه الكلمات :

« مضت عنه كما تمضى كل أنثى أجابت نداء الغريزة ، وكفرت بنعمة الحب الطاهر ، ولقد أراد أن يرتفع بها الى حيث ترتفع روحه فخلفته حيث هو ، واستمعت الى نداء صاخب فى جسدها ، وسحرتها أوهـام عابرة ، فهبطت من حيث أراد لها السمو ، وهوى بعدها حطام قلب ممزق ، وروح ثائرة على الحب ، فأوصد قلبه دون أى نداء ، وأصم أذنيه عن صدى الماضى وعن هتاف الحاضر ، وأحست هى الكلال فى رحلتها فعادت اليه فى ليلة صخبت رياحها من ندائها ، وعـوت ذئاب ظلامهـا من ريح الإثم ، فلم تجد الا هيكلا ليس وراء جدرانه مؤمن ، ولم تسمع لندائها صدى فى جوانب الليل غير قهقهة الريح ، وسخرية الظلام ، وهى واقفة تناجيـه :

يا عاشقى بالأمس ، يا هاجـرى افتح لى البـاب الذى توصـده
أبالس الليـــل تحـت الدجى وتوقظ الريح •• فمن أقصده ؟

*

خطيئة كانـت •• وما حيلـتى فيمـا يجـر الطبع من شـقوةِ
مضيت لا أسـمع فى خاطـرى الا نـداء الاثـم فى نشـوةَ

---

(١٧٤) رجع الصدى ص ٧٧ — ٨١ ، المجموعة الثلاثية .

كبـوت والأنثى اذا ما كبـت° لن يسـتطيع العقـل انهاضها
ضعفت والأنثـى اذا استضعفت شكا كفـاح النصر مَنْ° راضها

. . . .

فافتح لى البـاب ووقٍّ الردى خاطئة جـاءت هنـا لاجئـه°
وكـن يسوعى ، واعف عن زلتى لم عفا عن « مريمَ الخاطئه° »

وواضح أنه يعالج فى هذه الأبيات فكرة الخطيئة والنـدم ، حـين تسقط المرأة فى حبائل الشيطان ، وتبيع الاثم فى سوق الفجـور ، ثم يتحرك فى نفسها الضمير ، فتروح تبحث عن طريق الخلاص ، علّها تهتدى اليه ، ولكنها قد تفاجأ بأن حياتها قد أصبحت شائهة ، وأنهـا نفسـها قد صارت حطاما ، أو ما يشبه الحطـام فتضرب فى تيهها على غـير اهتـداء ، وتسخر الريح من وحدتها وشقوتها تحت جنح الظلام :

أصيخ سـمعـى ثم لا نبـأة ولا نـداء هاتـف فى حنـان
غـير صـفير الريـح مستهزئاً بوحـدتى بين خـلاء المـكان

*

لا تسخرى يا ريح من وحدتى ومن شـقائى تحت جنح الظلام
ثورى على غـيرى ولا تعصفى انى حطام باحث عن حطام (١٧٥)

ومن هذا الوادى قصيدته « غيْرَة » التى كتبها على هيئة حـوار بين زهـرة وطائر :

قالت الزهرة للطائر : ما هـذا البريق
من عيون مزقت أضواؤها الستر الصفيق

---

(١٧٥) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ص ١١٠ — ١١٩ .

تقصد النجوم التى لا تمل السهر ، الكاشفة عن حسنها الفتـان فى دَلّ رقيق ، والتى ترنو الى الأرض كما يرنو المشـوق ، ولذا أكـدت للطائر أن تلك النجـوم من أفتن ما شاهدت عيناها فى الكون النسيق .

وأثار هذا المديحُ الطائر فغار من النجم ، وبدت غيرته الحمقـاء نارا فى عينيه ، فهز جنحيه على الغصن كالاعصار ، فهوت الزهـرة عن غصنها ، تهدّها صولة الجبـار الأحمق :

ومضى الطائر فى الجو الى النجم صعودا
ثائراً ينفض عن سـاقيه للريح القيـودا
لم يبـال العاصف الأهوج والليل المريدا
كلما أوغـل فى الدرب رأى الدرب بعيدا

واذا النجوم تنسل فى شرود أمام الفجـر القادم من المشرق يجتاز الحـدود ، و :

واذا الطائر فى الرحلة قـد أعيا جهـودا

فهوى من عالم النجم على الأرض شهيدا

ويطلع الصبح على الكون ، وتفر أمام ألسنته البيضـاء فلول الظلام المندحر ، فاذا الضحـايا :

زهرة كفنهـا الصمت ، وللعطـر بقـايا
وشـهيد مزقـت جثتـه كـف المنـايا
وأمـانىّ مع الليـل توارت فى الزوايا
وكفاح بلـغ الجهـد مـداه فتعـايا
عبثُ الأقـدار فى الدهـر بألباب البرايا
كم وراء القدر العابث بالناس الخفايا (١٧٦)

❋

(١٧٦) حول النور ، المجموعة الثلاثية ص ١٥٥ — ١٥٨ .

شــهرزاد

ومادمت قد تحدثت عن شعره القصصى الرمزى ، فلا ينبغى بحال أن أغفل الحديث عن « شهرزاد » التى نشرها فى طبعة مستقلة ، خرجت على الناس فى عام ثمانين وتسعمائة وألف .

لقد أطلت شهرزاد علينا فى سمت جديد ، وهيئة جديدة من خلال شعر الصيرفى الذى استطاع بمقدرته الفنية العاليــة وبملكته الشــعرية الصّــناع أن يجوس خــلال الأعمــاق البعيدة فى نفس شهرزاد ، تلك الجميلة الألمعية ، والفاتنة الذكية ، وشهريار ، هذا الملك الدموى الــذى سحره بيانها ، وأخضعه قصصها الجميل العذب لهــا ، فأسلم الجيــد والمقاليد ، وأقلع الى الأبــد عن سفك دماء الأبرياء والمظلومين .

وقد أطلع الأستاذ الصيرفى الأستاذ توفيق الحكيم ، والدكتورين : حسين فوزى ، وعبد الحميد يونس على شهرزاد . قبل أن تطلع عــلى الناس فى ثوبها الجــديد ، وقبل أن تمثل للطبع بدار المعــارف فلاقت من هؤلاء استجادة واستحسانا ، فسجلوا انطباعهم نحــوها ، وملاحظهم عليهــا ، وكلها ملاحظ تعلى من شأن هذا الشــاعر ، وتثبت له الفضــل فى ميدانه ، وتقر له بالسبق فى مضمار التجــديد فى الشعر المعاصر .

فقد كتب الأستاذ توفيق الحكيم رسالة بعث بها الى الشاعر مؤرخة فى الثــانى عشر من يناير سنة تســع وســتين وتسعمائة بعــد الألف يقول فيها :

« عزيزى الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفى »

طالعت شهرزادك منظومة بقلمك كعقد لؤلؤ منضــود ، وهى الــى جانب تألقها باللفظ المبين تسمو بما أودعته فؤادها من معنى نبيل .

ولا شك — عندى — أن شهرزادك تبسم ابتسامة الرضا بهــذه

الصورة الجديدة التى تضاف الى عديد الصور التى ظهرت لها فى مختلف الفنون على مدى الحقب والسنين •

وانى اذا شكرك أن أتحت لى فرصة هذه الجلوة بأن أطلعتنى على شهرزادك قبل أن تطلع على الناس أرجو أن تتقبل خالص تحيتى مـــع تقـــديرى » •

وطالع الدكتور حسين فوزى شهرزاد الصيرفى أيضا فكتب مقـــاله : « تنويعات على لحن شهريار » ونشره بجريدة « الأهرام » فى عـــددها الصادر فى الخامس والعشرين من ابريل سنة تســـع وستين وتسعمائة بعد الألف •

وأما الدكتور عبد الحميد يونس فقـــد نهض بعبء التقديم لهـــذا العمل الشعرى الجيد ، وأكد فى نهايته أن شهرزاد الصيرفى التى استمع اليها وهى تناجيه ، وتناجى كل انسان غيره تثبت له أن المرأة انســـان له ارادته وهدفه ، وقال : « وانـــه ليسعدنى أن أقدمها الى القـــارىء العربى لتكون وثيقة ابداعية من وثائق جيلنا وعصرنا » (*) •

كان « شهريار » عاهلا مجنونا متعطشا للدم ، ضحى بالكثيرات ممن تزوج بهن من عذارى مملكته ، فلم تمكث معه واحـــدة منهن بعد زوجته السلطانة التى خانته ســـوى ليلة واحدة ، يسلمها بعدها الى الجـــلاد فى الصباح حتى يئس وزير الميمنة من العثور على فتيات يبنى بهن السفاح ، وأخيرا تقدمت ابنة الوزير لتحاول صرف السلطان عن غيه الدموى •

وبفضل حكاية شهريار ، واكتشافه السلطانة بين ذراعى عبـــد من عبيده ، وقتل الفاجرة ، ودأبه على اعـــدام كل عروس فى صباح البنـــاء بها انطلقت شهرزاد تلهى السلطان ، وتسليه بأعجب القصص من الشرق والغرب ، لم يعتورها كلال فى البدن ، ولا ضعف فى الروح ، ولا وهـــن

(*) شهرزاد ص ١١ •

فى قوة الابداع ، وقد نجحت فى ابعاد السيف عن عنقها حين قضت على البهيمية والوحشية فى الرجل ، وحـين ختمت آخر القصـة فى الليـلة الأولى بعـد الألف .

وهذه القصة عالجها كتاب كثيرون شرقيون وغربيون نذكر من بينهم « توفيق الحكيم ، وطه حسين ، وعـلى أحمد باكثير ، وعزيز أباظة ، و « موريس فرن » و « سوبر فيرد » وسواهم .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الصيرفى لم يعـد صياغة هذه القصة من جديد ، كما يتبادر الى الذهن من العنوان ، ولكنه استثمر فكرتهـا الشـائعة فى شـعره الرقيق ، واستطاع النفـاذ الى أعمق المسـارب النفسـية « لشهرزاد » و « شهريار » معـا فجاءت صـورة مستقصية لأسمى المشاعر الانسانية وأنبلها ، مع براعة واضحة فى رسم الصـور والظلال ، وتوشيتها بألوان زاهية من الخيـال ، واضافة التفاصيل التى تنم عن فتنة بارعـة ، وذهن خصب ، وملكة حاضرة .

*

افتتح الصيرفى شهرزاده بهذه الرباعيات عـلى لسـان تلك البطلة المخلدة على الدهـر :

يا صبايا الحسن يا غيد الجمال
يا ضحـايا عابث طاغى الخيال
ظامىء للـدم من حرّ وغالى
كـم حسـان قد طوتهن الليالى

الـدم القـانى شراب لا يملهْ
والشباب الغض لهـو يستحلهْ
جُنّ والمجنون هل يرجع عقلهْ ؟
يسبح الموت لديه كلما أطبق ليلهْ

يا صبايا الحسن فى الترب وفوقه°
جـاء دورى وغدا تسمع نعقه°
دمعة تسكب فى حـزن وحرقه°
ثم يأتى الليـلكى يبعث شوقه°

وتبلغ شهرزاد الصيرفى هذه مئة رباعية وستا موزعة بين العناوين التاليـة : « وكان مسـاء » ، « وكان صباح » ، « مـع الحيـاة » ، «الليلة الثانية بعد الألف » •

ويشمل الجزء الأول من هذا العمل الشعرى أربعا وأربعين رباعية ، والثانى ثلاث عشرة رباعية ، ومما يلفت النظـر فى هذا الجزء رباعيتاه اللتان افتتحه بهمـا :

ليلة تمضى وتمضى بعـد ليـله°
وصياح الديك لم تدركه غفـله°
مـؤذن أن أختـم الليل بقبله°
فأراه فـوق صـدرى يتدله°

صولة الجبار صارت ضعف عاشق°
غضبةالبركان صارت همس وامق°
ياله بين يدى كالطفـل غـارق°
فى الكرى والقلب بالرقة خافق°

وقد بلغ الأمر بشهرزاد مبلغه اذ رأت هـذا العاهل الجبار طفـلا يغرق فى الكرى بين ذراعيها البضتين الناعمتين بينما قلبه يخفق بالرقة ، ويزخر بالحنان ، فأخـذت تعجب له ، وتندهش لأمره ، من هيامه بهـا وجدا ، وذوبانه بين أحضانها عشقا ، فتقول :

أو أنت القاتل السـفاح حقـا ؟
أو أنت المزهق الأرواح ألقا (**)
لا أرى الا ضعيفـا مسـترقا
هام وجـدا فى هواه ذاب عشقا

ويبلغ الجزء الثالث أربعا وثلاثين رباعية ، يقول فى الأخيـرة منها على لسان شهرزاد أيضا ، حاكية عن هذا العاهل الجبـار الـذى هدأت فى عروقه فورة الانتقـام :

لم أعـد ألمـح فى عينيـه شرا
لم يعد يخفى وراء الستر غدرا
بدلت فيـه الليالى السود أخرى
نسى الماضى الـذى جرع مـرا

وتمضى الليالى ، وقصص شهرزاد بدفـع الملك الى الانعتـاق عن العالم الأرضى ليحلق فى سموات عالية من الجمال والسحر ، حتى اذا حط عـلى الأرض من جديد كان الأمن يرفرف على المدينة ، وتسرى فى ليلها روح السكينة .

اقرأ ما ذكره فى الرباعية التى صـدر بها الجـزء الرابع المعنون بـ « الليلة الثانية بعد الألف » والذى يبلغ خمس عشرة رباعية :

رفرف الأمن على هذى المدينـه
وسرت فى ليلهـا روح السكينه
لا انتقام لا اغتصاب لا ضغينه
فرحت مثلى وقـد كانت حزينه

ما أجمل أن ترى شهرزاد ثمار فطنتها وذكائها ! وما أروع أن تتبدل دموع الحزن الى عبرات الفرح ! وما أحيلى الحياة فى مجتمع تتلاشى فيه

(**) الألق : الجنون .

روح الانتقام وغريزة الاغتصاب ! وما أجدر أن يروى الناس عنها تلك الليالى ، إنها خالدة لم تمت خاصة بعد أن روى الشعر قصتها ، وأحيا الفن صورتها ، وما أجمل أن ينتهى هذا اللحن الفخم بمثل قوله فى الرباعية الأخيرة :

الصدى خلف الدجى ، خلف السواد
يتخطى كل حد فى امتداد
يتخطى كل حد فى امتداد
هاتفا فى كل قطر ، كل ناد
شهرزاد .. شهرزاد .. شهرزاد

لقد جاءت فكرة الصيرفى فى هذا العمل جيدة وبارعة ، وقد مزج فى الأسلوب والفكرة بين فكر العالم ودقته ، وخيال الشاعر وتحليقه ، وزاد من قوة تلك الفكرة احاطته بها ، واستقصاؤه اياها ، هذا بالاضافة الى ما امتاز به من موسيقية عذبة وألحان ساحرة وصفاء ديباجة ، ورهافة ذوق ، كل ذلك عن احساس صادق ، وغريزة موهوبة ، وهذا بعض ما يميز هذا الشاعر بين شعراء جيله ، وشعرائنا المعاصرين .

٨ — الشعر الوطنى

حين قال الدكتور عبد العزيز عتيق عن شاعرنا الصيرفى : انه لا يجرى — فى ديوانه (الألحان) طبعا — على مألوف الشعراء ، وما تواضعوا عليه من النظم فى شتى الأغراض المألوفة : كالغزل ، والرثاء ، والوطنية ، والوصف ، وما شابه ذلك ، كلا فأنت لا تسعد فى ديوانه بهذا التقسيم التقليدى ، ولكنه ينتقل بك فى دنياه الخاصة فاذا بك ترى دنيا جديدة لها خواصها ومميزاتها ، فأنت تتسمع هتفات الأطيار فى الأصائل والأسحار ، وأنت ترى الجداول والأنهار تتدفق فى دعة واطمئنان ، وأنت ترى الصخور المنعطفات على الشواطىء ، وأنت تبصر الحدائق والرياض ، والصحارى والقفار ، والجبال والتلال ،

ولكنها لا تلتقى مع مثيلاتها فى دنيا الناس الا بالاسم فقط ، ثم تنفرد هى — عنده — بعد ذلك بالحياة — والنبض والروعة والسحر والجمـال والجلال » (١٧٧) حين قال ذلك فانه قد ترجـم عن طبيعة نفس الصيرفى الشاعرة التى لم تعرف الوقوف أو الجمود عند العـديد من الحـدود التى التزمهـا كثير من شعراء العربية من قبل حتى العصر الحـديث ، لأنه صمم — كما قال — على أن يكون جديدا ، وليد نفسـه وابتكارها ، لا وليد تقليد ومحاكاة (١٧٨) .

وحين حملتنى ضرورات البحث على عرض شعره فى دواوينه السابقة من خلال الموضوعات التى وقع اختيارى عليهـا ، وتناولتها فيما سبق ، ومن خلال شعره فى الوطنية ، وشعره فى الحنين الى موطن الذكريات — لم أغفل ما قاله الدكتور عبد العزيز عتيق من خمسة عقود من الزمان ، بل كنت أدرك طبيعة الفكرة التى عالجها فى هذا الصدد ، ولذلك نوهت فى أكثر من موضع فيما سبق من صفحات هذه الدراسة الى طبيعة شعر الصيرفى الذى لا يسهل حصره فى نطاق عدد من الموضوعات ، وان كثرت ، وفى التقليدية منها خاصة ، اذ كثيرا ما تتداخل فى حيز القصيدة الواحدة ، فيختلط شعر الحب والمرأة بشعر الطبيعة ، ويمتزج شـعر الرثاء بشعر الوطنية ، وهكذا .

وحين استقر رأيى على عرض شعره فى هذه الدراسة من خـلال تلك الموضوعات فقـد رأيتنى مضطرا فى كل موضـوع منها الى بيـان ما يكتنفه من ملامح التجديد ، وما طرأ عليـه من اضافات تعد جـديدة فى بابها ، مما يجعل شعره صادق الدلالة فى مجيئه بالفعل — كما أراده — وليد نفسه وابتكارها ، لا وليد تقليد ومحاكاة .

والشىء اللافت للنظر فى شعر الصيرفى أنه لم يتورط فى شىء منـه الى نفـاق أو مراءاة ، وهو ما قد يتورط فيـه كثير من الشعراء ، وانما

---

(١٧٧) الالحان ص ٩٢ .

(١٧٨) انظر : نفس الديوان ص ١٠ .

جاء هذا الشعر ترجمة أمينـــة عن نفسه ، ومؤشرا صادقا عـــلى ما كان يتردد فى هذه النفس من سلوك سوىّ رسمه الشـــاعر ذاته فى الكثير من أبيات قصـــائده •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى جاءت الموضوعات التى وقع اختيارى عليها لعرض شعر الصيرفى من خلالها فى دواوينه المختلفة بعيدة — عـــلى ما أرى ، ويـــرى القـــارىء أو المتلقى أيضـــا — عن تلك الموضـــوعات أو الأغراض الشعرية القديمة المألوفة التى اعتاد الشعراء ســـلفا كتابة قصائدهم فيها ، وحين تحـــدثت عن شعر الرثاء — عنده — ، وهو من الموضوعات التى طرقها السابقون فى عصـــور الأدب المختلفة — حرصت على ابراز طبيعة شعره فى هذا الموضوع ، وأكدت فى أكثر من موضـــع أنها طبيعة متفردة متميزة ، الأمر الذى يؤكد جدة الشـــاعر وأصالته فى جلّ ما تناوله من موضوعات ، حتى فيما يـُظن أنه من الموضوعات التقليدية كالـــرثاء •

*

ومن المعلوم أن الانسان مفطور منذ الأزل على حب وطنه ، وكثيرا ما تغنى الشعراء بأوطانهم ، وقد تكـــون طبيعة المرحلة التى اجتـــازها العرب منذ بداية العصر الحديث من أبرز الدوافع وراء الاكثار من شـــعر الوطنية والحماسة ، ولكن الذى أراه أن شـــاعرنا الصيرفى ربما ألهتـــه همومه الخاصة فى بعض سنى عمره عن قضـــايا أمته وشعبه ، فـــلم نظفر منه بقصـــائد تضارع قصائد الشابى الوطنية — مثلا ، أو أحمد زكى أبى شادى ، أو على محمود طه ، وهم من شعراء مدرســـة أبولـّو التى عمل هو نفسه مع أبى شادى على تأسيسها فى عام ١٩٣٢ •

وحين يكتب هذا الشاعر الكبير فى الوطنية فانه لم يجـــر على سنن السابقين أيضا فيه ، بل كان صاحب شخصية متميزة ، لم تقع يوما تحت تأثير شخصية سياسية ، ولم تنجرف فى أى تيـــار من أى لـــون فى هذا

المجـــال ، بل كان الوطن دائما منتهى حبه واعزازه واكباره باستثناء بعض القصائد التى كتبهـــا فى بعض أطوار حيـــاته ، والأخير منها خاصـــة ، وسأضرب صفحا عن هذا الشعر الذى أعنيه ، تاركا للقارىء تقدير موقفى من تجاهلى الحديث عنه ، بل أترك ذلك للشاعر نفسه أيضا •

ومن المعلوم أن الشاعر — أى شاعر — قد يترجم عن حبّه وطنه عن طريق البثّ المباشر ، وقد يعمد فى ذلك الى بعض الوســـائط التى يفصح من خلالها عن هذا الحب ، والاخلاص فيه ، فالحـــديث عن الآثار القديمة — مثلا — قد يتخذ منه الشاعر معبرا للترجمة عن حب الوطن ، والحديث عن ســـير العظماء والنبـــلاء السابقين قد يكون كذلك فرصـــة جيدة لترجمة الشاعر من خلالها عن هذا الحب ، وتذكير أبنـــاء أمتـــه وشعبه بماضيهم الجليل ، ودعوتهم الى وصل ماضى أمتهم الماجد بآتيه ، وقد يكون الرثاء أيضـــا من الفرص التى تتيحها له الأحـــداث للاعلان عن هذا الحب من خلال الحديث عمن يرثيهم من ذوى الكفاءة الوطنيـــة العالية ، من أبناء أمته ، وقد يأتى الحـــديث عن الموضوع نفســـه من خلال فكرة رمزية ، يدرك الشاعر الجـــدوى الحقيقية من معالجتها ربما أكثر من فِكَرٍ أخرى صريحة الدلالة على حماسته ووطنيته •

فماذا كانت طبيعة الموقع الذى شغله الصيرفى من بين تلك المجالات ، وما مدى توفيقه فى هذا اللون ؟ ذلك ما أعمل على تجليته من خلال النماذج التى أعرضها عليك الآن •

*

اذا كان ديوانه « الألحـــان •• » قد خلا من شـــعر الوطنية فان ديوانه « الشروق » قد اشتمل على شىء منه ، ممثلا فى قصيدته « سقوط الطيـــار » التى أهـــداها الى أرواح الشهداء من نســـور الجـــو المصرى وغـــيرها •

وأعد فأؤكد أنه لم يجر فى هذه القصيدة على سنن الكثيرين غيره من الشعراء ، حيث اشتملت القصيدة على بعض النظرات التأملية ، والوقفات الواعية التى لم تفقد شعره فيها حرارته ، أو تذهب بوهجه ، استمع اليه يقول فى بعض أبياتها :

علوت وكنت للأطيار ندا ... جسورا فى مغامرة الجواء
وطفت كفكرة فى الذهن طافت ... وسدت على الزعازع باجتراء

ثم يبين فى أبياته التالية كيف أن الطبيعة الأم أبت أن يهجرها أبناؤها ، مطالبة ببقائهم على الولاء لها ، كما تأبى ظلما على الطيار هذا السمو ، فتسلط عيه القضاء ليسدد سهمه اليه فى غير وعى :

ولكن الطبيعة وهى سر ... تطالب بالبقاء على الولاء
وكيف نظل نخطر فى حماها ... وقد حفلت بأنواع الشقاء ؟
أبت هذا السمو عليك ظلما ... فسلطت القضاء بالاشتفاء
فسدد سهمه فى غير وعى ... ومر السهم فى غير التواء

• • • • •   • • • • •

سقطت محطما وعليك مجد ... يظل الدهر مرفوع اللواء
نزلت على الثرى برهان حق ... على جور الطبيعة فى القضاء
تضن على الأبى بأن يولى ... عن الدنيا ليسكن فى العلاء
وتلزمه الخضوع فان تأبى ... فجوف الأرض محتوم الجزاء

انه شعر لم يخل من الفكرة ، ولم يخل أيضا من التأمل ، وقد اتخذ من سقوط الطيار جسرا يعبر عليه الى أمثال تلك المعانى التى رأيناها فى تلك الأبيات ، وفى البيتين الأخيرين خاصة ، اللذين جاءا تعبيرا عن أشياء مستكنة فى نفسه ، فالطبيعة قد تكون معاندة فتأبى على أبنائها الأباة أن يستعلوا عليها ، وتلزمهم أبدا أن يخضعوا لها ، والا كان الجزاء حفرة فى جوف الأرض تفرغ فيها هذه الأعمار الغالية ، ناهيك عما فى

أبياته التاليات من علائم الشاعرية الحقة ، وآيات الفن الصادق والفكر العميق :

لم اختار القضاء الأرض مثوى ولم يختر لنا حجب الفضاء؟
أيخشى أن تملكنا سماء؟ وتودعنا حشاشات الهواء
فنصبح لا يروعنا لقاء ولا نمشى على سبيل الفناء ؟ (١٧٩)

❋

ومنه فى هذا الديوان أيضا « نشيد الثورة » الذى كتبه ابان الثورة التى اندلعت فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ م ، ولكن منع نشره حينذاك ، ومنه :

تحرك يا أبىّ الضيم ، وانهض
فحقك فى بلادك بات يرفض
وأى جفون مسلوبين تغمض
اذا ما الأسد ديس على حماها

❋

بلادك لقمة فى عين جائع
وحقك نهبة فى كف طامع
وأنت مع المذلة جد قابع
فقم وأزح عن النيل السفاها (١٨٠)

ومنه « الشاعر الشهيد » التى ألقيت فى الحفلة التأبينية التى أقامتها (جمعية أبولو) فى مدينة الاسكندرية مساء يوم ١٧ يناير سنة ١٩٣٦ لذكرى الشهيد الشاعر محمد عبد الحكم الجَرَّاحى الذى استشهد فى الحركة الوطنية التى قامت فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ (١٨١) .

---

(١٧٩) راجع القصيدة كاملة بديوان : الشروق ص ١٢ — ١٤ .
(١٨٠) راجعه كاملا بالديوان نفسه ص ٨٩ — ٩١ .
(١٨١) راجعها كاملة بنفس الديوان أيضا ص ٩٢ — ٩٥ .

وفى ديوانه « رجع الصدى » يكتب قصيدة بعنوان « عبادة الأصنام » قدمها بقوله : « يقضى على بعض الشعوب أن تستكين الى طاغية يفرض شخصيته عليها فيفقد أفرادها حرية الفكر ، وتصبح الكلمة كلمته ، والرأى رأيه ويسلط أعوانه على خصومه ، وتحت رهبة طغيانه وجبروته يقف الشعب منه وقفة عابد الصنم » .

وفى هذه الأبيات تصوير لأحد المحكومين من هؤلاء يوجه خطابه الى عابد من عباد الأصنام الحجرية (موازنا) بين هذه العبادة ، وعبادة الصنم المتحرك من لحم ودم :

أيها المخلص العبادة للصخـ ـر تحصن من موجة الإلحاد
فغداً تفقد الشعور وتحيا كجماد مسخَّر لجماد
صنم صامت من الحجر الصلـ ـد لخير من ناطق بالفساد

. . . .

ان تكن مطلق العقيدة يا صا ح فانى مقيد فى اعتقادى
ملجئى السجن ان دعوت الى الحق (م) مسوقا فى موكب الأصفاد
الوشايات والدسائس والرعـ ـب سلاح فى وجه كل انتقاد
وهبوط الأحرار من منبر الحق (م) صعود لمنبر الجلاد (١٨٣)

وفكر الصيرفى جديد فى هذا الباب ، ولا أعتقد أن أحداً يخالفنى فى هذا الحكم ، وبعض معانيه فيه ، بل الكثير منها غير مسبوق اليها على ما أرى ، وان ذكرنا وزن هذه القصيدة وقافيتها بقصيدة أبى العلاء فى رثاء صديقه الفقيه الحنفى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

---

(١٨٣) راجع القصيدة كاملة بديوانه رجع الصدى ص ٤٥ — ٤٨ .

كما جاءت قصيدته « الشاعر الشهيد » التى نوهت بها من قبل مزيجا من فن البحترى وفن المتنبى مجتمعين ، فقوله فى هذه القصيدة :

تقدم يلقى الموت ، والصبر حازمه   فتىً هيأته للجهاد عزائمه

يذكرنا باحدى مدائح البحترى التى يقول فيها :

هو الملك الموهوب للدين والعلى   فللـه تقـواه وللمجـد سائره

وذلك اذا تجاوزنا موضوع القصيدتين ، وحرف الروى فى كل منهما .

ومن قصائد هذا الديوان الوطنية أيضا : « الجندى المجهول » ، و « ميلاد أمة » و « موكب البعث » و « شريعة الغاب » .

وفى ديوانه « صلواتى أنا » : « غزة » و « رسالة الى جونسون » .

وفى ديوانه « ورقات متفرقات » : « القدس » و « غصن السلام » .

*

ولقد اتخذ قصائد الرثاء معبرا للحديث عن الوطن ، فعلى سبيل المثال حين رثى الدكتور محمد صبرى السربونى فى قصيدته « فقيد الأدب والتاريخ » نراه يقول مخاطبا المرثى :

تخذت فى العزلة من أخلصوا   الكتب والقرطاس والحبرا
ترقب أوراق الورى ساخرا   ممن نسوا فى خلفهم « مصرا »
ومن نسوا تاريخ أسلافهم   وهم أباة سيروا الدهرا
و « مصر » كم تنجب — فى طيها   تعاقب الدهر — الفتى الحرا
ان مات منهم واحد كشفت   عن غيره فى غرمه — السترا
وكم طوت من جحفل جائر   من «قيصر» حينا ومن «كسرى»
ودوخت من غائر غادر   وانتزعت من جيشه النصرا (١٨٣)

---

(١٨٣) راجع القصيدة كاملة بديوان : عودة الوحى ص ٣٥ — ٣٧ .

وعلى غرارها « شهيد السلام » فى رثاء الأديب يوسف السباعى « الذى اغتالته يد الغدر فى خسة فى ١٨ فبراير ١٩٧٨ على مشهد من المؤتمرين والمتآمرين من فوق منبر الدفاع عن قضايا السلام فى كل بقاع الدنيا على أرض غريبة عن الوطن » .

كما تحدث عن مجد الاسلام الزائل فى الأندلس فى قصيدته « وداع الحمراء » بديوانه « رجع الصدى » .

وهكذا كان الصيرفى متجاوبا مع قضايا أمته الكبرى ، وجاء شعره الوطنى تعبيرا صادقا عن آماله وآلامه ، وآمال وآلام أمته ، ولم يكن معزولا عن الناس والحياة كما ذهب الى ذلك بعض الناقدين (١٨٤) قانعا بترديد ألحانه « الضائعة » ، صحيح أنه لم يكثر من الشعر الوطنى أو الحماسى ، لأنه كان مشدودا الى همومه وآلامه التى جرها الدهر عليه ، وصرفته فى بعض سنى عمره عن هذا اللون ، ولكن الأحداث الكبرى حركته وهزته هزا عنيفا فشارك الشعب أفراحه وأتراحه .

وحين تحدث فى بعض نتاجه عن بعض المناسبات الوطنية الكبرى التى غيرت كثيرا من مجريات الأحداث فى وطنه ، فانه لم يجر فى نفس المضمار الذى جرى فيه غيره ، ولكنه حاول أن يكون ذا شخصية متميزة فيه ، فقد حول اتجاه التجربة وخرج بها عن حدود المناسبة الضيقة الى أفق أكثر رحابة ، فى سبيل أن تصبح تجربته انسانية عامة ، تخاطب الوجدان ، وتحرك المشاعر الانسانية فى كل عصر ، كما عنى بالوطن كرمز شامخ تتضاءل أمامه كل الزعامات ، أو البطولات ، أو العبقريات الفردية التى لا تخلد فى الشعر خلود هذا الرمز الشامخ ، فان هى خلّدت فانما تستمد من مقومات خلودها من الوطن الشىء الكثير ، وذلك بعض ما يميز الصيرفى بين أقرانه من شعراء الوطنية المعاصرين .

---

(١٨٤) انظر : فى الثقافة المصرية ، لمحمود امين العالم ، وعبد العظيم انيس ص ١١٩ ، وايضا : فى نقد الشعر للدكتور محمود الربيعى ص ٧٧ .

٩ ــ شعر الحنين الى مواطن الذكريات

ومواطن الذكريات تتراوح بين مرابع الطبيعة ، ومدارج الحب التى كثيرا ما تردد عليها ، وذرف عندها سخين الدموع ، وحار العبرات ، وقد يصيبه الهرب الى تلك المواطن بخيبة الأمل ، ويدفعه قسرا الى الاصطدام بالواقع المرير الذى يضاعف من مظاهر الحسرة فى نفسه ، ومن احساسه بالمرارة لهذه الحياة الدامية التى كثيرا ما تظهر فجائعها فى صورة آلة .

وقـد كان الصيرفى واحدا من شـعراء أبولو الـذين أكثروا من أشعارهم فى هذا الموضوع (١٨٥) ولا شك أن الحنين الى مواطن الذكريات والرجوع اليها فى حزن وتلهف من سمات « الرومانتيكية » المذهبية فى الغرب ، وقد كانت « الرومانتيكية » هى المذهب الغالب الذى تجمع من حوله هؤلاء الشعراء الشباب حينذاك .

وقد ظهر هذا اللون بصـورة واضحة فى دواوينه المتأخرة ، حـين تقدم بـه الزمن ، وأصبحت المواطن التى اجتـازها فى الماضى لونا من الذكريات التى تداعب وجدانه ، ويود لو أسعفه الزمن بالعـود اليهـا من جديد ، كى يصل من ماضيه ما انقطع ، فيعيش لحظات آنسـات فى حمى كل ما يذكره بهذا الماضى .

ففى ديوانه « صلواتى أنا » يكتب قصيدة بعنوان « رأس البر » يعود تاريخها الى أول أغسطس ١٩٦٥ ، وكان قـد وقف على اللسـان الممتد فى البحر الأبيض المتوسط ، حيث يلتقى هـذا البحر بالنيـل فى « رأس البر » .. فسبحت خواطره فى هذا المصيف ، بعد أن تغـيرت مظاهره عن صورته الأولى ، التى كانت تحتفظ بها ذاكرته منـذ صباه ، ومنهـا :

---

(١٨٥) راجع كتابى : مدرسة ابولو الشعرية فى ضوء النقد الحـديث ط دار المعارف ص ٢٥٦ — ٢٦١ .

تغـــير الزمـــان ْ   تبـــــدل المــكان ْ
تجبر الانســـــان ْ !   بباهـــر الضــو ّ !

*

فهل تغــيرت نفوسنا تغــير الزمان ؟
وهــل تبدلت قلوبنا تبــدل المكان ؟

وهل أضاء النور هذا مهجة الانسان ؟ (١٨٦)

وقد خلط فى هذا الشعر ذكرياته الحاليات بالتأمل ، وهى سمة من أوضح سماته فى التعبير والأداء .

ويكتب فى هذا الديوان قصيدته « مسرح الذكر » وكان قد عــاد الى مسقط رأسه « دمياط » بعــد ثلاثين عاما (٣ أغسطس ١٩٦٥) ، ووقف على مسارح طفولته وصباه ، وقد تغيرت معالمها ، وحال فيها كل شىء فأخذ يهتف بهذه الأبيــات :

أنا هنــا

ألمــح نفسى هاهنــا

ألمــح طفــلا لاهيـــــا   بصــفوه عــن الحـــزن ْ
عن الأسى عــن الشــجن ْ   عن الهمـــوم والمحـــن ْ
يحمـــل لوحــا ســاذجا   كالليــــل لامــع البــدن ْ
يخــط فيـــه صـــورا   وأحــرف اسمه « حسن ْ »
ويجهـــل المكتــوب خلــف اللـــوح خطـــه الزمـــن ْ

لقد حركت مسارح طفولته وصباه كثيرا من الرؤى التى كانت من قبل ساكنة هامدة ، واختلطت فى نفسه أحاسيس الماضى بكل ما كان يسبح

---

(١٨٦) صلواتى انا ص ٢٣ — ٢٧ .

فيها من أحــلام وأمنيات ، ورؤى مختلفة ، مفرحــة ومحزنة ، مسيئة ومحســنة ، اختلطت كل هاتــه الأحاسيس بأحاسيسه الحاضرة بــكل ما يجللها من آلام ، وما ينبث فيها من آمال •

ما أقسى أن يعود الانسان بعد تلك السنين الى موطنه وقد نالت منه يد القدر ، فتبدلت أشياء كثيرة فيه ، وأصبح فى صمته وسمته ضربا من الخيــال الغــريب :

بعــد ثلاثين ســنه°
عــاد يزور موطنــه°
يشــهد فيــه مسكنه°

ولكن •• ماذا رأى بعد كل تلك السنين ؟ لقد رأى ، وياسوء ما رأى ، رأى دياره •

• • • • • •	مبهمــة مبـــــدله°
فى ســمتها وصمتهــا	تبـــدو له كأخيــله°
غريبـــة أمامـــــه	يجهــل فيهــا منزله°
يجهــل حتى لـــونه	وظــله ومدخـــــله°
ينــكر حتى نفســه	فى حــيرة مضـــلله°
فى غــــربة بــداره°	بعــد طويل مرحــله°

هكذا راح الشاعر ينكر نفسه فى تلك الحيرة التى ضللته ، فى تلك الغربة التى أحسها فى منزله القديم ، حين عاد اليه بعد طــول الرحيل ، فأخــذ يجرع من ضلاله مرارة الأسى ، وطفق يسائل الشك ، لكنه لم يظفر برد على ســؤال •

وهكذا أوقفنا الشـــاعر على جمــلة هائلة من تلك الأحاسيس التى فجرها الموقف فى نفسه الآلمة ، وهى أحاسيس مليئة بالأسى والشجن ،

وان كان قد خفف من قتامها عوده الى وطنه ودياره من جــديد ، ووصل حاضره فى أبهــائها بماضيه :

أنا هنــا
أنا هنــا

يا حلمى الغــائب خلف أمســنا
رجعت ألقــاك وتلقــانى هنــا
ألقــاك — بعد — بعد طول يأسنا
هنا ، هنا ، قبل غــروب شمسنا

أنا هنــا

أنــا بــــذاتى هاهنــــا (١٨٧)

ومن ذلك أيضا قصيدته « دمياط » بنفس الديوان ، التى يعــلن فيها عن حنينه الجارف لداره التى أنكرته بعد أن راعها المشيب ، وهى لا تدرى أن قلبه غض يفيض بالشوق وأن :

صفوة العيش أن يعود غريب لحماه ، ولا يطول اغتراب (١٨٨)

ولا غرابة فى أن يصدر هذا الشــعر مغموسا فى مثل تلك المشــاعر الانسانية النبيلة عن شاعر مثل شاعرنا ، هذا الذى هتف فى آخر دواوينه تأليفا (همسة العطر للنسم) بالنسيان قائلا :

باللــــــه يا نســـــيان لا تقس فى الهجــــــر
أعــد أعــــد مــا كــان لنفحــــــة العطــــــر
تـــــراوح البســــــتان فى نســــمة الفجــــــر

(١٨٧) راجع القصيدة كاملة بديوان : صلواتى انا ص ٢٨ — ٣٢ .
(١٨٨) راجع القصيدة كاملة بنفس الديوان ص ٣٤ — ٤١ .

واهتـف بـكل حنـان :

« كـان لنـا مـا كـان »

فتنعـــم الآذان برائـــع الشـــعر (١٨٩)

وهكذا جال الصيرفى فى كل تلك الميـادين صداحا بالشعر على أيكة العربية فى عصرنا الحـديث ، لم يعتوره كلل فى انشـائه وان استبدت ببدنه قسـوة المرض ، مؤكدا دوما أن قلب الشـاعر لا يعرف الكلل ، ولا يستسلم لهجمة المشيب ، بل يظل خافقا ينبض برائـع المعـانى ، ويهتف برائق الألحان ، معطرا الأجواء بكل هذا الأريج الـذى ينعش القلوب ، ويذكى الشعور ، ويهذب الوجدان .

❋

---

(١٨٩) راجع القصيدة كاملة بديوان : همسة العطر للنسم ، المخطوط ص ٧٤ — ٧٧ .

السمات الفنية للقصيدة

عنـــد الصيرفى

*

كان لشعر حسن كامل الصيرفى سمات فنية عديدة ، منها ما يتصـــل بالموضوعات وطبيعة التجارب ، وهذا ما حاولت الكشف عنه فى الصفحات السابقات ، ومنها ما يرجع الى الأسلوب والطريقة الفنية فى الأداء ، ومنها ما يعود الى الأوزان والقوافى ، وهذا ما أحـــاول تجلية القـــول فيه فى الصفحات القـــادمات •

أما عن سمات الأسلوب والطريقة الفنية فى الأداء فقد قامت على الطلاقة البيانية ، والحرية التعبيرية ، والاعتمـــاد على معجم شـــعرى خاص ، كما قام الأسلوب عنده على التجسيم ، والتشخيص ، والتجريد ، والتعاطف مع الأشياء ، والذى كثيرا ما وصل به الى حد الامتزاج بها ، والحلول الشعرى فيها ، والتفكير من خلالها ، كما قام الأســـلوب عنـــده على التعبير بالصورة ، والميل الى استعمال التعبير الرمزى فى قصـــائده الكثيرة ، والاكثار من الألفـــاظ المرتبطة بالطبيعة ، وبالجـــو الروحى ، والألفاظ الرشيقة ذات الخفة على اللسان ، وحسن الوقع فى الآذان •

أما عن سمات الموسيقى الشعرية فقد رأيناه يعتمـــد على القالب المقطعى ، وعلى القالب الموحـــد ، كمـــا أكثر من البحـــور القصيرة ذات الموسيقى المتدفقة الجياشة ، دون رنين أو خطابية ، واستخدم كـــذلك بحورا قديمة فى صورة لم يألفها الشعر العربى ، ولم يقرها العروضيون من قبـــل •

*

أولا : سمات الأسلوب والطريقة الفنية فى الأداء

يمكن حصر تلك السمات فى النقاط التالية :

١ — الاعتماد على معجم شعرى خاص ، يقــوم فى بعض جوانبه عـــلى :

* التوسع فى نقل الألفاظ من مجالات استعمالاتها القريبة المألوفة الى مجالات أخرى بعيدة مبتكرة •

* الميل الى استخدام الأساليب الرمزية نتيجة هذا التوسع الذى أعنيـــه •

* استعمال الكلمات الموحية المعبرة •

* استعمال الألفاظ المتصلة بالطبيعة ، وبالجو الروحى •

* استخدام الألفاظ الرشيقة التى يخف النطق بها على اللســـان ، ويحسن وقعهـــا فى الآذان •

٢ — التعاطف مع الأشياء والحديث عنها من خلال ما يمكن تسميته بنظرية الحلول الشعرى •

٣ — التجســـيم ، والتشخيص ، والتجريد ، ويتصـــل بذلك منح الحياة الانسانية لما ليس بانسان ، سواء كان فى مجـــال المحسوسات ، أو فى مجال المجردات •

٤ — التعبير بالصورة ، سواء كانت جزئية ، أو كلية •

٥ — التكـــرار •

واليك بيـــان ذلك مفصـــلا •

١ — معجمه الشعرى

الصيرفى واحد من الشعراء العرب المعاصرين الذين أحســـنوا الى استغلال اللفظ فى الشعر احسانا عظيما ، ولا أحب أن أتحـــدث هنـــا

عن جهوده ، وجهود زملائه من شعراء أبولو فى هذا الصدد ، فقد تحدثت عن ذلك وحددت المقصود بمصطلح « المعجم الشعرى » ، وقسمته الى « معجم مفتوح » و « معجم مغلق » ، وبينت معنى كل منهما ، وذلك فى كتابى « مدرسة أبولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث » (١) ، فماذا شاع من الألفاظ فى شعر الصيرفى ؟ وبم تميز معجمه الشعرى ؟

الذى يطالع شعر الصيرفى يرى اكثاره من الألفاظ المتصلة بالألم ، والألفاظ المتصلة بالشك ، والتردد ، والحيرة ، والتساؤل ، فقد كان للتأمل وكذا للفلسفة نصيب كبير فى شعره ، وكذلك الألفاظ المتصلة بروح التصوف التى ينعتق الشاعر فى أثنائها عن عالمنا الأرضى ، ويحلق فى سماواته ، متدبرا فيما فى الكون العريض من أسرار .

وألفاظه ذات طاقة هائلة ، فهى تشع بدقائق المعانى ، وتزخر بالايحاءات البعيدة ، على النحو الذى يمكن استشفافه من النماذج الكثيرة السابقة .

وقد شارك شعراء جمعية أبولو ، وكان واحدا منهم — فى تحقيق ما أمكن تسميته بنظرية « التحليق الشعرى » ، حيث صدر معهم عن قوس واحدة فى هذه السبيل ، وهو ما عنيته « بالمعجم الشعرى المفتوح » أما الألفاظ التى غلبت على شعره دون سواه فهو ما عنيته « بالمعجم الشعرى المغلق » .

وقد أكثر الصيرفى كذلك من الألفاظ المتصلة بالطبيعة ، وبالجو الروحى ، وقد لا يغيب عن قارىء شعره أنه رغم سبحه الطويل فى مظاهر الطبيعة ، ومرائيها لم يصرفه ذلك عن همومه التى كثيرا ما كانت تعاوده حينا بعد حين ، ولذلك مزج حديثه عن الطبيعة بتلك الهموم ، فلم نعدم فى شعره عن الطبيعة كثيرا من الألفاظ التى تفصح عما كان

---

(١) انظر ص ١٠٧ — ١٩٧ ط دار المعارف ، سلسلة الدراسات الأدبية .

يكتنف نفسه من آلام ، وان كنا لم نعدم أيضا فى هذا الشعر بعض الألفاظ المضيئة ، الكاشفة عما كان يراود نفسه من أمل واعد ، وتفاؤل محبوب ، وبخاصـــة فى دواوينه التى تلـــت ديوانه « الألحان » .

وقد توسع كذلك فى نقل بعض ألفاظـــه من مجـــالات استعمالاتها القريبة المألوفة الى مجالات أخرى بعيدة مبتكرة ، وقد نشأ عن ذلك ميله الى استخدام الأساليب الرمزية .

وللأساليب الرمزية هذه صلة قوية بنظرية « التحليق الشعرى » ، وتطالب هذه النظرية بنقل الواقع الى عالم الخيال ، أو رؤية الواقع من سماء الشعر ، وهى رؤية قد تكون غير واضحة ، ولا محددة المعـــالم ، بل قد يعمِّيها بعض الضباب ، ولكنها مع ذلك تسمو بالقارىء ، أو المتلقى فوق الواقع ، وترنحه فى جوها الشعرى الخالص .

ولخلق الجو الشعرى وسائل منها : استخدام « معجـــم شعرى » تختلف لغته عن لغة النثر ، فضـــلا عن لغـــة الحياة اليومية ، لأن هـــذه اللغة النثرية ، أو النفعية لصيقة بالحياة اليومية ، ولا شك أن هذه اللغـــة التعبيرية عاجزة عن خلق الجـــو الشعرى فى نظر أنصـــار تلك النظرية ، وعن التصوير البيانى أيضا .

ومن ألفاظه وتعابيره فى هذا الصدد : تورد خـــد الشمس ، تسعر وجدها ، زمر النهـــار ، زمر الشفق ، زمر الأنغـــام ، نزل المـــاء برجله ، جرى الظلام بخيله ، أشجان النجـــوم ، قبر الحيـــاة ، خضم العـــدم ، وغـــيرها .

وتسبح فى شعره كذلك الألفاظ المتصلة بالنور ، والضياء ، والظلال ، والأشعة ، والشذى ، والعطر ، والأرواح ، والأطياف وما الى ذلك .

ولنختر من بين تلك الألفاظ لفظة واحدة ولتكن هـــذه اللفظة هى

لفظة « النور » التى جعلها داخلة فى عنوان أحـد دواوينه الشـعرية : (حول النور) ، لنرى كيف ترددت كثيرا فى شعره ، بعد أن فتن بهـا ، كما فتن بغيرها مما أشرت اليه من قبل من ألفاظ .

ففى ديوانه « الألحان الضائعة » نقرأ هذه الأبيات :

* ومطلع الفجـر يسـتوحـى ابتسـامته
« نـور » الملائك فى اشراق انسـان

* يبـدو خـلال ظـلام الناس مؤتلقـا
« نـور » الخلود بهذا الكوكب الفانى

« قصيدة الواحة المنسية »

* أنـا « نـور » جهلتمـوه زمـانا
أنـا روض جهلتمـوه مـكانا

* بعـد أن كاد أن يـذوب « النور »
ويغطـى بطاحهـا الديجـور

* ما « نـورها » الا بـروق ومـا
جمالهـا الا رؤى سـاريه

« قصـيدة الشـاعر »

* يجرى مع « النور » حـرا
حـرية الشـلالِ

* مياهـه من « نـورٍ »
تطفـو عليـه لآلِ

« قصـيدة ظمـآن »

* أيــن من كانــت لــى « النور »اذا أمســت شــجونى ؟
« قصيدة تحت ضوء القمر »

* أظلـــم الليــل فاعتليــت عروشــــا
وســما « النــور» فانتظمت جـــلالا

* فاذا « النــور » فى الكهوف تدانــى
واذا « النــور » فى الجــواء تعــالى

* أى «نور» ذاك الــذى أطفــأ المــو
تَ وفــكرٍ ذاك الــذى قــد طــواه

* تلك روح تلقى عــلى الأرض « نوراً »
وظـــلالا من عالـــم الجنـــــات

* باعــث « النــور » لامعــا كالدرارى
حافــظ الصـــوت أن يضيع ويمضى
« قصيدة وحى المصباح »

وفى ديوانه « الشروق » نقرأ الأبيات التالية :

* « النــور » يبسط نحوى كل راحتــه
ويمـــلأ النفس ممـــا فى أياديـــه

وقبله فى نفس القصيدة :

* مجلى من « النــور »لم أبلــغ مطالعــه
أنى اتجهــت ، ولــم أدرك تناهيـــه
« قصيدة النور الجديد »

* أستقبل « الأنوار » فى لهفة
تكاد نفسى عندها تنتهى

* قد كحل « النور » جفونى فلم
يدع لطيف النوم فيها أمل

* ما يملأ القلب الذى ترفعين
به الى « النور » الذى أنشده

« قصيدة النظرة الأولى »

* خاطر من حسنه فى موكب
مشرق من « نوره » المنسكب

* يشهد الحسن بنفس جد حسْرى
ويرى « النور » بعين منه عبرى

« قصيدة الحرمان »

* مطلع « النور » عالم أنتِ منه
فاغمرينى بموجه .. أغرقينى

« قصيدة ساعة اللقاء »

وهكذا يمكن تتبع هذه اللقطة فى شتى دواوينه ، وكانت قد كثرت كثرة لافتة للنظر فيها ، مما يدل على تعلق الشاعر بالنور ولعله كان متأثرا فى ذلك بصديقه الدكتور أحمد زكى أبى شادى الذى كتب فى احدى رسائله الى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى يقول : « فتنت بالنور ، والأطياف ، والظلال منذ صغرى ، ولما نظمت فيها بعد سنوات قصيدتى التى أقول فيها : « ان منها أشعة وظلالا » كبر مطران لهذا الشعر وهلل ، وكان يعدنى أول شاعر فى العربية خلق للنور قداسة ، وعبادة وتحليلا وتقديرا » .

ولا ضير أن نختار من شعره أيضا ما يدل على استعماله الألفاظ المتصلة بالجو الروحى :

فمن ذلك فى ديوانه « رجع الصدى » نقرأ :

الله أكبر !
الله أكبر !
تســـــبيحة العـــــالم المطهــر
للخـــــالق المبـــــــدع المصور

❋

الكون قــد هــب من كــــراه
يستوضـــح النـــور عـــن رؤاه
كالناســـك الشـــيخ فى تقــــاه
طوى الهوى مــذ طوى صــباه

« قصيدة الفجــر »

❋ وذقت « الخـــلد » من شـــفتين ما أحـــلاهما طعمــــا
أكانـــت لحظـــة من لحظـــات « الخـــلد » أم أســـمى
وكانت نقـــلة « بالـــروح » ، أم بالجسم ، أم بهمـــا
رأيت بهـــا « جنـــان اللـــه » قـــد حلين لى رســـما
نعمـــت بهــــن لو دامـــت لفـــانٍ هـــذه النعمـــى

❋ أكانت ســكرة « للــروح » لـــم أشـــعر بهـــا قدمـــا
نســـيت اللهــــو والشـــــيطان والفتنـــة والإثمــــا
وعـــدت « بـــروح صـــوفى » يـــرى ما حـــير الفهمـــا
خيــــال من « جنــــان اللـــه » طـــاف بآدم يـــوماً
ولـــكن مر بى طيفـــــا وبـــدل يقظتى حلمـــــا

« قصــــيدة اســـراء »

وفى ديوانه « حول النور » نقرأ هذه الأبيات :

❋ يممــت « كعبتهــا » ولــم أك عالمـا
أنى ســأقضى العمــر فى « صلواتى »

وبنيت فى دنيــــا الخيــــال عوالمـا
ســحرية « الروضـــات والجنــات »

❋ وخلعت فى « محراب » حسنك رغبتى
وسموت فى « المحــراب » عن شهواتى

و « أطــوف » حولك كالفراشة عالمـا
أنــى أقـــدم للهيــب حيـــاتى

« قصــيدة كعبة الحسن »

❋ ففى « معبــد » الفــن بات الضـــلا
ل يغـــر بأوهامـــه «ســـادنه° »

وأطـــلق فى جـــوه « القـــدسىً
بخـــور مجــامره العاطنــــه° »

❋ « يصـــلى » وفى قلبـــه لفحـــة
تؤججهـــا شـــهوة طاحنــه°

« قصيدة مثــال وتمثال »

❋

أما الألفاظ المتصلة بالطبيعة فلا حاجة لعرض النمــاذج الكاشــفة

(٢) مدرسة أبولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث ط دار المعــارف للمؤلف ص ٢٠٧ .

عنها فى شعر الصـــيرفى ، اذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصــائده من تلك الألفاظ ، وقد سبق أن تحــدثت عن صلة الشـــاعر بالطبيعة ، وعرضت لأثرها فى شعره من قبـــل •

❋

أما استعماله الكلمات الموحية المعبرة فقد نشأ ذلك عنده من ارتكازه كثيرا على خاصة « التعبير بالصورة » التى سأتحدث عنها عما قليل ، ذلك لأن الصوريين يعتمدون فى التصوير على التركيز ، والضغط ، واستعمال اللفظ المــوحى •

ولا شك أن الألفاظ تلعب دورا هاما فى الايحـــاء برؤية الشـــاعر ، فلا تعد الألفاظ وسيلة للابانة عن الرؤية ، بل تكون مادة من موادها •

« ووحى الكلمة ينبع من مصادر عدة ، ويجىء على طرق منــوعة ، فهو مرة عن طريق مدلولها العـــام اللغــوى ، كما وعته كتب اللغـــة ، ومرة عن طريق طبيعتها الصوتية ولحنها الموسيقى ، ومرة ثالثة عن طريق استعمالها استعمالا مجازيا ، ومرة رابعة عن طريق وضعها فى التركيب ومكانها المختـــار فيه بما تحمـــل فى هذا المكان من دلالة ، وما تؤدى من غــرض » (٣) •

وأكتفى هنا بنموذج واحد نرى فيه مهارة الشاعر فى تلوين تجربته باللفظ الموحى ، والكلمة المعبرة ، وليكن هــذا النمــوذج هو قصيدته « ولقــد وعدتِ » بديوانه « عودة الموحى » التى يقــول فيهــا مخاطبا الحبيبة الهاجرة التى لم تف بوعدها له :

أنا حيث أنت ، فأين أنـــت   ومتى اللقـــاء اذا سمحت ؟

ولقد وعــدت فما وفيــْ   ـتِ فهل يحقق ما وعدتِ ؟

---

(٣) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث للدكتور محمد نايل ص ٧٦ .

ليعـود للشـــعر الحـزيـ ن صـــفاؤه فى كل بيـت
ويعـود للوتـر الحنـــو ن غنـاؤه بأرق صـوت
ويعـود للنغـــم الرخيـ م رنينـه من بعد صمت
وتعـــود ليـالات الصـفا ء الى الوجود كما عهدت
وتعـود دنيـــا الشـعـ ر حاليـــة بأزهار ونبت
أنا شـــاعر عشـق الجما ل مـبرأ عـن كل بهـت
صـــلواته ، تقديســـه ودعـــاؤه فى كل وقـت
رمـت المثـــال لمـا أصو غ من النشيد فكنت أنت
أيـام كنـت أنا المغـــر د فى ســـمائك حين كنت
ولـكم سمعت نشـيد قلـ بى فى تـلاوته ، فهمت !
ولـكم قـرأت قصـائدى فسـكرت لما أن قرأت !

❋

مـرت ليـــالى صحبتيـ نـا فانتهيت لما انتهيت
وبعدت ، لـكن ما بعدت عن الخيـال وما احتجبت

❋

ولقـد وعـدت فمـا وفيـ ت ، وما رجعت، وقد رحلت

وبدءا أقـول ان استخدام الشـاعر تلك الكلمات التى تنتهى بتـاء المخاطبة « أين أنت ؟ •• اذا سمحت •• ولقد وعدت •• كما عهـدت » هذه الكلمات وغيرها مما خاطب بها الشاعر محبوبته الهاجرة توحى بشدة التجاذب بينه وبينها ، فهـو يريدها أن تكون مشـدودة اليـه دوما ، لا تغيب لحظة عنه ، انها دانية من قلبه وروحه ، حاضرة فى خيـاله وان نأت عنه ، قارة فى وجدانه وان قلته •

وقوله فى البيت الأول « ومتى اللقاء اذا سمحت » يوحى بطبعه المهذب الذى لا يعنف حين يعاتب المحبوبة الهاجرة ، وان كانت البادئة بالجفاء والهجـر •

وقوله فى البيت الثالث : « فى كل بيت » اشـارة الى أن بعـدها عنه رغم وعدها اياه قد طبع شعره كله بطابع حزين ، حيث يلوح هذا الحزن « فى كل بيت » ــ كما قال ، ثم هو لا يكتفى بهذا ، بـل انـه يحاول اقناعنا بأن أثر هذا الهجر قد طغى على كل جميل فى حياته ، ووسمه بما تنفر منـه النفس ، ولا يستريح اليه القلب •

وقوله :

رمـت المثـال لـما أصـو غ من النشيد فكنتِ أنتِ

استمالة لقلبها ، وضرب عـلى أوتاره الرقيقة ، وجـذب لنظرها ، ودعـوة كريمة لمراجعة حساباتها من جديد ، انه يثبت لهـا أنه مخلص وفىّ ، لم يتخل عن اخلاصه ووفائه لهـا يوما ، كل ذلك يؤكـده بيته السابق ، وبخاصة قوله فيه : « فكنتِ أنتِ » •

أما قوله فى البيت الثانى عشر : « فهمتِ » فيوحى برغبته الملحـة فى أن تدرك هذه المحبـوبة مدى اخلاصه لها ، وتشوقه اليها ، وتشوفه الى ليلات الصفاء معها ، فهى ان فهمت عنه ما أراده فلن تملك الا الرجوع اليه من جديد ، والا أن تجـدد من ماضى حبها ما رثّ أو وهى ، وأن تصل من حبال ودها ما انبتّ أو انقطـع ، والا أن يسكرها شعره — كما كان يسكرها فى الماضى — من جديد •

ولكن • هيهات أن يتحقق له هذا الأمل العزيز ! وليس له الا أن يقنع بعيشها فى خيـاله أبدا ، دون أن تحتجب عنـه فى مسـيرة الزمن الطـويل ! :

ولقد وعدت فمـا وفيت ، وما رجعـت ، « وقـد رحلت »

ان الكلمة الأخيرة « وقد رحلت » هى المحصلة الأخيرة ، أو القرار الذى يحط الشـاعر عنده رحاله ، وليس من حقه أبدا أن يتجـاهل هذا الواقع المرير ، فحبيبته الهاجرة قد رحلت ، وكانت قد وعدت فما وفت ، وما رجعت ، وحسبه أن ينعم بها فى خياله الذى لم تحتجب عنـه ، ففى ذلك شفاؤه ، وفى ذلك سلواه على كل حال .

ان اللفظة الموحية عند الشـاعر كالظلال للرسام ، يوزعها عـلى صفحة اللوحة التى يرسمها ، فيظهر قسمات لوحته كما شـاء له حسـه المتفنن ، والشـاعر يعمد الى الألفاظ فينتقى أكثرها ايحاء ، وأبرزهـا قدرة على اظهار الغرض ، وعلى الوفاء بالتجربة وفاء كاملا ، والشاعر الذى لا يحسن استعمال اللفظ على هذا النحو يصاب نتاجه بالسطحية ، والهلهلة ، وضعف الأثر فى نفس القارىء والمتلقى ، ومن ثم تتدلى قيمته فى نظر كل منهمـا الى درجة بعيدة من الاسفاف .

*

أما استخدام الشاعر الكلمات الرشـيقة التى يحسن وقعهـا فى الآذان ، ويخف نطقها على اللسان فـذلك ما يمكن للقـارىء أن يدركه بوضوح فيما عرضته من شعره على الصعيد العـام لهـذه الدراسة ، وعندى — أن كمية الألفاظ التى تكون فى متناول الشاعر لا تحدد منزلتـه بين الشعراء ، وانما الذى يحـدد منزلته الطريقة التى يستخدم بها هذه الألفاظ ، وأن المهم هو احساس الشاعر بطاقة الألفاظ التى يعتمد عليهـا فى انشـاء القصيد .

ومن المألوف أن الشاعر لا يدرك الأسباب التى تجعله يختار لفظـة بالـذات دون سواها ، اذ تتخـذ الألفـاظ مكانها فى القصـيدة دون سيطرته الواعية ، وعلى الشاعر أن يجيد تنسـيق لفظه ، ويصقله مـرة بعد أخرى ، حتى اذا سمعه ، أو سمعه أحـد سواه رأى فيه قـوة جاذبة ، وحسنا شائقا يدفعه الى الاصغاء .

وعندى أيضا — أن التشدق بالكلمات ، والمعاظلة فى الكلام سوءة من السوءات الشعرية • وأن المقياس الصادق فى جـودة الشعر وحلاوته مبعثه الحقيقى التوفيق بين الكلمات وما يريد الشاعر التعبير عنه ، أما اصطناع اللفظ فلا قيمة له ، فمـا هكذا يكون الشعر ، بل ينبغى اعتماده على الألفاظ ذات الطاقة الهائلة من التعبير ، والايحـاء ، والرشـاقة ، والخفة ، والسلاسة ، والرقة •

❋

٢ — التعاطف مع الأشياء
أو نظرية « الحلول الشعرى »

المتبتل فى محراب الطبيعة يلمح كثيرا من المظاهر المتفشية فى المجتمع البشرى ، وهى تلقى كثيف ظلالها على مشاهد الحياة والكون ، يلمح ذلك فى الثمار ، والنباتات ، والزهـور ، والورود ، والحيوان ، والطير ، وغـيرها •

الناظر فى الطبيعة يلمح فى وضـوح الفرق بين الحيـاة والمـوت ، والنعيم والشقاء ، والجمـال والقبح ، وغير ذلك من متناقضات الحيـاة والكون ، يدرك ذلك من خـلال مشاهدته زهرة حية متفتحة ناضرة تنوس على عودها فى استحياء الى جوار زهرة أخـرى ذابلة ، قد صوحت ، وتدلت منها الجفون ، أو فى مشاهدته شجرة باسقة غضة الى جوار شجرة أخرى سلبها القدر حياتها ، وأذهب عنها نضرتها وبهاءها ، فباتت تاعسـة ذاوية ، أو فى مشـاهدة شـجرة فى مقتبل العمـر ، تقف فى اباء شـامخ الى جوار شجرة مسنة طبع الزمن عليهـا بصماته ، وأخنى عليها الدهر ، فتجعدت أوراقهـا ، وزحف عليها المشيب •

وهذه النظـرات التأملية التى تضرب بأطنابها فى أغـوار الطبيعة ومشاهدها ، والحياة ومرائيهـا انما يدركهـا « الرومانسـيون » من الشعراء أكثر من غيرهم ، لأنهم كثيرا ما يدفعهم الألم ، ويحركهم الشجن

الى اللجــوء الى الطبيعة الأم ، والانطواء على ذواتهم بين أبهائها ، والى التدقيق فى مظاهرها ، واستجلاء غوامضها ، واستنطاق مرائيهــا بالحكمة وفصل الخطاب •

وقد وصل الصيرفى فى تعاطفه مع بعض مظاهر الطبيعة الى حــد الحلول فيها ، والتحدث عن آماله وآلامه من خلالها ، ولم تــكن هــذه سمة من سماته التعبيرية وحده ، ولا خاصة من خصائصه بــل شاركه فيها نفر من شعراء جيله وبخاصة شعراء جمعية أبولـّو ، ففى قصيدته « البسمات الساخرة » يرى فى ابتسام الزهر معنى من معانى السخرية ، وأن هذا الابتسام انما ينبع من صميم قلبه هو ساخرا من دنيا الناس :

وتوفى على الدنيا وفيك ابتســامة   تعــبر عمــا عــبرت بســــماتى

والقطر يتحدر على خدّ الزهر ليس الا دموع توجعــه وأنـّه التى تشبه أصداءه ، وأنغامه ، ورجع شكاته :

وما القطــر الا أنــة وتوجــع   كأصداء أنغــامى ورجــع شكاتى

❋

وحين تحدث الى الزهر فى بعض أبيــات هــذه القصيدة فانما كان يتحدث عن نفسه هــو ، وذلك بعــد حلوله به ، والتحــدث عن نفســه من خــلاله :

خلصــتَ من الآلام ؟ لا ، بل تعددت
عليــــك ، ولا تدرى الذى هــو آتِ

نجــوت من القيــد المذلّ ، ولم تعدْ
تحجـّبـُـك الأكمــامُ منطبقــــاتِ

فطــرْ عن حمــاك الآن ، لست بنائلٍ
خلاصــاً ، وما الأغصــان غير حمــاةِ

الـــى أن يمــر القاطفـــــــون فتنتهى
الى عــالم مســــتبهم الظلمــــــات

ويلجأ الى « التشبيه المقلوب » فى البيت التالى ، مؤكدا أن الصفة أو الصفات الموجودة فيه وفى الزهر قــد بلغت فيـــه مبلغا كبيرا فاقت مثيلاتها فى الزهر ، حتى شبهه بنفسه لا العكس ، لضرب من المبالغة ، والتهويل ، فيقـــول :

نعم ! أنت مثلى أيها الزهر مرغم ... وما هذه الألوان غــير شـــيات

ويأبى الزهر الا أن يشارك الشاعر حزنه وأساه « فذرّف من دمع الندى قطرات » ، بينما يطرب الناس بانشاده ونغماته حتى ولـــو كان مبعثها الشجى كما قال :

يغنى شجى القلب والناس حــوله ... طــروبين بالانشـــاد والنغمــات

*

تردد أفق الرياض صـــدى الذى ... أقول ، وشـــاع الحزن فى كلماتى
ومال جميع الزهر فى خطـــراته ... وذرّف من دمع الندى قطرات [4]

وهكذا صنع فى قصيدته « الشجرة العارية » ، حيث رآها صـنوا لروحه ، وفيها تأثر واضح بميخائيل نعيمة فى « النهر المتجمد » ، يقول :

أنا أنت .. لـــكن خبرينى ... أترى أعــود الى ربيعى ؟
ترويــك أمطـــار الشــــتا ... ء اذا ارتويت من الدموع

*

أنا أنت .. منتشر الغصـــون مددت ظلّى فى الحيـــاة

(٤) الألحان الضائعة ص ٤٤ .

لــكن أهـــواء الخـريف كأنهـا حـكم الطغـــاةِ
عصفت بأوراقى ، فلا ظـل يُمـدّ عـلى هـــواتِى
لـكن يعـود لكَ الربيـــع ، فهـل يعـود اذا ربيعى ؟

❋

. . . .

أنا أنت ، لـكن . . أنت أسعد من حيـاتى فى الخريفِ
فلتـذكرينى فى الربيــع يمــر فى رفــق الطيـــوفِ
ويعــود موفـور السرور كعـــودة الصب اللهيـــفِ
ويعــود ماضـيك الجميــل ، ولا أعــود الى ربيعـــى
فلأرو من فيض الدمـــوع ، لعـل تنفعنى دمـــوعى (٥)

وعلى غرار ذلك قصيدته « البلبل » بديوانه « رجع الصـــدى » ، والذى يطالع هذه القصيدة يدرك أنه كان يتحدث عن البلبل فى الظاهر ، وهو انما يتحـدث عن نفسه هو ، فبلغ الاتحـاد بهذا الطائر الغـرّيد فى نفسه مبلغه حتى انه لينسى الحـديث عنه ليتحدث عن نفسه فيقول :

الربيـــع الطـلق قـــد آب ، ولـكنى مهيـضْ
لم يضـق وكرى ، وقد ضاق بى الكون العريضْ
. . . .
أنا إن غردت أو نوحتُ هـل يغنى القريض ؟ (٦)

❋

٣ ــ التجسيم ، والتشخيص ، والتجريد

يرى مؤلفا « معجـم مصطلحات العربيـة فى اللغة والأدب » أن

---

(٥) نفس الديوان ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٦) رجع الصدى ص ٦٢ .

التشخيص personification والتجسيد prospopeia يعنيان نسبة صفات البشر الى أفكار مجردة ، أو الى أشياء لا تتصف بالحياة ، مثـــال ذلك الفضائل أو الرذائل المجسدة فى المسرح الأخلاقى ، أو فى القصصى الرمزى الأوربى فى العصور الوسطى ، ومثاله أيضا مخاطبة الطبيعة كأنها شخص تسمع وتستجيب فى الشعر والأساطير (٧) •

ولا شك أن تقارب هذين المصطلحين فى المعنى قد أدى الى أن يخلط هذان المؤلفان بينهما على هذا النحو ، ذلك لأن التجسيم يقصـــد به نقل المعانى المجردة الى مجال الحس الخالص ، ثم بث الحياة فيها أحيـــانا وجعلها كائنات حية تنبض وتتحرك •

وأما التشخيص فيقصد به خلع الحيـــاة الانســـانية على ما ليس بانسان فنحس به وكأنه بشر مثلنا يحس ويتحرك ، ويسعى ويدأب ، ويشقى ويسعد ، ويتألم ويتلذذ ، وينـــام ويستيقظ ، ويأكل ويشرب ، وغـــير ذلك •

فاذا صورنا الفضيلة فى صـــورة زهرة ناضرة تعطر الأنســـام من حولها فذلك هو « التجسيم » •

واذا صورناها فى هيئة انسان يـــدأب على فعـــل الخير فذلك هـــو « التشخيص » •

واذا صورنا معنى من المعانى المجـــردة فى صورة حيـــوان كقـــول أبى ذؤيب الهذلى متحدثا عن الموت :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـــة لا تنفع

كان هذا من قبيل « التجسيم » لا « التشخيص » ، لأن الأشياء

---

(٧) راجع حرف « التاء » بهذا المعجم .

المجسمة التى لا تعى قد تتحـول هى الأخرى فى معرض التجربة الشعرية الى انسان يحس ويعقـل ، ويعى ويدرك ، فاذا خلعنا على الحيـوان أو الطـير — مثلا — بعضـا من صـفات الآدميين كان ذلك من قبيـل « التشخيص » لا « التجسـيم » ، لأن التجسيم موجود أصـلا ، وكل ما صنعناه أننا خلعنا عليه بعضا من صفات الآدميين •

أما التجريد فعلى عكس « التجسيم » و « التشخيص » اذ ينحصر معناه فى تحويل المحسات من الانسان وغير الانسان الى المعانى المجردة ، وقـد كان التجسيم أو التجسيد ، والتشخيص ، والتجريد من سـمات أو ملامح التعبير عند الصيرفى •

فمثال « التشخيص » قوله يتحدث عن « الألفاظ » وهى المعـانى المجردة — فى قصيدته « الحرمان » :

*

هى كالشيخ اذا حـاول أمـرا
فدعـاه الشـيب أن ينظر قبرا
فانثنى والذهن فيـه ألف ذكرى
يدع الكأس ليسـقى اليوم مرّا
يشهد الحسن بنفس جدّ حسرى
ويرى النور بعين منـه عبرى (٨)

ومثال « التجسيد » قوله فى نفس القصيدة ، متحدثا عن « الألفاظ » أيضـا :

وهى كالـزورق فى الشط مقيـد
ركبـاه ناعمـا حـبٌ مـورّد
يشـتهى الزورق أن يحبو ويبعد

---

(٨) الشروق ص ٢٥ .

بالســـعيدين عن النـــاس ليسعد
دون أن ترمقه الســـفن فيحسد
فيظل القيد فى الشاطىء مُرْصَد

يريد أن الألفاظ لم تسعفه كى يعبر عما يحسه ازاء صديقه الدكتور أحمد زكى أبى شادى الذى ناضل وجاهد ، وأحس بمرارة الحـــرمان ، لقد دأبت هذه الألفاظ على الفرار كلما جاء بمعنى معرب عن هوى قلبه الولوع المتعب ، واختبأت كالدمعة فى عين الأبى ، أو على حد تعبيره هو بعـــد ذلك :

حارت الألفاظ بين الشفتين°
حيرة الرغبة فى قلب يحن° (٩)

وأكتفى بهذا المثال الذى قدمته عن « التشخيص » و « التجسيم » مؤملا فى أن يحتذيه القارىء فى شعر الصيرفى كاملا من بعد ، حين يطالعه ، مشيرا الى أن هاتين الخاصتين « التشخيص » و « التجسيم » اللتـــين كثرتا فى شعره وشـــعر زملائه فى رحـــاب جمعية أبولو كانتا من أبـــرز السمات التعبيرية عنده ، بدءا بديوانه « الألحان •• » أول ديوان يخرج به مطبوعا على الناس ، وانتهـــاء بديوانه : « همسة العطر للنسم » الذى لازال مخطوطا حتى الآن •

ومن « التجسيم » فى هذا الديوان الأخير قوله :

وترقرقت ألفاظه فكأنها ماء الجداول (١٠)

وقـــوله :

---

(٩) الشروق ص ٢٦ ، ٢٧ .
(١٠) ص ٥٥ « المخطوط » .

شعر كشَعر الغانيات عقدنه حلو الخصائل
وغزلنه خيط الحرير يرف : راقصة تغازل [١١]

ومن « التشخيص » قوله فى هذا الديوان أيضا :

فالفجر فوق البدر عابد يتمتم
والصبح حين تعتلى أثباجه يسلم
والشمس فى ازدهارها عاشقة تضرّم [١٢]

*

ولا أحب أن أنهى الحديث عن هاتين الخاصتين عنده قبل أن أنوه بقصيدته الموسومة بـ « قلمى » التى جاءت تعبيرا صادقا عما كان يتردد فى نفسه حال انشائها ، وكانت فكرتها قد جالت فى خاطره وهو ينظر — كما قال — الى قلمه خلال ملازمته الفراش للعلاج ممنوعا من الحركة — وهو ساكن على رف بجواره لا يلمسه ، حتى اذا سمح له بالحركة والكتابة تناوله فاذا به قد جف مداده ، وهو لم يجف له دمع :

أيا قلمى الحبيب ! وأنت خدنى وأصدق من أجاب نداء فنى
أراك وأنت فوق الرف ترنو الىّ بغير قلب مطمئن
ترى دمى الذى يجرى نزيفا فتحزن خاشعا لدنو حينى
أئنّ وأشتكى ألمى وضعفى فلا تصغى لشكوى أو لأنىّ
لأنك فى ذهولك غير واعٍ لما أعيا اللسان وكد ذهنى
لقد جف المداد عليك يأسا وما جفت دموعى فوق جفنى
كلانا ناظر لأخيه حزناً فحزنك — فى صموتك — مثل حزنى

---

(١١) همسة العطر للنسم « المخطوط » ص ٥٧ .
(١٢) نفس الديوان « المخطوط » ص ٦٢ ، ٦٣ .

وكنت — اذا الخواطر بادرتنى — هششت لها .. فما لك لمتجبنى
اذا شـــفتاى هممتـــا بهمس رقيق النبر لــم تخفق للحنى !
أخنت العهــد بعد مــدى طويل من الأعوام .. كلا لم تخنى (١٣)

هكذا تحول القلم فى هذه القصيدة الى انسان يخلع عليه الشــاعر كثيرا من صفات الآدميين ، بل يخلع عليه صفات الآدميين كلها ، كيف لا وهو صديق عمره الذى شاركه أحاسيسه فى كل كلمة خطهــا ، وفى كل لحن عزفه من قبل ، ولهذه المنزلة السامية التى يشغلها هذا القــلم فى نفس الشاعر رأيناه يهتف به فى نهاية القصيدة :

أيرجع — ياصديق العمر — شدوى الــى ما كان من نغــم ووزن ؟
وترجع أنت بين يــدى تــؤدى رسالة من يضحى دون ضن ؟ (١٤)

*

أما التجريد فلم يكثر منــه فى شــعره إكثاره من « التجسيم » و « التشخيص » فهو يحتاج الى مهارة بارعة فى الاختيار ، وبصر بمواطن الجمــال فى النص ، فوق ما يحتــاج اليه من حذق فى الصناعة ، ومهارة فى الصياغة .

يضاف الى ذلك أن الشعراء والأدباء أكثر ميلا الى إلباس المجردات ثوب المحسات ، ليسهل ادراكها ، لا العكس .

ومن نماذجه — عنده — قوله فى قصيدته « سقوط الطيــار » :

صعدت كمن يغافل عــين رائــى وطــرت ، وجبت أجواز الفضاء
« وكنــت كأنك الآمــال تسرى » سرى اللهفــان فى ظلم القضــاء

---

(١٣) نغمات ونسمات ، الديوان المخطوط ص ٧٢ ، ٧٣ .
(١٤) نفس الديوان ص ٧٣ .

وقوله فى نفس القصيدة مخاطبا الطيـــار الشهيد :

« وطفت كفكرة فى الذهن طافت » وسدت على الزعازع باجتراء (١٥)

❋

٤ ــ التعبير بالصـــورة

ويفضل هذا النمط التعبيرى كثير من النقــاد ، ويرون فيه مثــال البراعة ، وحذق الصناعة ، قد برع فى استغلال تلك الخاصة التعبيرية بعض الشعراء القدماء ، كذى الرمة ، وابن الرومى ، وسواهما •

والصورة «Image» تقوم بدور مهم فى الأدب الحديث ، وبخاصة فى الشعر الذى أصبحت الصورة فى كثير من أنواعه لبنة من لبناته ، لا أداة فقط من أدوات التعبير •

ولكى تؤدى الصورة دورها لابد من أن تساير الانفعـــال وجوه ، وتتساوق الفكرة ، والا كشفت عن زيف انفعالى ، أو فكرى •

وهناك صور مادية خالصة ، ومن الشعراء من يضم الى الصـــور المادية الاحساس الوجدانى ، وقد جرد بعض الباحثين (١٦) الصورة المادية من التقدير ، ولكن الأســـتاذ السحرتى رأى أنـــه ليس على التصـــوير المادى غبار ، وهو تصوير حى ، ولا يجوز لنا أن نشجبه ، بل له درجته الفنية على كل حـــال (١٧) •

ومن الباحثين ــ جريا وراء بعض الكتاب الغربيين ــ من يغـــالى فى القول بأن القصيدة صورة فقط ، فالتجربة تكون بوســـاطة الصـــور

---

(١٥) ديوان الشروق ص ١٢ ، ١٣ .
(١٦) كالدكتور مصطفى ناصف فى كتابه « الصورة الادبية » .
(١٧) انظر : النقد الادبى من خلال تجاربى للسحرتى ص ٨٧ .

الكاملة ، أو الصور الجزئية ، أى أن وســيلة التجربة هى الصورة [١٨] •

وفى هذا القول غلو كبير ، وفيه اخراج لطائفة من القصــائد العربية وغير العربية من النطاق الشعرى •

ويرى السحرتى أن الشعر ليس صورة كلية فى كل أنواعه ، بل ان هناك أنواعا من الشعر تعد من أرقى أنواعه ، وتعرى من الصور ، وتعد نصرا لقائلها [١٩] •

وليس يفهم من هذا أنه ينكر النظر الى القصيدة كصورة كليــة ، ولكنه ينكر تلك المغالاة التى سار عليها بعض الباحثين الجامعيين فى اعطاء الصورة الشعرية منزلة عالية أو كبيرة ، حتى زعم بعضــهم أن الفــن الشعرى يمكن تقديره بما فيه من صور ، وأنه يمكن تطبيق أصــول فن الرسم على هذه الصــور كالدكتور ماهر حسن فهمى فى كتابه (المذاهب النقــدية) [٢٠] ، وفى هذا الزعم ما فيه من روح المغالاة •

وقد ذكر الدكتور زكى مبارك فى كتابه (الموازنة بين الشعراء) [٢١] أن الصورة الشعرية : وهى أثر الشاعر المفلق الذى يصف المرئيات وصــفا يجعل قارىء شعره ما يدرى ، أيقرأ قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظرا من مناظر الوجــود ، والذى يصف الوجدانيات وصفا يخيل للقارىء أنــه يناجى نفسه ، ويحــاور ضميره ، لا أنــه يقرأ قطعة مختــارة لشــاعر مجيــد •

والصورة الأدبية لا تكتمل الا حــين يحيط الوصف بجميع أنحــاء الموصــوف ، وللصــورة فضــل كبير فى تمكين المعنى من نفس القارىء والسامع أو المتلقى •

---

(١٨) انظر : النقد الأدبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ٤١٦ — ٤٣٤ .
(١٩) النقد الأدبى من خلال تجاربى ص ٨٨ .
(٢٠) انظر : المذاهب النقدية ص ٢٠٣ — ٢١٦ .
(٢١) نفس المرجع ص ٦٤ .

وميدانها يتجلى فى رســم الأشخاص ، أو رســم المواقف ، وقــد وجدت بذرتها فى النقد القديم عنــد عبد القــاهر ، ثم ضلت البذرة فى متاهات السنين حتى اذا كان العصر الحديث التفت اليها النقد العصرى ، ولكن التفاتته لــم تكن كافيــة لتضع أسسا واضحة المعــالم للمذهب التصــويرى (٢٢) •

ولا شك أن التجسيم والتشخيص من أشد السمات التعبيرية اتصالا بخاصة التعبير بالصورة ، اذ أن تشخيص المعانى المجردات ، أو تجسيمها ، وكذا خلع الحياة الانســانية على ما ليس بانســان تصبح من أكثر روافد الصورة غزارة وغنى وثراء ، على النحو الذى يتضح لنا من خلال النماذج المختــارة عما قليــل •

❋

فى كثير من شعر الصيرفى تختلط الصور المادية بالصور الوجدانية ، على نحو ما نرى فى قصيدته « السحابة المغترة » ذات النزعة الرمزية •

ان السحابة فى هذه القصــيدة التى يملؤها الغرور ، والجهــل ، ليست سوى رمز تختبىء خلفه احدى الشخصيات ذات النفوذ فى الماضى ، وكان صاحب هذه الشخصية قد هدد الشاعر وتوعده ، لكنه لم يعبأ به ، ولم يكترث لتهــديده ، ورأى نفســه طودا شامخا تتقاصر دونه تــلك السحابة الدجناء ، وقد اعتمد فى تلك القصيدة على عــدة صور جزئية ، تكونت من مجموعها تلك الصورة الكلية التى أرادها ثم لم يقنع بما يدخل فى تكوينها من الأمور المادية ، بل أضاف اليها من حسه وشعوره ووجدانه الشىء الكثير ، فصارت مزيجا من المادة ، والوجدان معا ، على النحــو الذى نلحظه فيها ؟ يقــول :

سـحابة كالصــب فى جــوفها ... ما فى فؤاد الصــب من وجــده
تمشى الهــوينا كالجهــول الذى ... يســير مزهــوا على لحــده

(٢٢) المذاهب النقدية ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ •

كئيبـــة كالمســــتبد الــذى يـــود لو يأتى عــلى ضــــده
وجنــاء كالجـــانى تراءت لـــه حفـــائر القتــلى وفى قيـــده
أفعى تســـاقيه الردى ، فانثنى يكسر الصمصـــام فى غمـــده
حبــلى ولــكن لم يحـــن وقتها جنينهـــا حـــيران فى مهـــده
مـــرت بطـــود شـــامخ يرتقـــى الى عنـــان الجـــو فى بعـــده
فغاظهـــا أن لا يبـــالى بهـــا فأقســـمت لابـــد من هـــده
لابـــد أن تثنيـــه عـــن غيـــه فانـــه قـــد ضـــل عن رشـــده
قـــد ظن أن المجـــد فى رأســـه لابـــد أن تأتى عـــلى مجـــده
تقدمـــت منـــه ، وفى صـــدمة سريعـــة بـــادت عـــلى صـــلده
هـــوت من الجـــو رذاذاً عـــلى جوانب الطـــود الى نجـــده (٢٣)

لا شك أن الصورة الكلية قد أدت دورها — هنا — فى تلك الأبيات ، لتســـاوقها مـــع الفكرة ، ومسايرتها الانفعـــال ، وجـــو"ه ، أما النواحى الوجدانية فتكمن خلف ما فى تلك الأبيات نفسها من الصور الوجدانية التى قد يجد القارىء أو المتلقى فيها نفسه ، ثم لا يملك الا أن يناجيهـــا ، وأن يحـــاور ضميره حين يقرؤها •

ولا شك — عندى أن قصيدتيه « الشاعر » و « موت عزرائيـــل » انما تمثلان قمة التصـــوير فى ديوانه « الألحان •• » لجمعهما بين العديد من الصور الجزئية التى تتكون منها تلك الصـــورة الكلية التى أرادها فى كل قصيدة منهما ، ثم هو لم يكتف باجتلاب خاماته فيهما من العـــالم المادى فقط ، وانما مزج ذلك بالوجدان ، وبالتأمل المشـــوب بالفلسفة ، واستكناه الغيب •

---

(٢٣) الألحان الضائعة ص ٤٣ .

ففى الجزء الرابع من قصيدته « الشاعر » المعنون بـ « آدم وحواء » على الأرض يقــول :

هبط العاشقان فى الأرض صبحا ثـم هامـا يستطلعان الحيـاة
بـين عينيهما ضـياء من اللــه ومنـــه ابتســامة فى الشفاه
آدم حــالم بماضـــيه فى الأر ض ، ومستسلم لأحــلى رؤاه
وابنــة الجنة ــ المضــلة ساقيـ ــها ــ تَروَّى سعيدة من هواه
تذرع الأفــق نظـــرة تتجــلى فى سناها رغائب فى الحيــــاه
ليس يمضى بهــا الحنــين لماض نعمــت فيــه ، ثم ولى ســناه
كل أرض تــرى الغــرام عليها هى رسم لعــالم ودعــــاه (٢٤)

ويقول فى قصيدة له بعنوان « عيناك » :

عيناك حولتــا حياتى جـــدولا تهفــو اليــه حمــائم الوديانِ
تتمــايل الأزهار عنـــد ضفافه متجــددات العطــر والألــوانِ
وتمر بى النسمات تلثم صفحتى فى مثل همس الوحى فى الوجدانِ
تحنــو علىّ الناشرات غصونَها فأقبــــل الأغصــان وهى دوانِ
عينــاك حولتــا حيــاتى جدولا يجــرى مع الأيــام دون توانِ
أشـــدو وأسجع والحمائم هتّف تتناقل المنظـــوم من ألحـــانى
صــور الوجود جعلتيها لى لوحة فاليك ترجــع تحفــة الفنان (٢٥)

هكذا حولت عينا المحبوبة حياة شاعرنا الى تلك الصورة الحالمة ،

---

(٢٤) الالحان ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢٥) الشروق ص ٤١ .

جدول رقراق الميـــاه ، تهفو اليـــه الحمائم ، تتمايل الأزهار عند ضفتيه ، يتجدد عطرها ، وتتغير ألوانها ، الى آخـــر تلك التحفة الفنية التى رسمها ببراعة فى تلك الأبيات من خـــلال الألفاظ .

ولا يغيب عن القارىء أن الشاعر يأبى فى تلك الأبيات أيضـــا الا أن يغمس صوره المادية فى الأغوار العميقة من أحاسيسه ووجدانه ، لتخرج مصطبغة بهذا اللون من المشاعر الصادقة ، والأحاسيس النبيلة ، عـــلى النحو الذى نراه فى مثل قوله السابق :

وتمر بى النسمات تلثم صفحتى   فى مثل همس الوحى فى الوجدان

وهو من التشبيه المقلوب لضرب من المبالغة فيما أرى .

واذا كانت الصور الجزئية قد كثرت فى شعر الصيرفى فان قصـــائده لم تشهد فى معظمها لونا من التصوير الكلى ، الذى يرسم من خـــلاله مشهدا حيا ، أو لقطة نابضة بالحياة والحركة ، على النحـــو الذى وجدناه فى شعر السابقين من أمثال ابن الرومى ، والبحترى ، وسواهما ، وبعض المعاصرين من أمثال : أبى شادى ، وناجى ، وعلى محمود طه ، وسواهم .

وليس من العسير علينا أن نسوق العديد من صوره الشعرية الجزئية وبعضها ممـــا تفرد به دون ســـواه ، بمعنى أنه غير مسبوق اليهـــا — على ما أظن — ولكن الصور الكلية كانت قليلة ، ولم تبرز على نحو ملحوظ الا فى شعره ذى النزعة القصصية ، أو الرمزية ، كما سبق أن وضحت .

ومن صوره الجزئية الفريدة نختار :

عجبا للمـــلك الطاغى العبـــوس
يتســـلى كل ليـــــــل بعروس !
« عندما يفرغ من راح الكؤوس

يفرغ الأعمار في جوف الرموس» (٣٦)

* أسعفيني ! فالدجى يمضى سريعا
بعد أن أطفأ في الصمت الشموعا (٣٧)

* وتوارت النجمـات في خيماتهـا ، وخبـا ضياها
وأطـل من سجف الظلام الفجـر ينظر من كواها
ليرى النفوس الهاجعات وقـد تخلت عن أسـاها
عن كل ما تطوى الصـدور ، وما تدارى من جواها
من خيرها من شرها من فـُجـرها أو من تقاها (٣٨)

ان أجمل الصور عند الصيرفي هي تلك التي يغلفها الوجدان الثائر ، أو الاحساس الحزين الساهم ، وقد أفاض شـاعرنا على أشـعاره ذات الاتجاه التصـويرى من رهيف حسه ، ورقيق شعوره ، ونقى وجـدانه ما جعله جديرا بالتقدير على كل حال •

*

٥ — التكرار

وهو منحى بارز من مناحى التعبير عند الصيرفى ، والشيء المؤكـد — بداءة — أن التكرار اذا لم يضف معنى جديدا الى جو القصـيدة كان شيئا ممجوجا ، وعيبا يزرى بالشعر وصاحبه •

ولا يغيب عن أذهاننا أن تلك السمة التعبيرية كان قد شـاركه فيها نفر كبير من شعراء جيله ، وبخاصـة في حمى جمعية أبولو الشعرية ، كالسحرتى ، وعلى محمود طه ، ومحمد عبد المعطى الهمشرى ، وسواهم •

---

(٣٦) شهرزاد ص ١٧ .
(٣٧) شهرزاد ص ٣٨ .
(٣٨) نوافذ الضياء ص ٦٠ ، ٦١ .

والشيء الذى يمكن ملاحظته أن التكرار لا يكون — غالبا — الا حين تثور نفس الشاعر بالأحاسيس ، وتمور بالوجدان ، فيأتى التكرار معبرا عن تلك الثورة المشتعلة فى نفسه ، أو المشتعلة بها نفسه ، وعمـا ينتابهـا من روح التحفز والانقضاض .

وشواهد ذلك كثيرة فى شعر الصيرفى ، وقـد ظهرت تلك السمة فى بواكير شعره فى ديوان « الألحـان » وحسبك أن يردد فى ربيعياته تلك اللازمة : « يا أغانى الربيع .. » على النحـو التالى :

* يا أغانى الربيع يسمعك الكو ن ، وما فيه غير ضاح وضاحك

* يا أغانى الربيع فىالبلد الضا حك بـاك لـم يستمع لرنينـك

* يا أغـانى الربيع ما أنا الا مقطـع من قصـيدة ضاع لحنه

* يا أغانى الربيع ان جاء شاك من رياء الـورى هنـا يتظـلم
هل يلقى عـزاءه ويسـلى أم تزيد الآلام فيـه وتعظـم ؟

* يا أغـانى الربيع لو هتف الصامت يومـا أتنصـتين اليه ؟

* يا أغانى الربيع لو عاد للشيـْ خ شـــباب ماض بـكل رواء
أفينسى الآلام حرقت القلـْ ب وأفنـت ذبالـة الأحشـاء ؟

* يا أغانىالربيع حولت سمعى نحـو قلبى ففيـه أصداء روحى

والا بهذا التكرار ، أو تلك اللازمة التى افتتح بها ربيعياته فى هـذا الديوان على الحاجـه الشـديد فى أن يشاركه الربيع لوعته وأسـاه ، وعلى ما يلقاه بعض النـاس من آلام حتى مع وجـود الربيع بـكل زخارفه ووشيه ونمنماته ، وبكل محاسنه وعليل نسماته ، والشاعر واحد منهم ، ولذا لم يكن عجيبا منـه ما ذكره فى البيتين الأخيرين من قصيدته « الصدى الخافت » آخر تلك الربيعيات ، مما يشير الى تقرح قلبـه ، بعد ضياع لحنه فى الفضاء الميت :

يا أغانى فى الربيع حولت نفسى أغنيـــاتٍ من قلبـــى المقـــروحِ
هى لحنـــى أضعته فى فضـــــاء ميت الحس والصـــدى كالضريحِ

ولن يكون من الميســـور أبدا أن أشـــير الى كل صور التكرار فى شعره الغزير ، لكنه من المؤكد أن تلك الظاهرة ، أو السمة التعبيرية قـــد لازمته ، وكانت أدوات الاستفهام كثيرة التردد فى بعض قصـــائده ، منبئا من خلالها عن مدى لهفته العارمة الى الشىء الذى يمكن أن تقر به نفسه ، وتهدأ به روحـــه ، مثال ذلك ما نـــراه فى قصيدته « تحت ضوء القمر » التى أكثر فيها من أداتى الاستفهام « كم » ، و « أين » : كم مرحنا ..؟ ، كم ضحكنا .. ؟ كم شربنا .. ؟ .. و ..

أين من ترقـــأ دمعـــى ؟ أين من تطـــوى أنينى ؟
أين من كانت لى الأمن ، وكانـــت لـــى خـــدينى ؟
أين من كانت لـــى النـــور اذا أمســـت شجونى ؟
أين من كانت لـــى الشـــك ، وكانت لـــى يقينى ؟
. . . .
أين يا بـــدر وقـــــد جئتـــك وحـــــدى ؟
أين هـــذا العهـــد من ســـالف عهـــدى (٢٩)

وقد لازمته تلك السمة التعبيرية فى دواوينه وأشعاره التى جـــاءت بعد « الألحـــان » ، ففى ديوانه « نوافذ الضياء » يلح على حبيبته أن تسمعه شعره مرويا من فمهـــا ، وقـــد قاده هذا الإلحاح الى تـــكرار رغبته فى مثل قوله :

أريد أن أسمع شعرى وهو يروى من فمـــك
أريـــده مســـطرا .. مطـــرزا بقلمك
. . . .

---

(٢٩) الألحان ص ٥٨ .

أريـد أن أسـمعه مرتـلا برقتـك
. . . .
أريـد أن أسـمعه همس النسـيم للزهَر
أريـد أن أسـمعه وحـى الفـؤاد للوتـر
أريـد أن أسـمعه خفق النجوم فى السحر
أسـمعه فأرتقى الى العـوالم الأخـر (٣٠)

فالشاعر — هنا — يؤكد رغبته فى سماع شعره من تلك الحبيبة ، لما يجـد فى ذلك من لذة روحية عذبة ، ولما يحسه من رقـة شـائقة ، ولما يؤول اليـه أمره من الارتقـاء الى عوالم أخر ، بعيدة عن عالمه ، كل ذلك من خـلال التكرار الذى نراه فى تلك الأبيات .

هـذه هى السمات الفنيـة المتصلة بالأسلوب ، والطريقة الفنية فى الأداء لدى شاعرنا الصيرفى ، فما سمات موسيقاه الشعرية ؟ ذلك ما أحاول الكشف عنه فى الصفحات التاليات .

❋

---

(٣٠) نوافذ الضياء : ص ٣١ ، ٣٢ .

موسيقاه الشعرية

❋

الموسيقى خارجية ، وداخلية ، والعروض يحكم الأولى ، أما الموسيقى الداخلية فتحكمها قيم صوتية باطنية ، وهى أرحب من الوزن والنظام المجردين •

واذا كانت الموسيقى الخارجية تعتمد أساسا على الوزن والقافية فانها تقوم بعد ذلك على عدة مبادىء أساسية هى :

١ — ملاءمة الوزن الموسيقى للمعانى ، والأغراض الشعرية •

٢ — دقة اختيار القافية ، وبراعة التمهيد والتوطئة لها •

٣ — ملاءمة الوزن الموسيقى لعاطفة الشاعر ، ودرجة انفعاله •

❋

وفيما يتصل بالموسيقى الخارجية فقد لاحظ بعض النقاء القدامى والمحدثين أن ثمة فروقا بين القصيدة الواحدة التى تنتمى الى بحر واحد ، فلا يوجد بيتان فى الشعر من صوت متكافىء واحد ، فقد يتفقان فى رقميهما الموسيقى ، ولكنهما يختلفان بعد ذلك فى قيمهما الصوتية الداخلية فلكل بيت صوته الخاص الذى لا يتحد مع صوت بيت آخر ، والذى يفضى بنا الى هذا الجمال الموسيقى الغريب (١) •

والشعر لا يحقق موسيقيته الداخلية بمحض الايقاع العام الذى يحدده البحر ، بل يحققهما بأمرين :

١ — بالايقاع الخاص لكل كلمة ، أى كل وحدة لغوية ، لا تفعيلة عروضية فى البيت •

---

(١) موسيقى الشعر ، للدكتور ابراهيم أنيس ص ٢٨٨ •

٢ — بالجرس الخاص لكل حرف من الحروف الهجائية المستعملة فى البيت ، وتوالى هذه الحروف فى كل كلمة من الكلمات المستعملة ، ثم بالجرس المؤتلف الذى تصوره الكلمات فى اجتماعها فى البيت كله ، فى تتابعها فى البيت بعد البيت فى كل قصيدة ، أو قسم من قصيدة (٢) وبالانسجام بين الجانبين : الايقاع والجرس تصدر موسيقى خفيفة ترى فى أوصال القصيدة تسمى بالنغم الشعرى ، أو بالموسيقى الداخلية ، تمييزا لها عن الموسيقى الخارجية ، اذ تجتمع الأصوات اللغوية تحت تنظيم الايقاع فى تموج يعلو ويهبط ، ويلين ويشتد ، متلائما مع تموج الفكرة والانفعال (٣) •

واذا كان اجتماع الايقاع والجرس يحقق الموسيقى الداخلية فكيف تصل هذه الموسيقى الى قمة تأثرها ؟ تصل الى ذلك عن طريقين :

(أ) دقة اختيار الكلمات وترتيبها من جهة •

(ب) ثم المشاكلة الدقيقة بين أصوات هذه الكلمات فى المعانى التى تدل عليها من جهة أخرى (٤) •

وقد تحدثت عن الموسيقى بقسميها : الخارجية والداخلية بالتفصيل فى دراستى للعالمية (الدكتوراه) : « القصيدة عند شعراء مدرسة أبولو »، حيث عقدت لها فصلا كاملا استغرق العديد من الصفحات ، فليرجع اليه من يطلب التفصيل فى هذا الموضوع •

❋

وقد كتب الصيرفى الشعر العمودى ، والعمودى المجدد ، كما كتب الشعر المقطوعى والمقطعى ، غير أن تجديده فى الموسيقى قد سبق

---

(٢) الشعر الجاهلى ، منهج فى دراسته وتقويمه للنويهى ج ٢ / ٣٨ .
(٣) نفس المرجع ج ٢ / ٤٠ .
(٤) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٨٠ .

القدماء اليه فى الأدبين العباسى والأندلسى خاصة ، وانما يرجع الفضــل اليه فى تلك الناحية لاحيائه تلك الأنماط الموسيقية المندثرة ، وبث الحيــاة فى أوصالها ، وبعثها من جديد •

ويؤمن الصيرفى — شأنه فى ذلك شأن شعراء مدرسته — بأن الصياغة وسيلة لا غاية ، فصياغة الشعر عنــده — كما هى عنــد صديقه مصطفى السحرتى ، رحمه الله — لا تهم نوعيتها مقفاة أو متحررة ، وانما المهــم أن نظفر بشعر حقيقى ، والشعر الخالى من الفن — فى رأيه أيضا ، كما يدل على ذلك شعره — لا يسمى شعرا ، بل لا يمكن أن يعــد شعرا على الاطلاق ، كما أن الشعر ذا الرواء الخــلاب الذى يفتقر الى التجارب القيمة شعر ميت (٥) •

والموسيقى — عنده — أنواع : منها ما تمتاز بقوة وجمال تقطيعاتها الصــوتية ، وان كانت موســيقى ظاهرية ، ومنهــا ما تمتــاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة الايقاعية ، ومنها ما تمتاز بأصــوات ارتكازية فتجمع بين النغمات العالية والمنخفضة ، وهذه الأخيرة لم يعرفها القدماء ، اذ كانــوا يعمــدون الى الموسيقى الرتيبة ، وجــاراهم فى ذلك بعض المحــدثين (٦) •

وهو يؤمن أيضا — فيما يبدو — بأن الالتزام بالقيود الموســيقية فى الشعر القصصى ، أو الفلسفى ، أو التفكيرى قد يكون التزاما لا معنى له ، بل يكفى أن يتوفر فيه الايقــاع •

وقد كان السحرتى يرى : أن الموسيقى اذا كانت لازمة فى الشــعر الغنائى فلا محل للتقيد بها فى أنــواع الشعر الأخــرى ، والا وقعنا فى عبودية فنية (٧) •

---

(٥) انظر : شعر اليوم للسحرتى ص ١٦ — ١٩ •
(٦) انظر : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى ص ١١٠ •
(٧) انظر : نفس المرجع ص ١١٨ •

ويبدو أن الصيرفى قد تأثر بصديقه أبى شـادى فى دعـوته الى « الشـعر الصـافى » ، وهـو الذى يكتفى بعنـاصر جماله الذاتية ، ويأبـى التبعية لأى فن سـواه ، وان رحب أبو شـادى بمـزامتله غيره من الفنون الملائمة له (٨) ، غير أن هذا التأثر الذى أعنيـه ان جاز تطبيقه فى بعض شـعره فانه لا يجـوز تعميمه على كل ما أنشـأه من أشعار ، لأن الصيرفى كانت لـه فى شـعره موسيقاه الخاصـة المتميزة بلا أدنى تسـك .

والذى أعتقده أن أبا شـادى كان يريد فى الشعر أن يكون ترجمـة صادقة عن فكرة الشـاعر المتأصـلة فى نفسـه ، وتمثيلا لتجربته التى تعيش فى شعوره وحسه على نحو يحفظ للشعر قيمته ، ودرجته الفنيـة بين سائر الفنـون ، وان كان قد قدم الطـلاقة البديعة والخيال الرائع على الموسيقى فى الشعر ، كما حارب فى مقدمة ديوانه (فوق العباب) الألحان الصناعية الجوفاء ذات الرنين الخطابى الجهير ، والذى لا يحمل فى طياته مضمونا شعريا أصيلا .

*

ويمثل الموسيقى الخارجية لقصائد الصيرفى موسيقى الرنين الشعرى المستفاد من الوزن السليم ، والقافية الموقعة .

أما موسيقى العواطف والخواطر التى تتواءم مع موضـوع الشعر وفكرة الشاعر فانما تمثل الموسيقى الداخلية ، التى تحكمها قيم صوتية باطنية ، وان كانت موسيقى الشاعر تمتاز فى عمومها بالارتفاع .

ويذكر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « دراسـات فى الأدب العربى الحديث ومدارسه » أن الصيرفى متأثر بالمدرسة الجـديدة فى الشعر ، هذه المدرسـة التى تمثل مدرسة المهجرين وأبولو ومدرسـة أصحاب المذهب الجديد فى الشعر (شكرى ، والمازنى ، والعقاد) وتجمع من آرائها فى التجديد الشعرى كل طاقات القصيدة وقوالبها .

---

(٨) انظر : ديوان فوق العباب لأبى شادى ص : ب ، ج .

وهو يجهد نفسه اجهادا شديدا فى اختيار الوزن الشعرى ، ويغلب على شعره أن يكون من الأوزان القصيرة ، أما الأوزان الطويلة فقليلة فى شـــعره •

ويرى الدكتور خفاجى أيضا أن الشاعر يغلب عليه استعمال البحـــر البسيط ، لكنه حين يستعمله يأتى بالوزن القصير الراقص منه ، وهـــو مخلع البسيط •

أما أوزانه الأخرى فهو مع تصرفه فى الأوزان القديمة تصرفا يجعلها جديدة — يؤثر استعمال البحـــور القصيرة المجـــزوءة فينظم من البحور الآتيـــة :

١ — الخفيف ، وقد ينظم من مجزوئه أيضا •

٢ — الكامل ، ويستعمله تاما ، وقد يستعمله مجزوءا ، أو محذوفا منه بعض الوحدات الصوتية •

٣ — ويستعمل فى شعره بكثرة البحور الآتية : السريع ، المتقارب ، الوافر ومجزوءه ، الرمل ومجزوءه ، الرجز ومجزوءه ، المتدارك ومجزوءه ومشـــطوره ، الهزج •

ومن الجدير بالملاحظة أن الشاعر ينوع هنا فى هذه الأوزان ، ويخالف بهـــا منهج القدماء ، وموسيقاهم فيها ، فقد يستعمل فى الرجز — مثلا — وزن : « مستفعلن فعلن » •

وقد ينظم من أوزان جديدة محضة ، ومن بين هذه الأوزان قصيدته « الفتنة النائمة » التى يقول فى مطلعها :

نامى عـــلى الرمـــال
يا فتنـــة الجمـــال

---

(٩) حول النور ص ١٦٥ •

ووزنه « مستفعلن فعولن » ، وهـذا الوزن يخالف أوزان بحـور الشعر القديمـة •

ومن هذه الوزن كذلك قصيدته « ترنيمة السلام » ومطلعها :

عودى مـع الربيع
لروضـك البديع (١٠)

وله من الجديد سوى ذلك صور أخـرى خالف بهـا اصطلاحات العروضيين ، والشعراء القدماء فى أوزان البحور ، وهى كثيرة •

وكذلك يجهد الشاعر نفسه فى القافية وصـورها اجهـادا شديدا ، فمن القصيدة ذات القافية الواحدة الى القصيدة ذات القوافى المتعددة ، مما يشبه المربع ، أو المخمس ، ومما يأتى على صور كثيرة طريفة من المزدوج ، الى ما هو أشبه بالموشح الشعرى •

ومن الجدير بالذكر أن تعدد الأوزان والقوافى عند الشاعر يعبر عن حرصه على التجـديد ، ومتابعته شتى تيارات الجـديد ، ويمثل كذلك القلق النفسى ، والحيرة العميقة التى يعيش فيها الشاعر فى عصره الحافل بالأحداث ، والقلق الفكرى والروحى (١١) •

*

ومن المناسب بعد هذا العرض السريع لموسيقى الصيرفى الشعرية أن أعرض لنماذج من تلك الأنماط الموسيقية — التى تحدثت عنها فى تلك النظرة الطائرة السابقة — موضحا ومبينا •

---

(١٠) رجع الصدى ص ١٢٠ •
(١١) انظر : دراسـات فى الأدب العربى الحـديث ومدارسه ، حـ ٢ / ١٩٠ — ١٩٤ • للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى •

١ — القالب المقطعي

نشــأ الشعر المقطعى أســاسا عن اختــلاف القافيــة ، والتزام الشــاعر بها فى عدة أبيــات ، ثم تغييرها فى عــدة أبيــات أخـرى ، داخل اطار القصيدة الواحدة •

وقد اتخذ هذا النظام الموسيقى طريقين بارزين فيما يختص بالوزن : أولهما : أن تتغير القافية من مقطع لآخــر فى اطار القصيدة الواحــدة دون تغيير الــوزن •

ثانيهما : أن تتغير القافية من مقطع لآخر داخل القصيدة الواحــدة مع تغيير الــوزن •

وليس من الشعر المقطعى المزدوج والمربع ، وان ذهــب الى ذلك بعض الباحثين [١٢] ، اذ المزدوج والمربع نمطان متميزان يختلفــان بعض الاختلاف عن الشعر المقطعى الذى قد تتحد فيه المقاطع وقد تختلف فى عدد الأبيات ، بينما يتقيد الشاعر فى المزدوج والمربع بنظام ثابت لا يتعداه ولا يتخلى عنه فى اطار القصيدة العام •

ثم ان هناك فارقا بين المزدوج والمربع بعد ذلك ، فالمزدوج يتألف منأزواج شطرات كل زوج على قافية واحدة تخالف بقية القوافى ، والمربع كالمزدوج غير أنه يزيد علية فى الالتزام بالقافية حيث يكون بين الشــطر الأول والثالث منهما اتفاق فى قافية ، وبين الثــانى والرابع اتفــاق فى قافية أخرى ، وأحيانا تكون الشطرات الأربع متحــدة فى القافية ، وفى بعض الحالات تتحد ثلاث شــطرات فقط فى القافيــة هى : الأولى ، والثانية ، والرابعة أما الثالثة فتكون حرة •

ويرى الدكتور أحمد هيكل أن المخمس من الشعر المقطعى [١٣] وأنا أتفق معه فى ذلك ، ولا أخالفه •

❋

---

(١٢) ، (١٣) : انظر : تطور الأدب الحديث فى مصر ، للدكتور احمــد هيكل ص ٣٨١ •

(أ) القالب المقطعى المتحـد فى عدد الأبيـات :

ومن نماذجه فى شـعر الصيرفى قصيدته البلبل بديوانه « رجـع الصـدى » التى تتكون من أربعـة مقاطع كل مقطع مكون من سـتة أبيات ، واليك مطلع كل مقطع منها :

* بلبل الوادى استفق فالديك قـد نبـه فجـرك
* بلبل الـوادى تنبـه ! لـم لا تطـرب صبحـك
* الربيـع الطـلق قـد آب ، ولـكنى مهيض
* الربيـع الطـلق قـد آب .. فمن لى بربيعى (١٤)

وقد يعمد الصيرفى فى هذا اللون الى الالتزام بحرف روى واحـد فى البيت الأخير من كل مقطع ، شادا بذلك انتباه القارىء الى تلك اللازمة الموسيقية التى تجمع كل مقاطع القصيدة حول نغمة واحـدة ، مثال ذلك قصيدته « وحى الخيال » التى تقع فى اثنى عشر مقطعا على النحو التالى :

من خلـف ألف ظـلال
ومن مجـالى الجمـال
رسـمت وحى خيـالى
فكنـت أنـت خيـالى *

*

رسـمته طيـف حـلم
رسـمته دون عـلم
أن الـذى كـان وهـمى
قـد حققتـه الليـالى *

*

(١٤) رجع الصدى ص ٦١ — ٦٣ (المجموعة الثلاثية) .

كنت الخيـــال الفـريدا
فى الغيب ظـــل بعيـدا
حتى طـويت الحـــدودا
اليك قبل ارتحالى [١٥] وهكذا ٠٠٠

*

(ب) الشعر المقطعى المختلف فى عدد الأبيات من مقطع لآخر :

ومن نماذجه قصيدته « وحى المصباح » [١٦] التى أهـداها « الى روح توماس أديصن » ، وتقع فى سبعة مقاطــع : الأول : ويتكون من ستة أبيات ، قافيتها نونية :

* أيهذا المصـــباح يا أثر العقـ ـلِ وروح الجبار فى الانسان

والثانى : يتكون خمسة أبيات ، وقافية سينية :

* أيهذا المصباح قص علينـــا بلســـان من الضياء الماسى

والثالث : يتكون من سبعة أبيات ، وقافية لامية :

* أظلم الليل فاعتليت عروشا وسما النور فانتظمت جلالا

والرابع : يتكون من خمسة أبيات تنتهى بحرف الهاء :

* أى نور ذاك الذى أطفأ المو تُ وفكرٍ ذاك الذى قد طواه

وهكذا تسير القصيدة فى باقى المقاطع ، اختلاف فى عدد الأبيات من مقطع لآخر ، واختلاف القافية من مقطع لآخر أيضا ٠

*

وقد كان الشعر المقطعى عند الصيرفى يأتى أحيانا على وزن واحـد من أوزان الشعر العروضية ، من أول القصيدة حتى آخرها ، وأحيـانا

---

(١٥) نوافذ الضياء ص ٧٧ — ٨٢ ٠
(١٦) الألحان ص ٦٧ — ٦٩ ٠

يدخل الى جوار الوزن الـذى ابتدأ به قصيدته أوزان جديدة أخـرى ومثال ذلك قصيدته « الحرمان » بديوانه « الشروق » ، و « النسـمة المضطربة » بديوانه « النبع » ، وسواهما .

يقول فى القصيدة الأخيرة :

كالجمـلة الحزينـــة المقتضبه°
كالدمعـــة الأبيـــة المنسكبه°
تمـر هـذى النسمة المضطربه°

تمـر حيرى لا يرى مقرها	وكل للمجهول دوما أمـرها
قد غاب خلف الظلمات سرها	مثل السفين غاب عنها برّها

والمـــوج لاه لا يمـل لعبـه°

وفى مقطع آخر فى هذه القصيدة يقول :

لا تغضبى كالريح وتثورى	فأنت روح ناعـم الشعور
يعيش كالبنفجـة فى الزهور	ولمعة الأشراق طى النـور

يا نسـمة رقيقـة مطيّه° (١٧)

ولكن الشيء اللافت للنظر هنا أن الصيرفى يأبى الا أن يربط بـين تلك المقاطع المختلفة الأوزان أو البحـور بهذه القافلة أو القرار الـذى يتفق فى كل المقاطع مع أبيات الافتتاح ، من مثل « والموج لاه لا يمل لعبه° » فى المقطـع الأول ، و « تنظـرها بالنظرة المكتئبه° » فى المقطع الثانى ، و « فى كوة مجهـولة محجبه° » فى الثالث ، وهـكذا ، وهـذا السمط الموسيقى لم تفقد معه القصيدة — رغم تعدد الأوزان والقوافى فيها من مقطع لآخر — نغمها ، ولذلك نظائره الكثيرة فى شعر ، مما لا يتسع المجـال هنا لعرضه مفصلا .

---

(١٧) ديوان : النبع ص ٨٣ — ٨٦ .

وليس من السهل — هنا — وأنا أتحدث عن موسيقى الصيرفى الشعرية أن ألم بكل الأنماط الجديدة التى يمكن الحاقها بالقالب المقطعى ، فالشاعر لم يكتف بتغيير قافيته فى قصائده المقطعية كل عدد معين من الأبيات مع اتفاق الوزن فى كل أجزاء القصيدة ، أو حتى اختلافه ، ولكنه تفنن كثيرا فى استغلال موسيقاه الى أبعد غايات الاستغلال ، ولا أغالى اذا قلت ان هذا الشاعر الصيرفى قد أكثر — فى معرض تفننه الموسيقى هذا — من الأنماط الموسيقية التى يصبح من غير الميسور أن أعرض لها كلها هنا ، ولكنى أرى أن ما ذكرته بشأن موسيقاه التى تعتمد على القالب المقطعى يفتح الباب أمام الدارسين القادمين على الطريق ، ليقدموا لنا رؤية أكثر رحابة وأوسع أفقا •

وعندى أن الصيرفى قد اهتدى بفطرته السليمة الى ضرورة توحيد القافية فى القرار الذى يأتى به عقب كل مجموعة من الأبيات كما فى قصيدته السابقة « النسمة المضطربة » ، ذلك لأن اختلاف الوزن والقافية ، أو اختلاف القافية وحدها دون الوزن ، أو العكس فى قصيدة واحدة ربما أذهب بعضا من روائها الموسيقى ، فرأى شاعرنا فى توحيد القرار اشباعا لنفسه ، وارضاء لحسه ، كما أن ذلك الصنيع الذى عمد اليه كثيرا فى شعره يوحى بقوة الحاح تلك الأحاسيس التى يتتابع موجها فى روحه العذبة الشاعرة على نحو جدير بالتقدير •

*

وهناك فارق دقيق بين الشعر المقطوعى ، والشعر المقطعى ، فالشعر المقطعى تتكون القصيدة الواحدة فيه من عدة مقاطع ينتهى كل مقطع منها بقافية مغايرة لبقية المقاطع فى القصيدة ، وقد يجمع بينها البحر الشعرى ، وقد تأتى من أوزان أو أبحر مختلفة ، ولكن القصيدة يجمعها الموضوع فى النهاية ، على النحو الذى عرضت له من قبل •

أما الشعر المقطوعى فهو ما لا يبلغ أن يكون قصيدة ، والقصيدة هى ما بلغت سبعة أبيات فصاعدا — على الأرجح — أما المقطوعة فهى

ما دون ذلك ، ونماذجها كثيرة ، ومبثوثة فى دواوين الصيرفى ففى ديوانه « الألحان » مثلا كتب تحت عنوان « أيهما أصلح » يقول :

أتــرى يصـــــلح من عالمنـــــا　　أن يبيـــد الشر منــه أم يضر ؟
لا أرى الا بقـــــاء الشرّ كــى　　يعرف العالم ما يعنى بـ «خير»(١٨)

فمثل هذا الشعر يندرج تحت شكل « المقطوعات » لا « المقاطع » على النحو الذى بينته من قبل بالتفصيل •

❋

٢ ـ استعماله البحور الخفيفة

المطلع على نتاج الصيرفى يرى فى وضوح اكثاره من البحور الخفيفة ذات التفاعيل القليلة •

والبحور القصيرة فى عمومها تبعث فى جو النص موسيقى خفيفة ، مجنحة الأنغام ، تسمو بالنفس ، وتصعد بالروح فى مراقى الجمـــال ، وقد كثر ميله الى الخفيف والرمل والهــزج ، والى مجزوءات البحور الطوال ، ودفعــــه ذلك الى التقليل من البحور ذات التفاعيل الكثيرة : كالبسيط ، والوافر ، والطويل ، وما اليهـــا ، اللهم إلا بعض قصـــائد الرثاء ، وغيره من الموضوعات القديمة التى أكثر فيها من تلك البحـــور الطـــوال •

وقد هدف الصيرفى من ذلك الى اشاعة جو من النغم الجميل العذب فيما يكتبه من أشعار ، مبعدا بها عن الرنين والخطابية ، وان علا نغمـــة فى بعض قصائده ، خاصة تلك التى حاكى بهـــا بعض القصــــائد الطائرة الصيت فى الشعر القديم •

لقد مكنته تلك الأوزان القصار من أن يغنى لحفيدته « دينـــا » فى

---

(١٨) الألحان .. ص ٧٢

عيد ميلادها الرابع (٤ نوفمبر ١٩٧٨ م) تلك الأغنية الرقيقة العذبة ، التى لا تتأبى على الغناء فى تلك المناسبة ، وفيها يقول :

دينا .. يا دينا .. يا دينا
يا بسمة نور تحيينا
يا نغمة لحن تشجينا
يا قطرة ماء تروينا
يا زهرة أنس تنسينا
تعبا أو ألما يضنينا
ميلادك عيد أمانينا
يتكرر دوما يا دينا
. . . .
دينا .. يا دينا .. يا دينا
ميلادك عيد أمانينا (١٩)

والذى يطالع شعر الصيرفى يدرك أنه قد اعتمد كثيرا على الأبحر القصيرة ، ولقد أحس بعض رفاقه بتلك السمة التعبيرية فى شعره ، كما أدرك ذلك غيرهم من قارئى شعره ودارسيه ، ولربما يسأله بعضهم عن تلك السمة وعن سرها فلا يجيب ، حتى كانت قصيدته التى وسمها بـ « قصائدى الأخيرة » : التى رد فيها على هذا التساؤل ، قال :

قصائدى الأخيره ... موجزة ، قصيره
من أبحر راقصة ... كموجة البحيره
كأنها انفراجة ... من شفتى صغيره
عن لفظة حبيبة ... وبسمة غريره
سامية بروحها ... عالية طهوره
حملتها فى رقبة : ... خواطرى النثيره

---

(١٩) عودة الوحى ص ٧٥ — ٨٠ .

تأمـــلاتي السـبا حة ، الشاردة النفـوره
أحــلامي الهـادئة الـ ناعمـة ، القـريره
آمــالي المكبـوتة ، المحبوسـة ، الأسـيره
أوهــامي السـاخرة ، الثـائرة ، المثـيره
آلامـي المـوارة ، الدفاقـة ، الكثـيره
أحـزاني الصـامتة ، الدامعـة ، الغـزيره
ما بـان في الجفـون ، أو مـا غـاب في السريره
عابـرة مـن عـالم أضـيق من حفـيره
الى محيـط واسـع في الفجـوة الكبـيره

❋

قصـائدي القصـيره أنفـاسي الأخـيره
كومضـة المصـبا ح في ائتـلاقة منـيره
في خفقـة مسرعـة ، لاهثـة ، قصـيره (٢٠)

ولا شك أن هذه الأبيات جمعت فأوعت ، جمعت كثيرا مما كان يمكن أن يقال في فلسفة اختيار الشاعر أمثال تلك الأوزان الخفيفة الجياشة ، تلك التي اعتمـد عليهـا كثيرا ، لما وجـده فيهـا من خفة وسلاسة ، وليونة وعذوبة ، تشيع في النص تلك الموسيقى الهامسة التي تضفي على شعره من روحه الغالية ما يتناسب وطبيعة العصر الذي تشابكت حياتنا فيه وتعقدت ، وأصبحنا في حاجة ملحـة الى ما يخفف آلامنا ، ويطهـر نفوسنا من أوزار الحيـاة ، ومتاعبها الثقال التي أنقضت ظهورنا حتى قوستها ، وجعلتنا نشعر بضغوط الحضارة العصرية علينا من كل اتجاه .

في قصيدة « الموجة الراقصة » نحس بحركة راقصة تتسـلل الينا من خلال الأبيـات ، وكأنه أراد من ذلك أن تخرج موسيقاها مسـايرة لحركة الحسناء الراقصة مع الأمواج في شاطئ سيدي جابر وكان قـد جعل اهداء هذه الأبيات اليها ، يقـول :

(٢٠) زاد المسافر ص ٢١ — ٢٣ .

هدأ المـوج فاسبحى — وسجا البحـر فامرحى
أنت فى المـاء رقصـة — حـرة فـوق مسـرح
ضجة البحـر عنـدما — تتهـادين تمحّـى
هـو شمشون فاهـزئى — فى هـواه المبـرح
بالقـوى منـه واسـبحى — كالخيـال المجنـح
حـدثى المـوج ، حدثى — واكشـفى السر واشرحى
لا تظنيـه معلنـا — مـا تبثـين فافرحـى
أنتمـا سر سـاحر — سـتره لـم يزحـزح
أنـت كالبحـر عالـم — مغرب غـير مفصـح [21]

وهكذا شاع فى دواوين شاعرنا استعمال تلك البحـور القصـيرة ذات التفعيلات القليلة ، وتفشت فى نتاجه • منذ أن شـدا بالشعر لأول مرة ، حتى يومنا هذا ، وهو أمـر يلفت النظر ، ويسترعى الانتبـاه ، ويثـير التأميـل •

*

٣ — احياؤه صـوراً من التجديد

الموسيقى فى الأدبين : العباسى والأندلسى

أحيا الصيرفى بعضا من الأنماط والأشكال الموسيقية التى كانت قـد اندثرت بين ركام الزمن بعـد أن كانت موجـودة فى الأدبين : العباسى والأندلسى ، حيث بذل بعض الشعراء المحدثين (فى هذين العصرين) محاولات لصياغة الشعر فى أوزان جديدة غير أوزان العروض المتوارثة ، ومن هـؤلاء رزين بن زندورد مولى طيفور بن منصور الحميرى خـال المهدى ، فان كثيرا من شعره يخرج عن العروض ، ومن ثم قيـل له : رزين العروضى ، ولكن أهل زمانه لم يتبعوه فى هذا المنهج •

---

(٢١) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ص ٨٩، ٩٠ •

ومما ساعد على انتشـــار شعر المحدثين وذيوعه واشتهاره عن طريق الغناء ، ولا سيما غناء الجوارى اللواتى وفر لهن النخاســـون أســـباب الدراسة والثقافة من أجـــل أن ترتفع قيمتهن ، وليستفيدوا من صناعتهن فوائد مضاعفة ، اذ كان الشباب يجتمعون فى بيوتهم لاستماع الغنـــاء والتلذذ بالغزل والشراب (٢٢) .

وفى الأندلس نشأ فن الموشحات لظروف مشـــابهة لتلك الظروف ، وتعددت صور وأشكال هـــذا الفن الى الحد الذى لم يتمكن معه ناقـــد أو دارس — فيما يبدو — حتى الآن من احصائها .

والذى أراه أن الصيرفى قد تفنن فى صوره الموسيقية الى الحد الذى يصعب معه احصاء كل تلك الصور أيضا .

ولا نكاد نقع على نمط أو شكل موسيقى عند الصيرفى الا وجدنا له نظـــيرا عنـــد العباسيين ، والأندلسيين ، وقد ينفـــرد ببعض الأنمـــاط أو الأشكال ، ولكنها محصورة فى شعره على كل حال ، ومن تلك الأنماط ، المزدوج ، والمشطر ، والمربع ، والمخمس ، والموشح ، وغيرها .

لقد ضلت بذرة التجـــديد الموسيقى فى تربة العربية ردحا من الزمن بعد عصرى العباسيين والأندلسيين حتى اذا كان العصر الحديث ، تهيأت لتلك البذرة ظروف مناخية جديدة أخذت فى النمو من جديد ، وصـــارت فيما بعد غرسا كريما عنـــد شعراء المهجـــر ، وشعراء أبولو ، وقد كان الصيرفى واحدا من شعراء أبولو كما هو معلوم .

ولقد يحور الصيرفى فى كتابة قصيدته فتبدو جديدة اللحن ، بينمـــا تكون فى الحقيقة غير خارجة عن نطاق بعض الأنماط الموسيقية التى طرقها

---

(٢٢) راجع تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ترجمة د . عبـــد الحليم النجار حـ ٢ / ١٠ ، ١١ طبع دار المعارف .

الشعراء المجددون من قبل فى الأدبين : العباسى والأندلسى ، فنحن — مثلا — نقرأ قصيدته « هدأت ليلى هدأت » التى يقول فيها :

هـدأت ليـلى هـدأت
فـلا أنـين
لـكنى أرانى رجعـت
الـى الحنـين

فابعث بعيـد الذكـرْ من عـالم النسـيان
وانثر قـديم الصـورْ أنعش بهـا الوجـدان

ولـو كطـرفة عـين

فنخدع بكتابتها (هكذا) بينما هى فى الحقيقة أشبه بكتابة الموشحة فى بعض صورها ، حيث جعل لها قرارا أو قفلا فى نهـاية المقطوعة هو « ولـو كطرفة عين » ، وهـكذا يمكن اعـادة كتابتها من جـديد على النحـو التـالى :

هـدأت ليـلى هـدأت فـلا أنـين
لـكن أرانـى رجعـت الى الحنـين
فابعث بعيد الذكرْ من عالم النسـيان
وانثر قديم الصور أنعش بها الوجدان
ولو كطرفة عين (٢٣)

*

كتب المجـددون من الشـعراء العباسيين والأندلسيين — اذن — المزدوج والمربع ، والمشطر ، والمسمط ، وسواها ، وجاء الشعراء المجددون فى هذا العصر الحاضر فأعادوا الحياة الى تلك الأشكال المندثرة من جديد ،

---

(٢٣) الالحان الضائعة ص ٦٣ .

وبثوها فى أوصالها ، فنهضت مرة ثانية بعد أن لبثت خامدة مدة ليست بالقصيرة من الزمن .

وقد يكون الأزدواج بين الشطرين فى البيت الواحد (هكذا) :

. . . . . . ل . . . . . . ل

وقد يكون فى القصيدة التى تأتى فيها الأبيات أزواجا ، كل زوج منها ينتهى بقافية واحدة (هكذا) .

. . . . ر . . . . س *
. . . . ص . . . . س *
. . . . ع . . . . م *
. . . . ف . . . . م *

ومثال هذا الشكل الأخير قصيدته « حطام » التى جاءت أبياتها أزواجا على النحو التالى :

يا عاشقى بالأمس يا هاجرى ... افتح لى الباب الذى توصده
أبالس الليل تحث الدجى ... وتوقظ الريح .. فمن أقصده

*

جهلت صوتى أم تجاهلته ؟ ... وصوتك العذب مديد الصدى
القلب لا ينكر من ضمه ... فى يقظة العمر ، ويل الصدى

*

افتح لى الباب فان الذى ... يهم أن يفتح لى بابه
من تملأ الرحمة وجدانه ... لن تبلغ القسوة أعتابه (٢٤)

وبعضهم يعد هذا الشكل من « الرباعيات » فى الوقت الذى ينبغى أن ندرك فيه أن « الرباعية » عبارة عن أربعة أشطر يتفق الأول والثالث

---

(٢٤) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ص ١١٠ — ١١٩ .

منها فى قافية ، والثانى والرابع فى قافية أخـرى ، وقد تتفق كل الأشطر فى قافية واحدة ، ومثال ذلك فى شعر الصيرفى : « شهرزاد » التى كتبها فى هيئة رباعيات تتفق الشطرات الأربع فى كل رباعية فى قافية واحـدة ، ومثال رباعياته من النوع الأول ما ورد فى قصيدته « موت فنان » :

غنـاؤك العـذب فى الظـلامْ   يـرن فى مسـمع الزمـنْ
وأنـت فى قبضـة الحمـامْ   كالحـلم فى قبضـة الوسـنْ

❋

أأنـت يا صـامتا تـؤوبْ   أيامـه للمـدى البعيـدْ
الصـادح المرقص القـلوبْ   الساحر الفـاتن النشيدْ ؟ (٢٥)

❋

وقد يأتى فى « المزدوج » من النوع الأول بشـطر ثالث لتصير القصيدة على هذا النحو التالى :

هاهو الفجر من خـلال الستائرْ   فى جـلال كأنـه وحى شـاعرْ
مقبـل فاتـن المـلامح ساحرْ

غمـر الـكون سره وتجـلى   فجثـا الـكون عنـده يتملى
ما أتـاه الظـلام حتى تولـى

❋

فاذا الجـو غـارق فى اهتزاز   كاهتزاز الأوتـار دون نشـاز
وخفـوق ، لكنـه باعـتزاز

عزفتـه صـوادح قدسـيهْ   تتغنـى أنشـودة الأبديـهْ
أى لحن هذا ، وما الأغنيه ؟ (٢٦)

وهكذا يسير الصيرفى فى قصيدته الموسومة « الشاعر » ، ولم يتحرر من هذا النمط الموسيقى الا فى القسم الرابع ، والقسم السادس الى نهاية القصيدة فى القسمين الأخيرين : السابع والثامن .

---

(٢٥) الشروق ص ٧٧ — ٨٠ .
(٢٦) الالحان الضائعة ، قصيدة « الشاعر » ص ٣٣ .

وهناك لون آخر من « الرباعيات » وفيه تتكرر القافية فى الشطر الرابع بعينها فى وحدة نغمية آسرة ، ومثال ذلك قصيدته « قيثارة الاحساس » التى نقتطف منها رباعيتيه الأخيرتين فيها :

الشاعر الفنانْ والصاحب الانسانْ
يحرسه الرحمنْ بألف رعْى عيونْ

أنت له صداهْ أنت له غناهْ
أنت له الحياهْ سلمت ياميسونْ !(٢٧)

أما « المخمس » الذى يعد من الأشكال الجديدة التى طرقها الشعراء المجددون فى عصر العباسيين ، وفى الأندلس أيضا فقد كتبه الصيرفى كذلك ، ومثاله عنده قصيدته « زهرة » التى يقول فيها :

ابسمى للصباح فهو معنى السماحْ
وازدهى بالفواح فهو روح وراح
للهوى والمراح
عطرى لى الطريق بالشذى والرحيق
ان قلبى الطليق معرض لا يفيق
تحت سر الأقاح (٢٨)

وبهذا يكون الصيرفى قد دار فى نفس الفلك الذى دار فيه الشعراء المجددون من قبل فى عصر العباسيين ، وفى الأندلس ، ولكنه بالاضافة الى احيائه هذه الأنماط كانت له لمسات فنية ظاهرة نتقراها بلمس فى

---

(٢٧) عودة الوحى ص ٧٣ .
(٢٨) رجع الصدى ، المجموعة الثلاثية ، ص ٣٣ .

شعره الغزير ، ولقد كانت له بالفعل — كما سبق أن أشرت — تجديدات أدخلها على القوالب الموسيقية القديمة •

ومن الصعب — كما سبق أن رددت — أن ألم فى مثل هذه الدراسة بكل تلك التجـديدات التى كانت تقف وراءها جرأة كبيرة هيأت لهـذا الشاعر أن يقتحم هذا الميدان ، وأن يمدنا بكل تلك الأشكال الموسيقية التى لم يكن للناس عهد بها من قبل •

ولأضرب على ذلك — فوق ما أشرت اليه من قبل — مثالا من بواكير نتاجه الشعرى وهو قوله فى قصيدته « انفردت » :

يا فؤادى بعد ايناس الأمانى انفــردت
ثم جئت الآن تشكو ما تعانى هل عرفت ؟
يا فؤادى سر آلام الحياه
انــه الحب اذا ولى سناه

*

قد نأى عنك الذى شاركته فى الصبا
لذة الحــب وكــم ساقيته اذ صبا
للهوى من دون ما يدرى الهوى !
يا فؤادى قد جفا وتناسى واجتوى
فانفردت

*

سله عن سـلواه وابحـث مثله
عن سـلوٍ ودع الدنيــا لــه
قد فقدت

كل لـــذات الحيـــاه°
وانفـــردت الآن . آه
انفردت (٢٩)

وفى الكثير من شعره الذى عرضت عليك نماذجه من قبـــل ، وفى غيره أيضا مما لم أعرضه عليك ملامح من هذا التجـــديد الذى تمخض عن جرأة شاعرنا الصيرفى ، واقتحامه ميدان الألحان ، واقتناصـــه منها الشىء الكثير ، وأستطيع الآن أن أقول وأنا واثق مطمئن ان هذا الشاعر لم يجاره حتى الآن شـــاعر من شعرائنا المعاصرين فى هذه الألحـــان ، لا أقول : الضائعة — كما قال — ، بل الألحـــان التى لا تضيع .

❋

ويـــرى الســـــحرتى ومعـــه بعض النقـــاد أن الشـــــعر المرسل يعنى عدم التقييد بالقافية ، فقد عد العقاد قصيدة ذات القوافى لمحمـــد توفيق البكرى من الشعر المرسل وهى « المزدوج » كما عـــد السحرتى قصيدة « الى المرسم » لأبى شادى من الشعر المرسل أيضا ، وهى من الأراجيز المزدوجة .

ولو جاز لنا أن نعـــد « المزدوج » ومثله « المربع » من الشـــعر المرســـل كما ذهب الى ذلك الأســـتاذان عبـــاس العقـــاد ، ومصطفى السحرتى ، وسواهما لكان الصيرفى من شعراء العصر الذين كتبوا هـــذا النمط من الشعر .

وعندى أن « المزدوج » و « المربع » و « المســـمط » و « المخمس » وغيرها من الأشكال الناهضة على التنوع فى القافية شىء ، والشعر المرسل شىء آخـــر ، ففوضى القافية هى التى تحكم الشعر المرسل ، بينما يحكم التنوع المنظـــم لهـــا كلا من « المزدوج » و « المربع » و « المسمط » و « المخمس » وســـواها .

---

(٢٩) الألحـــان الضائعة ص ٥١ .

وعندى أيضا أنه لا ضير من أن يعمد الشـاعر الى تلك الأنمـاط الموسيقية فيصب أشعاره فيها ، فتنوع القافية المنظم لا يصـدم الأذن — فيما أرى — بل ربما أطربها ، أما الشعر المرسـل فهو شعر لا يمكن أن يقوى على مجابهة الزمن ، بل لابد أن يمـوت ، لما فيه من النشـاز الذى يصدم الأذن والذوق على كل حـال •

*

ولا شك أن الصيرفى حين تخلص من النسق الموسيقى القـديم فى الكثير من قصـائده انما كان يحـاول أمرين : أولهما : محـاولة الوقوع على أنماط موسيقية جـديدة غير تلك التى تعـودت عليها الأذن العربية طويلا ، حتى ملتها واجتوتها ، وثانيهما : التعبير الكامل عن مشـكلات العصر تعبـيرا ينهض بحاجات الانسـان العصرى ، وتجاربه الحيـة التى تختلف جد الاختلاف عن التجارب السـابقة التى كانت للشعراء القدماء •

وليس اللجوء الى تلك الأنماط الموسيقية الجديدة بالضرورة نتيجـة العجز عن الوفاء الكامل بأحكام الشكل المنهجى ، ولـكنه الحرص عـلى عنصر الأصالة التى قد يخنقها التزام الشاعر بترديد أصداء الفحول من الشعراء السابقين وتقليدهم ، والا فان الصيرفى قد اعتمـد فى الجـانب الكبير من شعره على بحـور الشعر العروضية ، دون أن يفقـده ذلك أصالته ، غير أن أوزانه الشعرية غير المجـددة انما كان يلجأ اليهـا فى الموضوعات التى لا تتأثر فى شكلها كثيرا بمبدأ الحداثة الذى كان يدفعه الى تلوين ألحانه فى سـبيل الوفاء بتجاربه العصرية على النحـو الذى نجـده فى شعره المجدد الألحـان •

*

والشىء الأخير الذى أود توجيه النظر اليه — هنا — أن شـاعرنا

الصيرفى يدرك تمـاما أن الموسيقى الشعرية الحقـة هى التى تسـاير موضوع القصيدة ، وتتواءم مع التجربة ، وتتجاوب ألوان نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر فى اهتياجه وغضبه ، وحنقه وغيظه يـكون تعبيره بالموسيقى عالى الرنين ، وفى حزنه وأسـاه تأتى موسيقاه منخفضة هادئة ، وفى تعجبه وفرحه ، وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصـوتية قصيرة ، وأما فى بثه وألمـه فتأتى المسـافات الصوتية طويلة .

إننا بلا شك ندرك الفرق من جهة الموسيقى بين قوله فى « عـودة المـاضى » :

وقد تتلاقى أوجه بعد فرقة   كما يتلاقى فى اليباب حيارى (٣٠)

وبين قوله فى « نافذة الحسناء » مثلا :

نافـذة الحسـناء هاهى المنيره
ألمح خلفهـا الخواطـر الكثيره
وراءهـا قـد هـدأت أمـيره
تسـرح الذوائـب النشـيره
ضفيرة . . ضفيرة . . ضفيره (٣١)

وهذا بعض ما يميز شعر الصيرفى فى سمته الموسيقى .

---

(٣٠) عودة الوحى ص ٨١ .
(٣١) نوافذ الضياء ص ٤٩ .

شعر الصيرفى فى ميزان النقد

*

لم يتهيأ لشعر الصيرفى الذى خـرج به مطبوعا على الناس بعـد ديوانيه : « الألحان ... » و « الشروق » مثلما هيىء لهذين الديوانين من الشهرة والذيوع ، بعد أن تناولهما الكاتبون والناقدون فى شىء من التقدير والاعجاب تارة ، وفى شىء من النقد الخفيف ، أو النقـد المتحامل تارة أخـرى .

ولست أدرى طبيعة ولا حجم الظروف التى دفعت به دفعا الى أن يصدر دواوينه على مراحل زمنية تبدو متباعدة نسبيا ، ألأن هذا الشاعر كان يشفق على نفسه من النقد الذى ربما تواجه به دواوينه الجـديدة ؟ أم لأنه كان حريصا على معاودة شعره مرات ومـرات التماسا لتهذيبه وتجويده حتى تصبح له تلك الصورة الحالية التى لا يرضى له عنهـا من بديل ؟ أم هى ظروف الحياة ، وطبيعتها الضاغطة التى ربمـا عاقتـه ، أو عاقته فعلا عن مواصلة اصداراته الشعرية كلما اجتمع لديه من الشعر ما يملأ ديوانا يخـرج به مطبوعا على الناس ؟ أم لأنه لم يعلق بريشـته نفاق ولا رياء — كما قال فى مقـدمة مجموعته الثلاثية — ولم يخـرج بالشعر يوما عن طبعه ، ولم يهبط به من عليائه فأحجم عنه الناشرون لـما قد يكون عالقا فى نفوسهم من ممالأة الوجهاء ، ومن التقـرب من ذوى النفوذ والسطوة فى البلاد ، ولم يشفع لشاعرنا حبه الناس ، ولا حب الناس له ، فصـدرت دواوينه على مراحـل زمنية متبـاعدة نسـبيا كمـا قلت .

لقد صدر ديوانه « الألحـان .. » — كما هو معلوم — فى عـام ١٩٣٤ ثم صدر ديوانه « الشروق » فى عام ١٩٤٨ ، وبعـد اثنتى عشرة سنه من اصداره « الشروق » يخرج بمجموعته الثلاثية « صـدى ونور ودموع » على الناس فى عام ١٩٦٠ .

ولعل شاعرنا كانت تتملكه الرغبة فى نشر كل ما تدبجه يراعته وتجود به قريحته ، لتستمر صلته بالقراء الذين أحبهم وأحبوه — كما قال فى تقديمه مجموعته « صدى ونور ودموع » .

كان ديواناه : « الألحان .. » و « الشروق » قد رأيا النور قبل ديوانه « قطرات الندى » أول دواوينه الشعرية ، والذى لم ير النور حتى الآن ، رغم أمر الطبع الذى عليه بدار المعارف ، فتمنى أن تتاح له فرصة النشر قبل أن تجف أوراق الحياة وتساقط ، وأن يضمه مع ديوانيه « الألحان » و « الشروق » فى مجموعة ثلاثية مثل مجموعته « صدى ونور ودموع » المطبوعة فى عام ١٩٦٠ .

ويقول فى مقدمة تلك المجموعة : « ولك منى أيها القارىء الذى أحبنى وأحببته شكر شاعر لم يعرف قلبه ضغينة أو حقدا ، ولكنه امتلأ — حتى فاض — حبا للانسانية ، ورجاء فى الخير لها ، ولم يعلق بريشته نفاق ولا رياء ، بل انساب شعره وحى شعور صادق ، وفيض خاطر متحرر ، لم يخرجا بالشعر يوما عن طبعه ، ولا هبطا به من عليائه » (١) .

ولعلنى لا أكون بمبعد فى الحكم اذا قلت : ان ترفع شاعرنا وتعاليه عن سفاسف الأمور ، وما ركب فى طبعه من الانطواء ، وما كان يحرص عليه دوما من أن يستمر عائشا فى عليائه دون التفكير فى الهبوط الى مستوى الضعفاء والمقهورين ، أو المتملقين والمنافقين — كل هذا وقف وراء ظهور دواوينه على مراحل زمنية متباعدة ، ووراء احتجابه عن الناس مدة طويلة من الزمن ليخرج على القراء من جديد وبيده دواوينه : « صلواتى أنا » و « شهرزاد » و « نوافذ الضياء » و « النبع » وغيرها ،

---

(١) صدى ونور ودموع ، راجع : الاهداء .

يعد أن هيأت له الظروف نشرها فى دار المعـارف فى السنوات القـلائل الماضية (١٩٨٠ حتى الآن) •

❋

حين صدر ديوانه « الألحـان » فى عام ١٩٣٤ ولما يـكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد ، وكان قـد تناوله بعض صحبه الأدنين بالدراسة والبحث ، فخرج على النـاس مشفوعا بدراسـة للدكتور أحمـد زكى أبى شادى صدر بها قال فى بعض أجزائها : « لقـد انتظمت مدرسـة أبولو شعراء ممتازين ، ولها أن تفخـر كل الافتخار بالصيرفى وشعره ، فهو ثروة جديدة للشعر المصرى الحديث ، وللشعر العربى عامة ، وكيف لا يكون ذلك وهو الجامع ما جمع من الطلاقة البديعة ، والخيـال الرائع ، والموسيقى المستحدثة فى نظام هو نظامه ، لا يقلد فيه أحدا ، وان تجاوب مع أقرانـه من أعـلام النهضة الشعرية فى العـالم العربى ، وهـذا التجاوب الشامل علامة من علامات الشاعر القوية ، كما أن احتفاظـه بشخصيته علامة أخرى من علاماتها القوية ، وحسبك أن تفترض حرماننا نماذج هذا الشعر الحـديث فتشعر بالفـراغ الـذى تشغله شخصية الصيرفى الشاعر ، وان أبى عليها الا التواضع ، أو التوارى كأنما ذلك من أصول فنه العميق » (٢) •

كما شفع هذا الديوان بدراسة ثانية بعنوان « شـاعرية الصيرفى فى الألحان الضائعة » للدكتور عبد العزيز عتيق ، وهذه الدراسـة أشمل من سابقتها ، وأقدر على التعرض لما فى هذا الديوان من بعض منـاحى التفكير ، ومظاهر التجديد •

وقد أكد الدكتور عتيق أن الصيرفى « شاعر من طراز خاص » وأنه يتطلب — لذلك — قارئا من طراز أخص ، ويبدو من حديثه عنه أنه لم

---

(٢) الالحـان ص ٥ •

يكن مدفوعا فى حماسته له بدافع الصلة الجـديدة التى ربطت بينـه وبين صاحب الألحان بل لأنه كان مشدودا الى قصائده التى كان ينشرها فى مجلتى « العصور » و « المقتطف » ويقول : « فلقد كنت أقرأ أشعاره هذه الأيام ، وأشعر أثناء قراءتها بمتعة روحية ، وألمس فيهـا جوانب لامعة مشرقة تبشر بما سيكون له فى عالم الشعر » •

وقد عرض لشخصية الشاعر فى هذه الدراسة ، وشبهه « بموسيقى اصطحب قيثارته ، وجلس فى ظل شجرة غيدانة على شاطىء جدول متدفق ينشـد الوحدة والتأمل ، والناس من حوله يضجون ويصخبون ، وكلما اشتد ضجيجهم أمسك بقيثارته ، راح يرسلها أنغاما قدسـية تلين من قساوة القلوب القاسية ، وتمحو بسحرها ما ران على النفوس كما تبعث فيها روح السلام وتشع عليها نور الابتسام •••• » •

وتناول فكرة الصيرفى فى قصيدتيه « الشاعر » و « موت عزرائيل » ، كما لفت أنظار القراء الى ما فى قصيدته « الرغبات المقيدة » من التفكير والتأمل ، وما فى قصيدته « اللغـز » من روعة شـائقة ، وما فيها من التوفيق فى التعبير عن حيرته ، وعدم اهتدائه وتوفيقه الى رغائبه المجهولة فى محيط الحياة الزاخـر •

ثم عرض لربيعيّاته ، والى قلة الغزل فى الديوان ، وهى ظاهـرة لفتت نظر هذا الناقد ، ولكنه رأى أن يشفعها بشىء من التعليل الـذى تطمئن نفسه اليه فقال : « ولكن يخيل الى أن الصيرفى لا يود أن يعطى المرأة فى شعره من العناية أكثر مما يعطى لكل ناحية أخرى من نواحـى الحياة التى توحى بالشعر والالهام » •

ورأى — كذلك — أن شعره فى ذلك لا يخرج عن كونه غزلا صوفيا فهو لا ينشد فى المرأة ما ينشده كثرة الشعراء مما أفاضوا فى وصـفه

وذكره ، ولكنه يرجوها لترقأ دموعه اذا طغى سيل الحــوادث ، ولتكون أغانيه وأمانيه وأشعاره وأحلامه ونوره .. » (٣) .

وفى كتابه « دراسات فى الأدب العربى الحديثة ومدارسه » يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفــاجى « ولقــد قوبل ديوان « الألحــان الضائعة » بعاصفة من النقد لم يقابل بها ديوان آخر معاصر ، وأحسبنى عاجزا أن أرسم صورة موجزة جدا لما أثير حول الديوان من دراســات أدبية ، ومشكلات فى النقد ، وخصومات بين القديم والجــديد (٤) » .

فقد كتب الناقد الأدبى فى مجلة «الحديث الحلبية »(٥) يقول بمناسبة ظهور الديوان : « الصيرفى شاعر ينشد شعره من نفس متعبــة ، وقلب قد استفزته الأحلام » ، ونوه بالألوان النفسية — فى شــعره — التى تفيض بالاكتئاب تارة ، وبالبشر الدعة تارة أخرى ، ويرى أن الصيرفى فى كلتا الحالتين يحكى لنا شعوره ، فينظــم ذلك فى كلمات مختــارة ، وأوزان مختلفة فيطربنا ، وقد تنفذ هذه الكآبة التى تســتولى عليه الى نفوسنا فنحزن ونجد حتى فى هذا الاكتئاب حدة نفسية ، ويرى كذلك أن الصيرفى فى طليعة المجددين من شعراء الشباب .

*

ونوه الشاعر القروى (٦) بديوان « الألحان الضــائعة » أيضــاً وبشاعرية الصيرفى فيه ، وقال عن الصيرفى انه شــاعر مصرى موهوب مواضيعه طريفة ، ونغماته جديدة ، وشعره نسيج وحده ، لا تقليد فيه ولا تقييد ، بل اخلاص فى الشعور ، وصدق فى التصــوير ، انه شــاعر الآمال والآلام ، وأى شاعر حقيقى لم يكن شاعر آمال وآلام ، ولو لم

---

(٣) راجع دراسته كاملة بالألحان ص ٩٦ — ١٠٤ .
(٤) دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه الجزء الثانى ص ١٤٠
(٥) العدد العاشر ١٩٣٤ .
(٦) مجلة العصبة الأندلسية ، البرازيل ، عدد اكتوبر ١٩٣٨ .

يسم ديوانه « الألحان الضائعة » لخلع عليه كل مطالع من تلقاء نفســه هذا الاسم ، فالألحان مزيته العظمى ، وكلما تقرأ قصيدة لا ذكر فيهــا للألحان والأنغام ، والوتر والقيثارة ، كــأن الديوان ملحمــة متعــددة الأناشيد ، متنوعة النغمات فى موضوع واحد جامع •

وكتب ناقد آخر فى جريدة « الحال (٧) » حول الديوان يقول عن شعر الصيرفى فيه انه « يمتاز بموسيقيته الساحرة ، وألحانه الحالمة ، وصفاء الديباجة واشراقها ، وسمو الفكرة ، والتقصى الوصفى فيما وراء الصورة » ورآه فى طليعة شعراء الشباب المجددين الرمزيين ، وأشــار الى خلو شعره من المدح والهجــاء والفخــر ، والى أنه ينظم الشــعر استجابة لعاطفته الملحة ومشاعره الدفينة ، فيكوّن الفكرة ، ثم يختزنها فى نفسه ، حتى اذا ما حاك حولها هيكل القصيدة راح يزجيها ، ويغذيها من دماء قلبه ، ويضفى عليها ألوانا من سحر العاطفة وفتنتها فتنثال عليه الخواطر انثيالاً ، وتواتيه القافية طيعة سلسة القياد ، فلا يجرى وراء لفظ يتخيره ، أو تركيب ينمقه ويُوشــيه ، كل ذلك عن وحى صــادق ، وغريزة موهوبة ، وشعره سداه الألم ، ولحمته الســخط على الحياة ، والتبرم بالناس وما تواضعوا عليه •

وقد لفت نظر هذا الناقد نفس الظاهرة التى لفتت نظــر الدكتور عتيق من قبل وهى خلو الديوان من ذكر المرأة التى هى منبع من منابع الشـــــعر •

❋

وكتب عبد الفتاح ابراهــيم فى « كوكب الشرق (٨) » يقــول فى دراسة نقدية له عن الديوان : « لبث — الصيرفى — ثائرا على العالم ،

---

(٧) عدد ٢٣ أغسطس ١٩٣٤ م •
(٨) عدد ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٤ م •

ساخطا عليه ، ونزعت نفسه الى التجــديد ، وخرجت بهــذا للناس فى « العصور » و « أبولو » و « المقتطف » وعصر الشاعر روحه خمراً [٩] للناس يتذوقونها ، ونوه بصوفية الصيرفى فى قصيدته « الحيارى [١٠] » وبابتداع خياله فى قصيدة « الشاعر [١١] » .

وكتب محمود حسن اسماعيل كلمة تحليلية عن الديوان والشــاعر منوها بنزوعه الى المعانى التجــريدية ، وبتســاميه عن مدارك العاديين وقال : ان الشاعر قد نوه فى كلمتــه الأولى بالديوان الى تخلصــه من الذوق العروضى ، واكتفائه بالذوق الموسيقى ، وهذه النزعة سبقه بهــا شــعراء المهجر من السوريين [١٢] .

ولم يكتف أبو شــادى بالدراســة التى كتبها عن الديوان والتى صدر بها — كما سبق أن أشرت — بل راح يتحــدث عن شــعر الصيرفى بمناسبة ظهور « الألحان الضائعة » وحدد فى أثناء ذلك معنى الأصالة فى الشعر ورأى فى الصيرفى شاعرا أصيلا ذا شخصية مستقلة ، وأنه لا يقلد أحدا ، وأنه شاعر مطبوع يأتى بالشعر من دون تكلف [١٣] .

ودرس السحرتى « الألحان الضائعة » وأشار الى روح الألم فى شعره ، ورأى أن الدموع ضرورية للعبقرية — كما يقول الأديب الفرنسى « اسكندر ديماس » ، وأن الحزن السامى يجعلنا نقدر اللذة — كما يقول الفيلســوف الفرنسى « ليبنتزو » و « ألفرد دى موسيه » بل كما يقول الصــــيرفى :

---

(٩) اشارة الى قوله فى مقطوعته « التضحية » بالالحان (ص ١٥) :
عصرت روحى خمرا للورى وهوى   وما تذوقت منها بعض ما شربوا .
(١٠) ص ٢٩ بالالحان .
(١١) ص ٣٣ — ٤٢ بنفس الديوان .
(١٢) أبولو ، سبتمبر ١٩٣٤ .
(١٣) أبولو ، أكتوبر ١٩٣٤ .

دمـــوعى كنت آمــــــــالا
تمــد القلب بالبشـــــــــر

وكـــانت هـــذه الآمــــا
ل كالأنغــــام فى الفجـــر(١٤)

وذكر أن الآلام صـهرت روح الصـيرفى وطهرتهـا ، وأطافت به صوفية سمحة حفزته الى تأملاته الساجية الحنـون ، وأن نفسـه قد امتزجت بها محبة الفن ، ولهذا نراه ينظر الى الوجود بشعور « الفنان »•

ونوه بمعانيه الأصيلة فى الطبيعة ، وبشعره الأثيرى الذى لا يحكى ووصفه بأنه شاعر سابح فى الخيال ، يخلق جوا عبقا بالعطر الشعرى ، والموسيقى الهادئة ، وكأنما ينادى المجهول (١٥) •

كما تحدث عنه اسماعيل أدهم فى دراسته عن خليل مطران (١٦) • ونوه به «بروكلمان» ، وبنزعته كأحد أتباع الشعر الرمزى وبتشاؤمه(١٧)، كما درس الدكتور اسماعيل أدهم الصيرفى وشاعريته دراسة واسعة فى مجلة « المكشوف » وذكر آثار شعر المهجر فى شـعره ، وتأثر بمذهب مطران الشعرى (١٨) ، وذكر محمود عـزت موسى أن الصيرفى شـاعر له طابع وشخصية واضحة فى شعره وتأملاته ونزعاته ، وأن فى شـعره تشاؤما عميقا يمتزج بتأملات واسعة ، ويعلو بشعره فى بعض قصـائده الى مرتبة سامية رفيعة ، لأنه يرتكز على موهبة حقيقية ، وهو فى طليعة الشعراء الذين تغذى شخصياتهم فنهم •

---

(١٤) أنظر البيتين بالالحان ص ٧٥ قصيدة « دموعى » •
(١٥) راجع أدب الطبيعة للسحرتى ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢
(١٦) راجع ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ من : خليل مطران ، لاسماعيل أدهم •
(١٧) راجع دراسات فى الادب العربى الحـديث ومدارسـه للخفاجى جـ ٢ / ١٤٤ •
(١٨) ابو الهول ، عدد ٤ مارس سنة ١٩٣٥ م •

ويشير ناقد الى بعد شعر الصيرفى عن التكلف المقوت ، والتصنع المرذول ، وشاعريته بعيدة الغور ، لا تقف أمامها الحـدود ، ولا ترضى إلا الصميم ميدانا لها ، وفى هذا تعليل لرمزيته الغالبة على قصائده التى تسيطر على بعضها الحيرة المزوجة بالاطمئنان ، ومن مميزات شـعره موسـيقيته [١٩] .

وينـوه ناقد بـ « البلاغ الأسبوعى [٢٠] » بشـخصية الصـيرفى الواضحة فى شعره ، وبتشـاؤمه وبرَمه بالحياة والشـعر والناس ، وبرمزيته ، وبتجويده فى كثير من موضوعات الشعر إلا النادر ، وبمزجه فى الأسلوب والفكرة بين فكرة العالم ودقته ، وخيال الشاعر وتحليقه ، وفكرة الصيرفى قد تكون أبرع من أدائها عنها ، فهو يقـع على الفـكرة البارعة ، ويحيط بها إحاطة ويتقصاها .

وقد أشار الى تلك السمة كاتب" أديب هو أحمد فتحى شاعر الكرنك والى روح الصيرفى فى التجديد فى الشعر [٢١] .

كما ذكر صديقه شيبوب نزعته القوية الى التجديد ، يسعفه فى ذلك حس مستفيض ، وخيال جامح [٢٢] .

ويشير الدكتور محمد كامل حسين فى دراسة كتبها عن الديوان الى أثر الأدب الغربى فى شعراء مدرسة أبولو ، والى معانى الصيرفى المبتكرة فى قصيدته « عقب السيجارة [٢٣] » التى ليس لشـاعر غيره نظير لهـا ورأى أن ديوان الصيرفى قبل كل شىء صدى لنفسه الحزينة ، وحيـاته المضطربة [٢٤] .

---

(١٩) انظر : الجريدة السورية اللبنانية ، ٢٠ تشرين اول عام ١٩٣٤ م
(٢٠) عدد ٥ سبتمبر عام ١٩٣٤ م .
(٢١) انظر : ملحق السياسة ، أول سبتمبر ١٩٣٤ .
(٢٢) أنظر : البصير ، ١٤ سبتمبر ١٩٣٤ م .
(٢٣) الالحان الضائعة ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٢٤) جريدة الوادى ، ١٥ سبتمبر ١٩٣٤ م .

وكتب الناقد الأدبى فى مجلة « المقتطف » يقول : « الصيرفى شاعر وادع النفس ، رقيق القلب ، متزن العقل ، رشيق الأسلوب ، قوى الخيال، يصدر فى شاعريته عن فكرة تلابس معظمها الروعة الفنية ، فتجد المعانى المبتكرة كفاءها من اللفظ المختار ، ويظهر أن الموسيقى التى تتجاوب بها قصائد الديوان مستمدة من نفس شاعرها » وأشار الى أظهر السـمات فى شاعرية الصيرفى ، وذكر من بينها : التصوير ، والتصوف ، والطبيعة ، والعاطفة أحيانا ، كما أشار الى نزعته التجديدية فى تحرره من القافية ، واتيانه ببعض الأخيلة الغامضة ، موضـحا أثر شـعراء المهجر فى تلك النزعـة[٢٥] .

وكتب محمود الخفيف كلمة عن الألحان أخذ فيه على الشاعر كثرة ميله الى المجازات والاستعارات الغريبـة مثل : « كهوف الحيـاة » ، و « قيثارة الحياة » و «لهيب الأنين » و « عصير الشجون » ، وكذلك أخذ عليه معانيه وأخيلته الغريبة ، وقلة عنايته بقوافيه [٢٦] » .

وقد علق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى على هذا بقوله : « وانى لأعذر الخفيف فى هذا النقد ، فمذهب الغموض فى الشعر ، أو الرمزية ، جديد على شعرنا المعاصر ، لم تألفه الأذواق بعد ، ومن ثم كثر الجدال فيه ، والخصومة الأدبية حوله ، والذى يخاصمون الصيرفى انما يخاصمونه بحسبانه شاعرا من رواد الرمزية والتجديد فى الشعر المعاصر [٢٧] » .

وقد رد الصيرفى على الخفيف بكلمة نقدية موجزة بـ «الرسالة[٢٨]» ولم يقف الأمر بهذا الديوان عند هذا الحد بل تناوله حسين المهـدى فى مجلة « الامام » ونقد فيه موسيقى الشاعر وقوافيـه [٢٩] ، كما كتب

---

(٢٥) انظر : « المقتطف » ، عدد نوفمبر ١٩٣٤ م
(٢٦) راجع « الرسالة » ١٩٣٤ م .
(٢٧) دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه جـ ٢ / ١٤٦ .
(٢٨) راجع « الرسالة » ١٩٣٤ .
(٢٩) الامام ، عدد ٢٠ ديسمبر ١٩٣٤ م .

الأديب السودانى بشرى أمين فى مجلة « الامام » عن الصيرفى وألحانه دراسة طويلة حلل فيها عنصرى شاعرية الصيرفى : « الآمال والآلام » تحليلا نقديا معجبا منوها بشعره وروحه التجديدية (٣٠) .

كما كتب السـيد قطب كلمة عن الديوان نوه فيها بطـلاقة الروح الفنية فى شعر شعراء الشباب ، وبجدة الاتجاهات ، وصـدق العاطفة ، وسعة التأمل ، وقوة الملاحظة ، وعاب عليهم الغموض ، وضعف الأداء ، وعدم الدقة فى التعبير ، والتفكك ، ونقد الديوان نقدا سار فيه على هذا المنهج ، وعرض قصيدة الصيرفى « حياتى (٣١) » عرضا نقديا وحكم عليها بأحكام منهجه السالف ، كما حلل قصيدته « الشاعر » و «موت عزرائيل» وينقده فى آخر كلمته نقدا « فقهيا » يدور حول اللغة (٣٢) .

وقد رد الصيرفى عليه بكلمة نشرت فى مجلة « أبولو » أشار فيهـا الى أخطاء الناقد فى نقده ، وتحامله على شعراء الشباب مع أنه منهم ، ومحاولته التعالى فى نقده ، فمثلا يرد عليه فى نقده بيته :

فنرجـــع من غمـــــرات العـــرا
ك علينـــا كواهـــله القــاهره (٣٣)

حين قال : إننا « لا نرجع وعلينا كواهل العراك ، بل نرجع وعـلى كواهلنا نحن أعباء العراك » — يرد عليه الصيرفى بأنه « لو تدبر الصورة لعرف أننى أريد تصوير العراك بصورة المستند بكواهله القاهـرة على المتعبين الخائرين ، ولست أصور حمل العبء ، لأن الصورة تمثل العودة من العراك ، وهذا كقولهم : « أناخ عليهم بكلكله » » .

---

(٣٠) الامام عدد ٢٠ ديسمبر ، ١٩٣٤ م .
(٣١) الالحان الضائعة ص ١٦ ، ١٧ .
(٣٢) راجع : الاهرام ، ٢٠ اكتوبر ١٩٣٤ .
(٣٣) البيت من قصيدة الصيرفى « حياتى » الالحان ص ١٧ .

كما يرد عليه فى نقده بيتيه :

تعـــــالى ليس يدرينـــــا
إذا مـــا جفـت الـــكاسُ

أنلـــــقى من يســـاقينا
تعـــالى ، كلهـــم ناسُ (٣٤)

لعدم وجود الفاعل فى البيتين — يرد عليه بقوله : إن « الفاعـل هنا جملة « أنلقى » مثل : ظهـر لى أقام زيد وســواه من المثـل التى استشهدَ بها النحويون على جواز ذلك ، ويجيز الدمامينى تبعا لابن هشام وقوع الفاعل جملة ان كان التعليق بالاستفهام ، كما فى المثال الســابق إذ المعنى ظهر لى جواب أقام زيد (٣٥) .

ويحلل الدكتور رمزى مفتاح فلسفة الصـيرفى حـول الزمن الذى يتحرر عقله من قيوده عندما يتسامى به الفن العالى عن صغائر الأمور ، وضجات الحوادث ، ويرى أنه حامل هذا اللواء بين الشعراء المحدثين ، وأنه شاعر ناضج مستقر ، شاعر فى حياته ، وفى خلقه ، وفى وحدته ، وفى سريرته ، يبعد شعره عن الرياء حتى لقد خلا من الغزل على الطريقـة الشائعة من ذكر الحبيب ، وأثر حـديثه فى النفس ، وشـعره وحـدة متجانسة ، ولكنه رغم هذا الإطراء الكبير عاد ينقد أبياتا منه ، منها :

ومال عنك النســيم الحى لا صَـلَفاً
وإنمــا هـــو يخشى أن يلاشــيكا (٣٦)

---

(٣٤) الالحان الضائعة ص ٨٣ .
(٣٥) راجع مجلة ابولو ، نوفمبر ، ١٩٣٤ م .
(٣٦) قصيدة « يا ذابل الزهر » — الالحان ص ٧٨ .

لأن كلمة « لاشاه يلاشيه » غير عربيـــة ، ولعلها مأخـــوذة من : لا شـــــئ (٣٧) .

ويرد عليه أديب كبير بأن التلاشى أو الملاشـــاة لفظـــة من ألفـــاظ لا يحصيها حساب ، نشأت فى الحضارة العربية الاسلامية ، واســـتعملها العلم والأدب ، ولن يضيرها أن اللغويين لم يدونوها فى كتبهم التى حفلت بألفاظ الجزيرة ، والبداوة التى رووها (٣٨) .

وكتب طاهر الطناحى عن الديوان (٣٩) منوها بروح التجديد ومواهبه فى شعر الصيرفى ، واخوانه من الشباب ، وان كانت الكتابة الأدبية أكثر « تطورا » مع حركات التجديد من الشعر ، وحدد معنى التجديد ، ورأى أن الصيرفى لديه استعداد قوى فى الشعر ، ونقد بيته :

عصرت روحى خمـــرا للورى وهـــوًى
وما تذوقت منها بعض مـــا شربوا (٤٠)

لأن العصير عمل « مادى » والروح روحٌ لا مادة فيها ، ولا علاقة بينها وبين الخمر ، فكيف تعصر ؟ وكيف يقال : إن عصيرها خمر ؟ وفى أى حانة عصرها الشاعر ؟ وينقد بيته عن قيثارة « الشاعر » :

تئن أنـــين المـــــريض الضعيــــ
ـف ، وتصـــرخ كالجنة الثـــائره (٤١)

من أجل استعماله « صراخ الجنة الثائرة » مع قيثارة العازف .

---

(٣٧) البلاغ ، ٢٣ سبتمبر ١٩٣٤ م .
(٣٨) البلاغ ، أول اكتوبر ١٩٣٤ م .
(٣٩) البلاغ ٦ سبتمبر ١٩٣٤ م .
(٤٠) الالحان الضائعة ص ١٥ .
(٤١) نفس الديوان ص ١٧ ، قصيدة « حياتى »

وينوه بقصيدته « اللغز » (٤٣) ويشير الى أنها صورة حية من جمال الأسلوب وحلاوته ، وسمو المعانى وسحرها ، وما أجمل قوله :

أنـــا الـــروض لـــكن
أنـــكرتنى جـــداوله°
أنـــا الغصـــن لـــكن
بـــاعدتنى بـــلابله°
أنـــا الأفـــق لـــكن
جـــانبتنى أصـــائله° (٤٢)

ويرد عليه الصيرفى على نقده البيت « عصرت روحى خمرا » بأنه جرى فى هذا البيت على أسلوب الاستعارة المعروف فى البيان ، كما يرد على بيته « تئن أنين المريض .. » بأنه لم يصف قيثارة الشاعر ، وإنما وصف الناس (٤٣) .

وقد تهكم محمد مصطفى الصباحى بما كتبه النقاد عن الصـيرفى ، ووصفهم له بأنه فى طليعة المجددين الرمزيين من الشباب ، وينقد بيته :

أنت من ؟ يـا عـازفا فـوق قلبى
أغنيـات تفيض من وجـدانى (٤٤)

لاضطراب وزنه ، وكأنه لم يقتنع أشار اليه الدكتـور عبد العزيز عتيق فى دراسته التى ذيل بها ديوان الصيرفى « الألحان الضائعة » حين قال : « ولن يفوتنا قبل الفراغ من هذه الدراسة أن نشير الى أن اتجاه الشاعر التجديدى كان يحتم عليه أحيانا التحرر من السير على وزن واحد ،

(٤٢) نفس الديوان ص ٣٠ ، ٣١ .
(٤٣) البلاغ ، ١٦ سبتمبر ١٩٣٤ م .
(٤٤) الالحان الضائعة ص ٦٥ قصيدة « وحى الشعر »

حتى رأيناه فى القصيدة الواحدة يستعمل وزنين مختلفين فى بيت واحد كما فى قصيدة « وحى الشّعر » ، فالشطر الأول من الأبيات الثمانيــة الأولى من بحر مولد ، والشطر الثانى من الأبيات ذاتها من البحر الخفيف، وكان فى مكنته أن يسير على وزن واحد ، لولا نشوة بموسيقى خاصــة ، كما أشار الى ذلك (٤٥) » .

ولم يكتف الناقد الصباحى بذلك بل قال عن هــذا البيت أيضــا : « كيف يعزف للمرء فوق قلبه ؟ وأين يكون العزف إذن ؟ وينقد بيته :

وأبثـــك الدنيـــا وقــــــد
أودعتهـــا فى لثــم ثغــرك (٤٦)

وقد علق عليه الدكتور خفاجى بقوله : « ولا شك أن الناقد لا يريد أن يؤمن بالرمزية الحديثة ، ومذهبها فى نظم القصيدة » (٤٧) .

ثم انتقلت معركة النقد حول الديوان الى معركة حول أبى شادى ومذهبه فى التجديد ، فكتب أديب ينقد أبا شادى فى مذهبه ، وما جاء فى تصديره « الألحان الضائعة » (٤٨) وكتب كامل الشناوى يتهجم على أبى شادى ومذهبه فى التجديد وعلى مدرسة أبولو الشعرية ، ويســخر من مذهبه الأدبى ، ومن آرائه فى شوقى (٤٩) .

---

(٤٥) الالحان الضائعة ص ١٠٤ .

(٤٦) ورد هذا البيت فى قصيدة بعنوان « الرحيل » بديوانه «الشروق» المنشور فى عام ١٩٤٨ م ، ويبدو أن الشاعر قد نشر هذه القصيدة فى بعض الصحف أو المجلات الادبية قبل أن ينشرها فى ديوانه السابق ، والا فان النقد الذى ذكره الصباحى حوله كان قد نشر بـــ « الحال » .عدد ٦ سبتمبر١٩٣٤م ولما يكن ديوان « الشروق » قد رأى النور بعد .

(٤٧) دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه ج ١٥٠/٢ .

(٤٨) السياسة ، ٣ أكتوبر ١٩٣٤ م .

(٤٩) البلاغ ، ١٧ أكتوبر ١٩٣٤ م .

وكتب حبيب الزحلاوى ينقد مغالاة الأدباء فى كتابة مقدمة الكتب ، ويعنى بذلك أبا شادى وحده من بين الأدباء ، وقد عرض لتقديمه « الألحان الضائعة » ناقدا ومتهكما (٥٠) .

*

وحين صدر ديوانه « الشروق » فى طبعته الأولى عام ١٩٤٨ تلقفه بعض النقاد فى شئ من التقدير والاحترام ، ومن هؤلاء الأستاذ اسماعيل مظهر رئيس تحرير « المقتطف » ، والأستاذ مصطفى السحرتى وسواهما .

كتب الأستاذ اسماعيل مظهر فى دراسته التى جعل عنوانها « الشروق » بمجلة « المقتطف » يقول : « عرفت الصيرفى شاعرا منذ عشرين سنة ، وعرفته شاعرا هادئ الطبع ، نير الديباجة ، سهل الأسلوب ، بين المعنى ، جيد المبنى ، قوى الروح فى هدوء ، ثائر الأحاسيس فى صمت بالغ ، فلا ينم عن قوة روحه ، وثورة أحاسيسه إلا المعنى المخبوء من وراء الألفاظ المنظومة ذلك النظم المنساب انسياب الماء فى الغدران الهادئة ....

وعرفت الصيرفى فوق ذلك شاعرا صادق الشاعرية ، لم يتكلف يوما أن ينظم شيئا تسوق اليه مناسبة من المناسبات لا تخلف فى نفسه الأثر الشعرى الذى يهيج فى الشاعر شيطان شعره ، فلا كوارث الزمن ، ولا أحداث الحياة عنده الا أوهام تمر خيالاتها كأنها الصور المتحركة ، اذا لم تترك فى نفسه ذلك الأثر الذى يفتح مغاليق الشاعرية ، فاذا بلغت الأحداث من نفسه ذلك المبلغ فاض بالمعنى المستخرج من أعمق أغوار النفس ، مصبوبا فى قالب شعر رصين .. » .

---

(٥٠) راجع : دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه جـ٢/١٣٥ — ١٥٠ ، وكتابى : مدرسة ابولو فى ضوء النقد الحديث ص ٤١ — ٤٥ .

ويقول : « وعندى أن أكثر ما يتصف به شعر الصيرفى أنه أثر من نفسه ومن عقله معا ، فنفسه نفس شـاعر واسـعة الآفاق ، ممـدودة الرحاب ، وعقله عقل حر ، لم يقف فى يوم ما حائلا اضـطره الى تكلف معنى من المعانى التى كثيرا ما تقحم فى الشعر ، فتكون كالنكتة السوداء فى الورقة البيضاء ، وغالبا ما تلوح للقارىء الناقد كالذبابة فى كأس من اللبن الصافى ... »

واستشهد على كلامه بما يؤيده من شعر الصـيرفى وبخاصـة فى قصيدته « جنة الحب » وفى قصيدته «الحيرة» ثم فى « الصباح الجديد ».

وما استشهد به انما كان يمثل فى نظره شعره الهادىء ، أما شعره الثائر الذى لا يخرج فى ثورته عن طبيعة الشـاعر التى تخفى وراء ذلك الهدوء عوامل الثورة الحاطمة — فقد مثل له بـ « نشيد الثورة » :

تحـــرك من ســـباتك يـا فتاهـا
وأرجـع عزمهـــا وأعـد قـواها

فقد طغت الخطـوب عـلى حماهـا
فـــواها للأبى اذا تـــلاهى

❋

أما السحرتى فقد كانت له دراسة بعنوان جـولة فى « الألحان » و « الشروق » للأستاذ حسن كامل الصيرفى » ، نشرت بالمقتطف أيضا(٥١) قال فى بعض أجزائها : « ومن نوابغ هذه القلة (٥٢) الشاعر حسن كامل الصيرفى ، شاعر رومانتيكى النزعة فى أغلب شـعره ، مجنـح الخيال ،

---

(٥٠) النشيد بديوان « الشروق » ص ٨٩ — ٩١ ، وراجع دراسـة اسماعيل مظهر هذه بالمقتطف ، يونيه ١٩٤٨ ، المجلد ١١٣ ص ٨٢ — ٨٤ .

(٥١) المقتطف ، فبراير ١٩٤٩ ، المجلد ١١٤ ، ص ١٠٧ — ١١٦ .

(٥٢) يقصد شعراء الشـباب وكهولهم ممن جمعتهـم مدرسـة ابولو الشـعرية .

شفاف الأنغام ، جمعت شخصيته بين كنزين : طبيعة صافية ، ونفسـية طيبة ، نلمح مظاهرها فى لمحات وجهه المعروق الحساس ، وعينيه اللامعتين الداكنتين •• » وقال عن شعره انه شعر « لا عهد للبيئة الأدبية المصرية بـــه •• » •

وبعد أن تحدث عن ديوانه « الألحان الضائعة » انتقل بالحــديث الى ديوان « الشروق » فقال : « واذا كان ديوان الألحان » قد أطرفنا بمثل هذه الأنغام ، وأتحفنا بتجارب شعرية خالصة ، جلها خواطر تأثرية وجدانية ، فان ديوان « الشروق » يسجل نقلة شعرية مغايرة ، بانتقال الشاعر نقلة نفسية مشرقة ، انه ديوان غمرت أضواءه الظلال ، وأطل فى ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف فوجه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره اشراقا ، وأضاف الى تجاريبه تجاريب ، ونوع فى انفعالاته ، وبدل قليلا من موسيقاه ، وقادة من عالم الضــباب والسحاب الى عالم الحياة والأضواء •• » •

وطبق ذلك على قصيدتيه « النور الجديد » و « النظرة الأولى » •

ويقول : « ويبدو لنا أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثير من التفكير ودلالة هذا ظاهرة فى القصيدتين سالفتى الذكر حيث نجد فيهما نزوعــا موسيقيا ، وضوءا قليلا ، وحركة قليلة السرعة ، والعهد بالشعر المرح أن يكون عالى الموسيقى ، قصيرا فى مسافاته الصوتية ، مليئا بالنبض •• »

ويقول أيضا : « والملحوظ فى ديوان « الشروق » جنوح الشــاعر — غالبا — الى التجريد فى المعانى ، كما هو الحال فى ديوان « الألحان » وميله الى الابهام فى أحيان ، كما نلحظ ذلك فى قصيدته البديعة « المعنى المبهم » وفى مطولته المهموسة « وحدة العمر » كثيراً من التأملات والمعانى الغامضة •• » •

وفى موضع آخر يقول : « ويضاف الى ما تقدم أن ديوان« الشروق»

امتاز فى موسيقى بعض قصائده بأنغام « ارتكازية » (٥٣) لا عهد لديوان « الألحان » بها ، وآية ذلك قصيدته « القبلة » فأنغامها تتراوح بين العلو والهبوط ، وهذا النوع .. نادر فى الشعر العربى ، المنخفض القرار فى الغالب ... »

ويلحظ كذلك أن الصيرفى فى موسيقاه العالية لم يبلغ الأوج ، وعلل لذلك بطبيعته المنطوية ، الميالة الى كبح انفعالاتها ، ولهذا نجده فى ألحان الألم يجيد كل الاجادة ، لأنها ألحان تتطلب موسيقى هادئة منخفضة القـــــرار .. »

ورأى أن من قصائده الرائعة فى هذا الديوان قصيدته « الشـــاعر والسحاب » التى أزجاها الى روح الشاعر النابغـــة « فوزى المعلوف » وقصيدته « الصباح الجديد » التى أهداها لشاعر الخضراء ، أبى القاسم الشابى ، وترجع روعتهما عنده الى التجربة ، والموســـيقى ، والخيال ، والوحـــــدة .

❋

وهكذا لفت الصيرفى بشـــعره أنظـــار الكاتبين والنقـــاد فى هذين الديوانين ، ومعظم الدراسات التى قدمت عن شعره فيهما تطغى عليهـــا روح الاطراء ، وان لم تخل من نقود خفيفة لم يعدم الشاعر الوســـيلة للرد عليها ، وظاهره فى ذلك بعض زملائه من شعراء أبولو خاصة ، ولمـــا يكن قد جاوز فى رحلة عمره عتاب الصبا والشباب .

❋

ورغم هذا الاطراء الذى لحق بشاعرنا الصيرفى فى ديوانيه «الألحان الضائعة » و « الشروق » لم يملأه ذلك بالغرور ، ولم يقنع بما أجـــاده

---

(٥٣) الموسيقى « الارتكازية » هى التى تجمع بين « الجهر » والهمس او هى تلك التى تعلو تارة وتهبط أخرى (فى القصيدة الواحدة طبعا) .

فيهما من سمات التعبير والأداء ، وطبيعة التجارب ، بل راح يصوب فى ديوانه « الألحان » ، ولولا أن الشاعر أهدى الىّ نسخة من هذا الديوان عليها تلك التصويبات لبقيت — على الأرجح — حبيسة مكتبته حتى يقدر لديوانه النشر من جـــديد •

ومن تصويباته التى رأيتها بخط يده ما نراه فى قصيدته « الصدى الخافت » فى البيتين السادس والثامن ، اذ كان على النحو التالى :

* قد سئمت الأهازيج ينشدها الناس بجهل مضاعف مفضوح

* لا أبالى أكان يسمعنى الناس ، أم كنت منشدا فى صروح

حيث استبدل فيهما كلمتى « الأهازيج » و « النـــاس » بكلمتين أخريين هما : « الألحان » و « النوام » ليكونا هكذا على النحو التالى :

* قد سئمت الألحان ينشدها الناس • • • • • •

* لا أبالى أكـــان يســـمعنى النوّام • • • • • • [٥٤]

وفى قصيدته « دعينى » يزيد « ما » بين « اذا » و « سلتْها » فى البيت السابع ليصـــير :

فماذا يفيد الغصون — اذا ما سلتْها الزهور — لطيف التثنى [٥٥]

وفى قصيدته « الحيارى » يستبدل قوله فى البيت الثـــامن « هنا ضحايا قضائك » بقوله : « على الرضا بقضائك » ليصبح البيت :

أنت قـــدرت أن نعيش حيـــــارى
والحيـــارى على الرضـــا بقضـــائك

---

(٥٤) الالحان ص ٢٤ •
(٥٥) الالحان ص ٢٨ •

وفى قصيدته « موت عزرائيل » يستبدل « كانت » بـ « كان » فى البيت الثالث عشر ليصير :

مثـل رأس فى القبـر كان قديمـا
مهد فكر يغـزو الدنى وهى سـر(٥٦)

ولعله تنبه الى أن كلمة رأس « تذكر » ولا « تؤنث » فلم يلحق بالفعل الناسخ « تاء التأنيث » كما كان .

وفى البيت الثالث من قصيدته « موت البلبل » يجرى تعديلاً طفيفاً تحل فيه كلمة « والخامل » محل كلمة « والخالى » ليكون البيت هكذا :

والخـامل الذهن مسـتريح
فى الوكـر ، فى القصـر ، فى فـلاته

وفى البيتين الحادى عشر والثانى عشر نراه يستبدل كلمة«والنعمة» بكلمة « والنسمة » فى الأول منهما ، وكلمة « يغنى » بكلمة « يغنى » ليكون وضع البيتين بعد التصويب على النحو التالى :

والنسـمة العـذبة اسـتراحت
مأخـوذة مثـل سـامعاته

يمـر بالـروض مـا يغنى
يهـز فى الـروض مـورقاته(٥٧)

وفى البيت قبل الأخير من قصيدته « المنديل » يستبدل قوله : « فارتو ما شئت » بقوله : « فارو مما شئت » ليصبح البيت :

فارو مما شئت ، أو ما شاءت الآلام دهرا (٥٨)

---

(٥٦) الالحان ص ٤٥ .
(٥٧) الالحان ص ٧٣ .

مصححا بهذا التصويب خطأ عروضيا واضحا ، واستقام بذلك الوزن .

وفى قصيدته « الربيع الباهت » نراه يصوب الشطرات الأخيرة من الأبيات : الأول ، والرابع ، والخامس ، والتاسع ، والحادى عشر لتصبح هكذا :

❋ . . . . قد عكر الصافى ، وأخرس صائته°

بدلا من : . . . . . قد عكر الصافى ، وسوأ دورته°

❋ . . . . فمحا طلاوتها ، فبانت باهته°

بدلا من : . . . . . فمحا طلاوتها فباتت باهته°

❋ . . . . فكأنها جسد البغى الماقته°

بدلا من : . . . . . فكأنها جسد البغى المائته°

❋ . . . . فاعلم بأن الليل يرثى مائته°

بدلا من : . . . . . فاعلم بأن الليل يرثى ميته°

❋ . . . . من حسنها تلك النفوس الكابته°

بدلا من : . . . . . من حسنها تلك النفوس الميته°

وهكذا يأبى الصيرفى الا أن يعاود شعره حينا بعد حين ، لاصلاح ما قد يتراءى له فيه من أخطاء ، سواء أكانت مطبعية أم نحوية ، أم لغوية (من جهة الاشتقاق) ، أو عروضية ، مثبتا بذلك قدرته البارعة على التجويد فى فنه الشعرى ، ولا غرابة فى أن يكون الصيرفى على هذا المستوى الرفيع فى تعامله مع لغته فى شعره ، فقد حقق — كما أشرت

من قبـل — ديوان البحترى ، وعددا آخـر من الدواوين ذات الأهمية التاريخية الكبرى ، فتجاورت فى نفســه روح الشاعر وتحليقه ، ودقة العالم وتدقيقه ، مما كان له كبير الأثر فى شعره بلا شك .

*

وأرجو أن أكون قد قدمت شيئا ذا بال فى تلك الدراسة ، وأن أكون قد وفقت الى رسم صورة واضحة مشرقة لهذا الشاعر الكبير من خـلال شعره ، وأن تبلغ هذه الدراسة غايتها التى أمّلتُ فيها منذ أن كانت فكرة تجول فى النفس ، أو جنينا مستكنا فى ضمير الغيب ، وحتى رأت النـور ، وسرت فى عروقها روعة الحياة .

د . محمد سعد فشوان

الصيرف ٠٠ الخــالد

يمــوت دعــاة الفكر فى أرض موطنى

ويحيــا عــلى اللــذات من لا له فكر

لذا حبَّب المــوتَ الــــزؤامَ لمهجتى

فراقُــك حــتى لذّ لى بعــدك القبر

الامير صقر القاسمى

حسن كامل الصيرفي

شعر : عامر محمد بحيرى

جـلّ المصـابُ ، فيالهـوْلِ الموقفِ
من ذا يقول الشعر .. بعد الصيرفى ؟!

دنيـا من الأدب الرفيـع ، تحملـت
يـوم الـوداع ، بعبرة لـم تـكفف

* * *

قصـف الممـات ربيعهـا ، ولو انها
لبسـت ربيع الخـلد .. لم تتقصف

فى موكـب للعبقـرية راحـل
لما أهـاب الحـقّ لـم يتخـلف !

* * *

كانت لنـا فجـر الشـباب .. حديقة
غنـاء ، ناضر وردهـا لم يكففِ

هبـط الفراش عـلى ندىً غصـونها
يزهـو بسـاحر لـونه المتخطـفِ

وتسابقت تحثـوه مـلء أكفهـا
أيـدى الصبى ، من شـاعر ومؤلفِ

عصـب من الفتيـان .. الا أنهـم
أحـلاف سـعى فى الحيـاة مشرفِ

آباؤنـا مهـدوا طريق ظهـورنا
نرتاد فيـه خطـى الكرام ونقتفـى !

* * *

من لـى بعصفور يغنـى شـــاديا
كحمـــام أيـك فى الـروابى هتّف ِ

عز الوصـــول الى ذراه ، وقد غـدا
يعـلو ، بخفـاق الجنـاح مرفرف ِ

أيراد منى •• أن أصـــوغ رثـاءه ؟
ماذا أقـول •• وقد تحطم معـــزفى ؟

أيـراد أن أبـكى •• عـلى أيـامه
وهـو الضحـوك بشـعره المستطرف ؟

يشـــتط فى جـد الحيـاة مداعبـــا
ويفلسـف الأحـــزان دون تكلـف

وتـراه فى غمـــر الفكاهة لابســا
ثـوب الحـكيم ، وبردة المتصـــوف

والنفس أسـرار بعيـــد غـــورها
كالبرق ، يظهر فى السـماء ويختفى !

❋ ❋ ❋

ان الـذى جعـــل الكتاب سـميره
أحيى كتاب الشعر •• بعد المصحف ِ !

يرتـاد آفـاق الجمـــال بعيـــدة
فى لمـح خاطـــرة وحس ٍّ مرهـف ِ

ما خاض حـــرب الفكر الا دارعـــا
يصمى بسـهم فى البيـــان مثقف ِ ••

لا يســـتريح ولا يقـــر قـــراره
الا قـــراءة فاحص مستكشـف

لا يعــزب المخطـــوط عــن عدســاته
حــتى يحــقق منــه بضــعة أحــرف
لتجئ أجيـــــال ظمــاء بعــــــده
تســعى لرشف سلافة .. لم ترشف !

* * *

يا منصــفا للبحـــترى ، وشـــعره
هــل للــذى قدمتــه من منصــفِ ؟
حققــت متنيــــه ، وقمــت بشرحــه
فجـــلوته للعـــين ، خــير مصنّفِ
وقــد احتفلت بــه ، وأنــت ســميه
وكــذاك يحتفــل الصديق ، ويحتفى !
مهــلا أبا يحيى .. أتذكر عهـــــدنا
بين الثقــافة ، واللجـــان العكــف ؟
وأزيــز طـــائرة علونــا متنهــــا
لشــهود يــوم مثــله لــم يوصــفِ
طارت بنــا ، والليــل معتكر الدجــى
كبريق ســهم فى الظــلام الأســدفِ
نرعى بهــا حــق الاخـــاء مجــردا
ونجـــوز دار النجــم دون تخــوف
حتى بدت بــيروت .. تحكى جفنـــة
من لؤلؤ ، أو قطعـــة من زخرفِ !
يا ويحهــا ، ســرق الدخيــل ثمينهــا
وعــدا على الحـــرمات ، لــم يتعفف

وغــدت معــاهد حبنا ، بعد الســنى
ظلمـــاء خــاوية كقـــاع صفصفِ

ياللعـــروبة أصبحــت آمالهــــــا
جســدا ، بغـــير دمائنــا لم ينزف !

* * *

اليــوم ســار أعــز أصــحابى .. بلا
عــود ، فأيــة مقـــلة لم تــذرف ؟

يا ويحهم ، هل شيعوا حسنا ، وهــل
نزلوا بـــه درج الضريح : الأجوفِ ؟

واســـتودعوا الكنز الثمـــين أمانــة
للــه باقيـــة ليـــوم الموقــف

عــزّيت نفسى فى مصـــاب بالـــغ
ما كان ريــب الدهــــر فيه مســعفى

ان حطمــت آمالنــا .. فنفوســـنا
يومــا لغــير خــلودها لــم تهــدفِ

كنــا نجــــوم الشعر فى آفاقـــه
ان النجـــوم بريقهـــا لا ينطفــى

والشــعر من وحــى السماء وأمرهــا
واللــه يقــدّر للبيـــان ، ويصطفى !

« مرثاة أخرى للشـــاعر حسن كامل الصيرفى »

ظلمــوه حيـــا وجهـــلا نســـوه
أتراهــم وقـــد قضى أنصفـــوه

كـــم « لحـــون لـــه غدت ضـــائعات »
وســـط زيف من الألـــى جهـــلوه

و « شروق » قـــد بات فيهـــم غـــروبا
أتراهـــم تاهـــوا فلم يبصـــروه

و « صدى » ضاع،مثلما ضاع « نور »
و « دموع » فى لجهـــا أغـــرقوه

واذ « الوحى عـــاد » لـــم يفهمـــوه
لا ولا عـــذب « نبعـــه » شربـــوه

وحـــديث « لشـــهرزاد » كســـحر
ضـــاع فيهـــم لأنهـــم كذبـــوه

وابتهـــال ســـمت بـــه « صـــلوات »
وانبثـــاق « الضياء » قـــد أنكـــروه

ليت شـــعرى « مســـافر دون زاد »
كيـــف باللـــه قـــومه ضيعـــوه

شـــاعر أنشـــد اللحـــون كســـحر
عبقـــرى فالجـــن قـــد وقعـــوه

كـــم ظـــلال من الحـــروف ومعنى
فاق تصـــويره الـــذى صـــوروه

وخيـــال قـــد فاق كل خيـــال
جامـــح فى رؤاه لـــم يدركـــوه

قصروا عن غبـــاره ، والمجـــلى
لا ينى عـن عقـــوقه حاســـدوه

أيهـا البلبـل الـذى راح يشـــدو
خـــير لحـــن برغمهـــم رددوه

قـد سـلكت الخـــلود دربا بشـــعر
هـو لحـــن يزين مـــن أنشـــدوه

كـل بيـت كتبت يفضـــل قصـــرا
لفنــــاء وان ســـما شـــيدوه

يـزرع الحس فى الضـــمير فيبقـى
خـالدا فى قـلوب من حفظــــوه

ســـوف تبقى فى كل ديـوان شـعر
يا أبـا أنـت للبقــــاء بنــــوه

شـاعر أنـت ، والحيـــاة شـــعور
فقـــدوا العيش ان هـــم فقـــدوه

انمـا الســعر روح كل بيـــــان
فى ضـياء العيـــون قـــد ســطروه

أنـت فـوق الـذى رأوه ، كطـــود
قـدرك الفـــذ فـوق ما قـدروه

منحـــوا غـيرك الجـــوائز لـكن
فقت بالفضـل كل ما منحــــــوه

انمـا المـــال للفنـــاء ويبقـى
أدب صـــفوة الـــورى كاتبـــوه

ليس ســـيل الأقـلام محض مـداد
بـل خـــلودا وان يـزل شـانئوه

أظلم الشعر ان أقل هو تبر
فهو خلد بزائل شبهوه

فاذا ما مضيت للخلد فاهنأ
يبتنى الخلد فى الورى صانعوه

« صيرفى » البيان فقت ثراء
كل مال بجهلهم كدسوه

يا لمصر المعطاء تبقين روضا
فيك من يعشق الجمال يتوه

أم شوقى وحافظ وهو صوت
عرف النيل فيه من سمعوه

يرتوى من أتاك علما وفنا
كزلال لا يظمأن شاربوه

قلعة الدين أزهر سوف يبقى
مثل بحر ليرتوى طالبوه

لغة الضاد فيه بين بنيها
كوليد يحنو عليه ذووه

راية للخلود مصر وفيها
عرف الشرق بل بها عرفوه

هى مجد ليعرب وفخار
وهى رمز لعزة رفعوه

قال لى صاحبى عشقت علاها
قلت انى من بعض من عشقوه

كثر العاشـــقون فاشـــهد زحـــاما
حـــول نبـــع كـــل الـــورى واردوه

هاهنـــا الحـــب والســـماحة روح
وهنـــا المجـــد خـــاب من أنـــكروه

فاذا ضـــمم تربهـــــا صـــيرفيا
فبثـــوب الخـــلود قـــــد وثـــروه

شـــاعر فلسطين
على هاشـــم رشـــيد

المصادر والمراجع

* ابراهيم أنيس (الدكتور) : موسيقى الشعر ، الطبعة الثانيـة ، ١٩٥٢ م مطبعة لجنة البيان العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية •

* ابراهيم ناجى (الدكتور) : ديوان ناجى ، دار العودة — بيروت ، ١٩٧٣ م •

* أبو القاسم الشابى : ديوان « أبو القاسم الشابى » دراسة وتقديم الدكتور عز الدين اسماعيل ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ م •

* أحمد أمين : النقد الأدبى ، مطبعة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة « جزءان فى مجلد » •

* أبو شـادى (الدكتور أحمد زكى) : قطـرة من يـراع فى الأدب والاجتماع ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٦ ه ادارة مطبعة الظاهر بالقاهرة • « جـزءان » •

* • • • • • • • • : الشفق الباكى (ديوان شعر) عنى بنشره حسن صالح الجداوى ١٣٤٧ ه ١٩٢٦ م المطبعة السلفية •

* • • • • • • • • : مختارات من وحى العـام ، الطبعة الأولى ١٩٢٨ م ، طبع دار العصور للطبع والنشر بالظاهر ، القاهرة ، « ديوان شعر » •

* • • • • • • • • : أطياف الربيـع (ديوان شعر) ، مطبعة التعاون سبتمبر ١٩٣٣ م ، الطبعة الأولى •

* • • • • • • • • : فوق العبـاب ، الطبعة الأولـى ، مطبعة التعاون (ديوان شعر) •

* أحمد شوقى : الشـوقيات ، مطبعة الاستقامة ١٣٨١ ه الجـزء الرابع •

* أنطون غطاس كرم : الرمزية والأدب العربى الحديث ، دار الكشاف بيروت ، لبنـــان •

* بروكلمان (كارل) : تاريخ الأدب العربى ط دار المعـــارف بمصر ، الجزء الثالث •

* جان برتليمى : دراسة فى علم الجمـــال ، ترجمـــة الدكتور أنـــور عبد العزيز ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٨٠ م

* حسن كامل الصيرفى : الألحان الضائعة (ديوان شعر) مطبعة التعاون بالقاهرة ١٩٣٤ م •

* • • • • : الشروق (ديـــوان شـــعر) الطبعة الأولـــى ، دار المعارف ١٩٤٨ م •

* • • • • : صدى ، ونور ، ودموع ، مجموعة تضم ثلاثـــة دواوين هى : رجع الصدى ، وحول النور ، ودموع وأزهار ، الطبعة الأولى ١٩٦٠ م ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة •

* • • • • : صلواتى أنا (ديوان شعر) ، ط دار المعـــارف بمصر ١٩٨٢ م •

* • • • • : شهرزاد (شعر) ط دار المعارف ، ١٩٨٠ م •

* • • • • : نوافذ الضياء (ديوان شعر) وا دار المعارف ، ١٩٨٠ م •

* • • • • : النبع (ديوان شعر) ط دار المعارف ١٩٨٢ م •

* • • • • : ورقات متفرقات ، (ديوان شعر) مخطوط بقلم الشـــاعر •

* • • • • : زاد المسافر (ديوان شـــعر) ط دار المعـــارف ١٩٨٠ م •

* حسن كامل الصيرفى : نغمات ونسمات (ديوان شـعر) مخطـوط بقلم الشـاعر .

* . . . . : عودة الوحى (ديوان شعر) ط دار المعـارف ١٩٨٠ م .

* . . . . : همسة العطر للنسم ، (ديوان شعر) مخطوط ، بقلم الشاعر .

* السباعى بيومى وآخرون : وصف الطبيعة وتطوره فى الأدب العربى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٥٧ م .

* السحرتى (مصطفى عبد اللطيف) : أدب الطبيعة ، ط مطبعة التعاون ١٩٣٧ م .

* . . . . : الشعر المعاصر على ضـوء النقـد الحـديث ، ط مطبعة المقطم والمقتطف بمصر ١٩٤٨ م .

* . . . . : شعر اليوم ، ديسمبر ١٩٥٧ م ، اصدار رابطـة الأدب الحديث بالقاهرة .

* . . . . : النقد الأدبى من خلال تجاربى ، يونية ١٩٦٢ م مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة .

* شوقى ضيف (الدكتور) : الفـن ومذاهبـه فى الشعر العـربى ، ط دار المعارف مكتبة الدراسات الأدبية .

* . . . . : فى النقد الأدبى ط دار المعارف ، الطبعة الثانية ، مكتبة الدراسات الأدبية .

* عبد العزيز شرف (الدكتور) : الرؤيا الابداعية فى شعر الهمشرى ، ط دار المعارف ، سلسلة اقرأ ، ديسمبر ١٩٨٠ م .

* على محمود طه (المهندس) : ديوان على محمود طه ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٢ م .

* كمال نشأت (الدكتور) : أبو شـــادى وحركة التجديد فى الشـــعر العربى الحديث ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ م .

* . . . . : شعر المهجر ، المكتبة الثقافية ، يناير ١٩٦٦ م ، العـــدد ١٥٠ .

* ماهر حسن فهمى (الدكتور) : المذاهب النقـــدية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط دار الطباعة الحديثة .

* مجدى وهبة وكامل المهندس : معجم مصطلحات العربية فى اللغـــة والأدب ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٩ م .

* محمد سعد فشوان (الدكتور) : مدرسة أبولو الشعرية فى ضـــوء النقد الحديث ، ط دار المعـــارف بمصر ١٩٨٢ ، مكتبة الدراســـات الأدبية .

* محمد عبد المنعم خفاجى (الدكتور) : دراسات فى الأدب العربى الحديث ومدارسه ، نشر مكتبة الأزهـــر ، دار الطبـــاعة المحمدية ، الجزء الثانى (بدون تاريخ) .

* محمد غنيمى هلال (الدكتور) : النقـــد الأدبى الحـــديث ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م دار النهضة العربية بالقاهرة .

* محمد نايل (الدكتور) : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ، مطبعة الرسالة بعابدين ، القاهرة (بدون تاريخ) .

* محمود الربيعى : فى نقد الشعر ، ط دار المعـــارف بمصر ١٩٧٧ م الطبعة الرابعة .

* مصطفى ناصف (الدكتور) : الصورة الأدبية ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٥٨ م .

* * *

أما الدوريات وهى كثيرة فقد اكتفيت بذكرها فى الهامش فى موضعها من الدراســـة .

الكلمة الأخــيرة :

هى كلمة عــزاء لكل الشعراء

فى وفاة شاعر كبير ، مثل الشــاعر حسن كامل الصيرفى ، تغمــده الله برحمتــه •

ففى العشرين من شــهر مايو ١٩٨٤ ، استأثرت به رحمــة الله ، وشيعه أحبابه وكل عارفى فضله الى مثواه الأخــير ، بالدعاء والثنــاء ، وأقامت له رابطة الأدب الحــديث حفــل تأبين فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٨٤ بنقابة الصحفيين فى القاهرة •

ومن عجب أن يمــوت صديقه الناقــد الكبير مصطفى عبد اللطيف السحرتى زميله فى أبوللو ، فى التاسع عشر من شهر مايو ١٩٨٣ ، وأن يموت الصيرفى بعده بعام واحد ، وفى الشهر نفسه •

ويظهر كتابى هذا دون أن يراه الشاعر ، ودون أن يعلم ماذا أقــول أو قلتــه فيــه •

فالى روح « الصيرفى » الشاعر المبدع الكبير أقدم كتابى هــذا ، رمز تقدير ووفاء واكبار •

المؤلف

فهرست الكتاب

رقم ايداع ٥٩٩٨ لسنة ١٩٨٤

مطـــابع سجل العـــرب